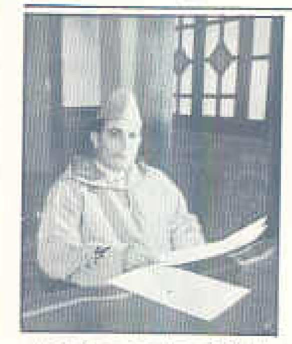

دعوة الحق
لة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية
وبشؤون الثقافة والفكر
درها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
بالمملكة المغربية
• مستقبل الاجتهاد الفقهي
• الوزارة والوزراء بالمغرب
(نموذج للوزراء وكتاب الدولة بالمغرب الأقصى)
• تاسيس ركب الحاج المغربي
• الشروح المغربية على صحيح مسلم



شهرية تعنى بالدراسات الاسلامية
وبشؤون الثقافة والفكر

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية
الرباط . المملكة المغربية



أسسها :
جلالة المغفور لـه
محمد الخامس
قدس الله روحه
سنة
1376 هـ — 1957 م

التحرير :
الهاتف : 623.60

الإدارة و التوزيع
636.93
627.03
627.04
608.10

❋

الاشتراكات : في المملكة المغربية : 70 درهماً
في العالم : 80 درهماً

الحساب البريدي : رقم 55-485 . الرباط

Daouat El Hak compte chèque postal 485 - 55
à Rabat

بسم الله الرحمن الرحيم

البعد الديني في فكر القيادة المغربية

لمعالي وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية
الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري

التمس موظفوا وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية من السيد الوزير أن يترأس اجتماعا لهم عقدوه بمقر الوزارة حول عملية الاكتتاب الوطني التلقائي لبناء مسجد الحسن الثاني بالدار البيضاء..

وقد ارتجل السيد الوزير أمام الحاضرين بهذه المناسبة كلمة أشاد فيها بالمبادرة الملكية الكريمة لبناء هذه المعلمة الخالدة كما أشاد بموظفي هذه الوزارة الذين هم في مستوى الانتساب إليها، وفي مستوى المسؤولية الدينية.

وفيما يلي نص الكلمة :

حضرات السادة والسيدات موظفي وموظفات وزراة الأوقاف والشؤون الإسلامية.
السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

في هذا اليوم المبارك، وبطلب من موظفي هذه الوزارة نجتمع للتعبير عن مشاعرنا جميعا ونحن نرى المغرب في القرن العشرين، يهب ملكا وشعبا لبناء صرح جديد من صروح الحضارة الإنسانية، وقلعة من قلاع الإيمان، وحصن من حصون الإسلام، ومنارة من أصدق منارات السلام والإخاء والوئام، بين بني الإنسان، ذلك هو مسجد الحسن الثاني الذي قامت قواعده، ونهض بنيانه، على تقوى من الله ورضوان، وفي اعتقادنا أن مجرد التفكير في بناء هذا المسجد في حد ذاته، مفخرة لأنه برهان آخر على عمق البعد الديني، في فكر القيادة المغربية، وعلى تجذر الإيمان في

وجدانها، وهذا ليس غريبا، والحسن الثاني من أولائك السادة الأشراف أحفاد الرسول ﷺ الذين جاءوا من ينبوع النخل خصيصا من أجل ترسيخ جذور الإيمان والإسلام في هذه الديار، وهو ليس غريبا أيضا، لأن الحسن الثاني بما أتاه الله من علم وحكمة، لابد أن يختار طريق الإيمان، والله تعالى يقول : ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ وقد اختار طريق الإيمان في سياسته الرشيدة، في كلياتها وجزئياتها في جميع أعماله، التي لا تزيد الإسلام في هذه البلاد إلا رسوخا وقوة ومتانة، ثم إن إشراك الشعب المغربي في بناء هذا المسجد له ثقله في ميزان العلاقة الحميمة، والوشيجة الصميمة، التي تربط هذا الشعب بقائده، ذلك أن الحسن الثاني عود هذا الشعب إشراكه في المفاخر، واستصحابه في مضمار جلائل المآثر، فلما وفقه الله إلى إنجاز هذا العمل العظيم، وبناء هذا الصرح الحضاري الفخيم، وكان ذلك مما يخلد به ذكره، ويبقى في سجلات التاريخ التنويه به وشكره. أبى إلا أن يجعل لشعبه الحظ الأوفى، من حسن الذكر وجليل المنقبة إيثارا لشعبه، وبرهانا على متين حبه، ولقد ظهر الشعب المغربي في مستوى هذا إلا يثار، فهب برجاله ونسائه، شيوخه وشبابه، في الحواضر والبوادي، والشوارع والنوادي، يمد يدا سخية بالعطاء، ويرفع صوتا حارا صادقا بالتكبير والتهليل وتلبية النداء، وينصب أكف الضراعة بالدعاء كما دعا سيدنا إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام، وهما يرفعان قواعد البيت الحرام : ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت واسماعيل، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم﴾.

من هذه المعاني، أيها السادة الأفاضل، نستمد شعورنا بالغبطة والسرور، والفرحة والحبور، والاعتزاز والافتخار بهذه المبادرة الملكية الحسنية العلوية الشريفة، ألا وهي بادرة بناء هذا المسجد، ومن سيكون أكثر فرحة منا، نحن أبناء وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ؟ ومن يكون استعداده، أكبر من استعدادنا، واعتزازه أوسع من اعتزازنا، ونشوته وحبوره ونشاطه أعظم من نشوتنا ونشاطنا، ونحن أبناء هذه الوزارة التي شرفها الله تعالى بالإشراف على بيوت الله، بناء وتشييدا، وإصلاحا وتفريشا وتزيينا وتعميرا، وشرفها الله تعالى بالرعاية الخاصة التي تحظى بها من طرف أمير المومنين، وحامي حمى الوطن والدين، صاحب الجلالة مولانا الحسن الثاني أيده الله بنصره المبين.

أيها السادة الأفاضل، الواقع أنه منذ أعلن سيدنا المنصور بالله، عن بناء هذا المسجد، وأنا ألمس في وجوهكم وعيونكم معا لم الفرحة، وأمارات النشاط، وكأنكم شعرتم بأن سيدنا المنصور بالله قد أراد أن يبرز ما تشعرون به جميعا من غيرة على بيوت الله، ومن حرص على تشييدها، وتكثيرها، وتوسيع مداها ورقعتها، فشعرتم بالنشاط، وبالاعتزاز، وعبرتم بجميع الوسائل عن استعدادكم للإسهام كل بحسب قدرته ومستواه المادي في هذا البناء، في هذا العمل الحضاري، وأنا كمسؤول

عن هذه الوزارة، أشعر في الواقع بأن موظفيها في مستوى الانتساب إليها، وفي مستوى المسؤولية الدينية الملقاة على عاتقها، وكيفما كانت مساهمتكم المادية كثيرة أم قليلة، فإن ذلك لا يهم بقدر ما يهم هذا الشعور الفياض، الذي تشعرونه، وتعبرون عنه في كل مناسبة.

فطوبى لكم، وجزاكم الله أحسن الجزاء، وجعل الله تعالى أيام هذه الوزارة أياما حافلة بخدمة الإسلام، وخدمة بيوت الله، في ظل أمير المومنين، وحامي حمى الوطن والدين، جلالة الملك الحسن الثاني الذي نسأل الله تعالى أن يطيل عمره ويحفظه للمغرب وللإسلام وللمسلمين وللإنسانية، وأن يقر عينه بسمو ولي عهده الأمير الجليل سيدي محمد، وصنوه السعيد الأمير المولى رشيد وسائر أفراد أسرته العلوية الشريفة إنه سميع مجيب والسلام عليكم ورحمة الله.

آخر ما يباع من المتاع...

قالت وأبدت صفحة كالشمس من تحت القناع :
«بعت الدفاتر؛ وهْي آخر ما يباع من المتاع»
فأجبتها، ويدي على كبدي، وهمَّت بانصداع :
«لا تعجبي (فيما رأيتِ) فنحن في زمن الضياع.

الحداد المهداوي الخولاني

جلالة الملك الحسن الثاني يوجه خطابا ساميا إلى شعبه الوفي في ذكرى عيد الشباب المجيد:

عيد الشباب عيد الطموح وعيد البقاء

وجه صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني الذي كان محفوفا بصاحب السمو الملكي ولي العهد الأمير سيدي محمد وصاحب السمو الملكي الأمير مولاي رشيد وصاحب السمو الأمير مولاي هشام مساء أمس الجمعة خطابا إلى الأمة بمناسبة عيد الشباب.

وفيما يلي نص هذا الخطاب التي نقل مباشرة على أمواج الإذاعة وشاشة التلفزة من القصر الملكي بالدار البيضاء

نص الخطاب الملكي السامي

الحمد لله والصلاة والسلام على مولانا رسول الله وآله وصحبه.

شعبي العزيز :

سأفتتح كلمتي هاته بما قاله الشاعر :

«هنيئا لك العيد الذي أنت عيده». نعم شعبي العزيز. أن عيد الشباب هو عيد المغرب. وعيد الشباب هو العيد والمناسبة.. المناسبة التي تمكننا خلال تاريخنا المجيد وخلال القرون البيضاء الغراء التي عرفها ماضينا من أن نرجع بالذاكرة والآثار والمكتوب والمبني والمشيد إلى سالف عصرنا وإلى أساس دولتنا وأمتنا. كما أن هذا العيد يتيح لنا الفرصة لأن نشرئب على المستقبل وأن نطل على الغد وأن نطمح في المستقبل.

فعيد المغرب إذن كل سنة منذ ابتداء وجود المغرب كدولة هو عيد المغرب عيد شبابه. وعيد المستقبل لأن المغرب هو قبل كل شيء رضيع لماضيه وسيبني مستقبله.

وإذا نحن تصفحنا صفحات التاريخ نجد أنه قلما حبا الله سبحانه وتعالى شعوبا أو أمما بهذه النعمة المتجددة. نعمة العيش في أن واحد بين ماضي وحاضر ومستقبل وأن نرى أن حاضرنا جدير بماضينا ونؤكد العزم ليبقى مستقبلنا جديرا بحاضرنا.

وهذه شعبي العزيز سلسلة تاريخية بالطبع عرفت نبوات وكبوات وعاشت ظلمات وأزمات. ولكن لم تكن تلك الأحداث إلا أحادث سير ولم تؤثر نهائيا لا على عقليتنا ولا على مجتمعنا ولا على العش وحينما أقول العش أو الوكر أعني به ذلك البناء الذي بنيناه مثلما تبنيه الطيور ورقة ورقة جيلا بعد جيل حقبة بعد حقبة بنيناه لنا لا لغيرنا وبنيناه لأخلاقنا لعاداتنا لسلالتنا الأسروية ولديننا المتعمق فينا ولروحنا ولوطنيتنا الخاصة بنا. ومن هنا نرى أن الامتيازات التي أعطاها الله سبحانه وتعالى لهذا البلد هي امتيازات وخصائص

كثيرة وكثيرة لا يمكن لأي أحد من المؤرخين كيفما كانت عبقريته وكيفما كان إدراكه للتاريخ أن يضعها واحدة تلو الأخرى دون أن ينسى شيئا. ذلك لأن عطاء الله سبحانه وتعالى ما كان عطاء محظورا بل عطاؤه سبحانه وتعالى هو عطاء يتغير ويزيد وينقص ثم يزيد ثم يتغير وكلما جاء العطاء جاء في إبان ما وفي ظروف ما وبنوعية ما.

وحينما قلت لك شعبي العزيز هنيئا بالعيد الذي أنت عيده أردت أن أجعل من هذا الشطر مقدمة لكلمتي التي وأن أجعل من هذا الشطر مقدمة لكلمتي التي وإن كانت ستحتوي على معاني كثيرة وغزيرة سأحاول أن لا أطيل عليك بها.

في الأسابيع الماضية شعبي العزيز ترأست مجلسا وزاريا. وقد نشر بلاغ عما صار في ذلك المجلس. ولكن لازلت أعتقد أن لاشيء أحسن وأنجح وأفيد من الحوار المباشر. وقلت باختصار في ذلك المجلس أن سنة 1988 هي سنة ستمكن المغرب من أن يجدد شبابه، وأن يهنئ نفسه بعيد شبابه، بهذا العيد الذي هو عيده. وذلك لأن ولله الحمد حكمتك شعبي العزيز وصبرك ومصابرتك وثقتك الغالية التي وضعتها في منذ أن تقلدت أمورك مكنتنا من أن نطل اليوم وبارتياح على غد باسم ولكن غد خطير جدا.

ففي ظرف ستة أشهر شعبي العزيز تمكنا من أن نحقق ثلاثة أهداف :

- الهدف الأول : هو هدف سيادة.
- والهدف الثاني : هو هدف أمن واطمئنان.
- والهدف الثالث : هدف الأباء والأجداد.

فبخصوص هدف السيادة تمكنا من أن نضبط أحسن من ذي قبل شؤوننا المالية والاقتصادية فأصبحنا بذلك قادرين على تسطير الخطة الإنمائية دون أن يكون لأي أحد حق التدخل في اختياراتنا. ذلك أننا ولله الحمد خرجنا من النفق وأصبحنا نرى النور.

علينا أن نكون في المستقبل أكثر انتظاما.

وما تحقق هذا كله إلا بشيئين هما النظام والانتظام. فيجب علينا إذن أن نكون في المستقبل أكثر نظاما وانتظاما إذا نحن أردنا أن نكون أكثر حرية في اختياراتنا واختيارا أسبقياتنا.

وفي العالم الذي نعيش فيه ونظرا لارتباط الاقتصادات بالاقتصادات والماليات بالماليات والحاجيات بالحاجيات من الصعب جدا على كل دولة يمكنها أن تقول أن اختياري هذا هو بمحض إرادتي. ولا أريد أن نقع في فخ العجرفة والكبرياء أبدا. علينا أن ننظر ونحلل ونلاحظ أننا أكثر حرية مما كنا عليه في الماضي. وهذه الملاحظة وهذا التحليل يكفيان وحدهما لأن نحمد الله سبحانه وتعالى ونشكره. ولكن علينا أن نعلم أن الدواء الذي أخرجنا من مدة السقم هو النظام. وذلك النظام هو الذي سيمكننا من أن نصل إلى طور العنفوان والقوة وصحة العضلات اقتصاديا وماليا، فعلينا إذن أن نكون منتظمين ومنظمين وعلينا كذلك أن نكون متواضعين شاكرين لله سبحانه وتعالى أفضاله ونعماءه.

الهدف الثاني أننا حققنا الطمأنينة والاطمئنان وأنك شعبي العزيز تذكر أنني دائما أكرر كلما دعت الضرورة والظروف إلى ذلك هذا الحديث النبوي الشريف : الذي قال فيه النبي ﷺ «مازال جبريل يوصي بالجار حتى ظننت أنه سيورثه».

كم تألمنا على ما قاسينا جارنا ونحن.

فكم تألمنا شعبي العزيز أنت وأنا على ما قاسينا جارنا ونحن ولا أقول نحن وحدنا ولا جارنا وحده من مشاكل ومتاعب الخصام والقطيعة.

وإنك لتقدر مثلما يقدر جارنا الشقيق ما ضيعناه من وقت الشيء الذي يجعلك أنت شعبي العزيز والشعب جارك الشقيق تلمسان أولا الوقت الذي ضيعناه.

وثانيا ما يجب علينا استدراكه وأخيرا ما يجب علينا تشييده وبناؤه.

كانت حفاوة الرئيس مرآة لما أحسست به.

أننا ولله الحمد بمناسبة زيارتنا للقطر الشقيف الجار الجزائر لاقينا هناك حفاوة على جميع المستويات. فلم تكن حفاوة الرئيس بنجديد حفاوة خاصة به بل والله الحمد كان الرئيس مرآة - كما يجب أن يكون القادة في العالم مرايا لشعوبهم - كان احتفاء الرئيس وحكومته في بي - بخديم المغرب طبعاً - مرآة لما أحسست به من دفئ وحرارة وشوق ولواعج للماضي. وقد أحسست بهذه العواطف كلها وأدركتها لأنني حتى أنا بنفسي كنت أمثلك شعبي العزيز أمثل لواعجك وحنينك إلى الماضي وطموحك في المستقبل ليرجع العناق عناقا والائتلاف أئتلافا.

فإذن تحقق الهدف الثاني والله الحمد في الستة أشهر الأولى من هذه السنة السعيدة.

الحدث الثالث له وجهان : وجه عمودي ووجه أفقي. الوجه العمودي دون أن أطيل عليك هو أن المغرب والله الحمد بجديته وبالذكاء الذي فر به وبسط به مشاكله ومطالبه وبعزمه الذي لم يكن ليقرأ فقط في رسالاته بل يقرأ في مؤسساته المحلية والعامة.

المستقبل بسام ويدعو للتفاؤل.

كل هذا جعل أن طلبنا الإنضمام للسوق الأوروبية المشتركة وإن لم يتحقق شكليا ونهائيا فقد أصبحت له معالم تدل على أن المستقبل بسام ويدعو للتفاؤل جدا.

إننا تمكننا من إعطاء صورة خاصة عن بلدنا وأن نظهر للأوروبيين أن المغاربة ليسوا أجانب على الأوروبيين.

بل كانت أيام ويمكن أن أقول قرونا كان المغاربة بدورهم قبل اليوم يفتحون المدارس ويدرسون فيها الأوروبيين والمستشفيات ويداوون فيها الأوروبيين وحينما خرج المغاربة من أوروبا لم يتركوا أنقاضا ولم يتركوا جدارا يبكي ولا أرامل تحكي بل تركوا حضارة ومعالم وأكبر معالم الحضارة هي حضارة النماء والرأي، والري.

فإذا التقى المغرب اليوم بأوروبا يجب علينا أن نكون في أنفسنا لا مركب نقص ولا مركب قوة. فالمغرب مؤهل دون غرور بما له من ماض وبما يطمح إليه من مستقبل وبما يفعله في الحاضر.

المغرب مخاطب متزن وشريك محترم.

أن يكون مخاطبا ملتزما وأن يكون شريكا ملتزما ومحترما في مجموعة كالمجموعة الأوروبية ولا سيما أنه في الوقت الذي ربطنا الخيوط الرئيسية الأولى عموديا جاءت ولله الحمد أفقيا القمة المغربية الكبرى في عاصمة الجزائر ضمت كلا من ليبيا وتونس والجزائر والمغرب وموريتانيا.

وكنا نأمل ونرجو أن نعيش تلك اللحظات وأن تعيشها شعوبنا بالوسائل المموعة والمرئية وقد حقق الله سبحانه وتعالى آمالنا كلنا آمال الشعوب وآمال القادة وربما جعلتنا نحن القادة جعلتنا تلك الوسائل المسموعة والمرئية نحن القادة نأخذ بعين الاعتبار جسامة الموقف وخطورة المصافحات.

أسارى المستقبل المشترك.

فأدركنا ـ وأقول أدركنا جميعا ولا يمكنني أن أتصور غير ذلك ـ أن العناقات والمصافحات والقبلات جعلت منا نحن القادة أسارى المستقبل المشترك أسارى التفكير المشترك وأسارى الشدة والرخاء المشتركين.

وما أحلاها شعبي العزيز من تخمينات وتفكير وأحلام حينما يقعد كل واحد منا أمام خريطة المغرب العربي الكبير وحينما يراها ويحللها ويتصورها من غربها إلى شرقها ومن شمالها إلى جنوبها، وحينما يطل على جنوبها فيرى إفريقيا السوداء الشقيقة وحينما يشرئب إلى شمالها فيرى البحر الأبيض المتوسط وضفافه الشمالية. ما أحلى هذه الرؤية وما أحلى هذا المنظر ما أحلاه وما أجمله وما أثمنه وما أخطره.

على المغرب أن يكون في مستوى مسؤولياته.

هذه شعبي العزيز هي العوامل التي حاولت أن أجيز في تعدادها ولكن حاولت أن أجد الألفاظ والرنات التي تجعلك تدرك ولست في هذه الحاجة أن المغرب يجب أن يكون في مستوى مسؤولياته وفي مستوى رغباته ومطامحه وأحلامه.

إن سنة 1988 إن شاء الله سوف تكون بالنسبة لنا وبالنسبة لقطرنا الغربي الكبير سنة خير وسنة انطلاق الخير وسنة وبناء الخير وسنة سن الخير.

والله نسأل ألا يحرمنا من أن نرى ذلك الخير ونعيشه ونلمسه جميعا من ليبيين وتونسيين وجزائريين ومغاربة وموريتانيين دون تفاوت ولكن ككل مجتمعين حول ورش واحد لا ميزة لأحد منا على الآخر إلا بالابتكار والجدية.

عيد الشباب عيد الطموح وعيد البقاء.

ولكن شعبي العزيز لنرجع إلى ما كنا بصدده ألا هو عيد الشباب وعيد الطموح وعيد البقاء ومعلوم أن البقاء لله. ولكن أريد أن يبقى المغرب أكثر ما يمكن في بقائه. فإذا استعملنا الحروف الكبرى والصغرى فإن بقاء المغرب سيكتب بالحروف الصغرى والبقاء الكبير لله سيكتب بالحروف الكبرى.

إذن من حقنا ومن واجبنا أن ندعو الله بالبقاء ولا ننسى أن النبي ﷺ كما قلت لك يقول : «إن الله يحب العبد الملحاح».

فمن جملة الأسباب التي جعلت أن المغرب باق وسيبقى هو كما قلت لك شعبي العزيز أنه بحث عن الكيفية الهندسية والروحية والفلسفية كيف يبني بها وكره وعشه ويحيط في آن واحد نفسه بدرع من حديد.

بيتنا مطاطا لا يسجننا.

ويجعل ذلك الدرع الذي يحفظه مطاطاً يسمح له بأن ينفتح على الخارج وأن يمد رأسه شمالا فيعانق أوروبا وجنوبا فيعانق إفريقيا وشرقا فيعانق أشقاءه العرب وغير العرب.

فالحقيقة هي أن بيتنا بيت صلب من حديد وفي نفس الوقت جعله الله مطاطا لا يسجننا، ولا ينقص من حريتنا وانفتاحنا.

ومن أسرار هذه الخاصية الإلهية الربانية هي أننا بقينا دائما متشبثين بدين الله سبحانه وتعالى وهو الإسلام الذي له الكتاب كأساس وكأصل وله السنة كتطبيق وتفسير وله الجماعة كحصن وتحصين.

وتشبثنا بالله سبحانه وتعالى هو ما جعلنا أن ننتصر في جميع معاركنا ويواكبنا النجاح بل يقتبلنا النجاح. فدائما يصادفنا النجاح في الطريق ونتقاسم معه الطريق ولله الحمد وبكل تواضع فإن هذا التعلق بالله وبسنة رسوله هو الذي مكننا من أن نعيش من أن نكون مغاربة بكل اختصار.

والآن ولو أنه لا يوجد في ديننا كرسي للاعتراف من اللازم بيني وبين سكان الدار البيضاء الأعزاء أن أجلس أمامهم على كرسي الاعتراف. ففي يوم وفاة والدنا سيدنا محمد الخامس طيب الله ثراه. كنت قررت أن أبني ضريحه المنور في مدينة الدار البيضاء إلا أنه بعد أسابيع ارتأيت أننا إذا دفنا سيدنا رحمه الله في الدار البيضاء سيغترب شيئا ما علي وعلى إخوتي نظرا لبعد المزار. كما أن عدة رؤساء دول سيضطرون إلى مغادرة الرباط والتوجه إلى الدار البيضاء لزيارة الضريح أنني أعترف أمام البيضاويين أنتظر منهم على كل حال الشيء المنتظر منهم.

ولكن منذ ذلك اليوم الذي قررت بناء الضريح بالرباط قررت كذلك أن أعوضهم بشيء آخر وفكرت في بناء مسجد هو الآن في طور البناء على شاطئ البحر وسيجعل من الدار البيضاء مدينة فريدة من نوعها حيث أن هذا المسجد سيكون فريدا من نوعه. أردت أن أبني هذا المسجد على الماء «وكان عرشه على الماء» كما أردت أن يكون المصلي فيه والداعي والذاكر والشاكر والراكع والساجد محمولا على الأرض ولكن أينما نظر يجد سماء ربه وبحر ربه.

هذا المسجد سيكون من أكبر المساجد العالم الإسلامي وسيسع لعشرين ألف مصل بالداخل وفي الصحن الخارجي يمكن أن يصل إلى حوالي 80 ألف. كان في الإمكان أن يبنى هذا المسجد وترصد له ميزانيته ويتم التخطيط له على سنين وسنين ولكنني شعبي العزيز قرأت في الصحيحين أن النبي ﷺ قال : «من بنى مسجدا يذكر فيه إسم الله بنى الله له بيتا في الجنة».

ومن هنا أتتني الفكرة أن يبنى مسجد الدار البيضاء باكتتاب من جميع المغاربة حتى يكون لهم فيه الفضل ولو بدرهم واحد.

وهذه الورقة فيها تصميم للمسجد كتب في أعلاها «وكان عرشه على الماء» وفي أسفلها الحديث النبوي الشريف «من بنى مسجدا يذكر فيه إسم الله بنى الله له بيتا في الجنة».

مسجد الدار البيضاء جوهرة تستحق الاهتمام.

وإذا نحن إن شاء الله أتممنا هذا المسجد وستتم إنجازه بحول الله ستكون لي فرصة ومناسبة لإرضاء سكان الدار البيضاء حتى لا يغضبوا من كوني حرمتهم من ضريح محمد الخامس وأعتقد أن مسجدا يذكر في إسم الله من أكبر المساجد في العالم الإسلامي يعبر كذلك جوهرة جديرة بأن يعطيها سكان الدار البيضاء والمغاربة جميعهم الأهمية والقيمة اللائقتين بها.

وقد قررنا أن نفتتح ابتداء من الأيام المقبلة اكتتابات في جميع أنحاء المغرب. وأقول لكم شعبي العزيز أن هذا الاكتتاب ليس فيه أي إرهاق فالحديث النبوي واضح فمن أعطى ولو درهما

واحدا يعتبر وكأنه بنى المسجد. وجميع من شارك في الاكتتاب ولو بدرهم واحد يمكنه الاحتفاظ بهذه الورقة في بيته ليربي أبناءه وأسرته بواسطتها على التشبث بحبل الله والإسهام في بناء مساجد الله يذكر فيها إسم الله.

لي اليقين شعبي العزيز أنك ستسارع إلى عمل مثل هذا لأن هذا المسجد سيضاهي عدة مساجد ماعدا المسجد الحرام والمسجد النبوي.

ولكن باستثناء هذين المسجدين لا أظن أنه سيوجد في العالم الإسلامي مسجد مثل هذا.

فأملي شعبي العزيز أن تساهموا في بناء هذا المسجد ولو بدرهم لكل واحد.

أملي أن يساهم المغاربة في بناء هذا المسجد.

وحتى من ساهم بدرهم فقط لكونه غير ميسور يمكنه أن يسأل الفقيه الذي هو بجواره ليبين له أن كونه ساهم بهذا المبلغ البسيط كأنه بنى المسجد وكأنه ثواب بناء المسجد راجع إليه.

فأملي فيكم أيها المغاربة المسلمون الغيورون على دينهم المعتزون بتاريخهم وحضارتهم أن تساهموا في بناء هذا المسجد لأنه سيكون إن شاء الله في القرون القادمة عنوانا آخر يضاف إلى عناوين أخرى تعطي الدلالة القاطعة على أن حضارتنا كما قلت لكم حضارة لا يعرف لها أول ولا آخر فهي شابة تنطلق في كل وقت وحين ومن كل مكان ولكن انطلاقتها وسلامتها لا يمكن ضمانها إلا باتكائها على قدمها وهنا أقول لك شعبي العزيز أن عيد الشباب سيبقى عيدك كل حتى في القرون المقبلة، لهذا بدأت كلامي بـ (هنيئا لك بالعيد الذي أنت عيده) ولفضت أنت ليست للحال وليست للمستقبل بل أعتبره من الناحية النحوية وفلسفة النحو تعني أن حالتك الدائمة أن تفني الأرض تضل عيدا فـ (أنت عيده) تعني الشباب عيدك شعبي العزيز.

والله سبحانه وتعالى لم سأل أن يثبت خطانا وأن يعيننا لأني حينما قلت لك أن المغرب مقبل على أعمال مهمة لم أخف عنك جسامة الأهداف والخطواب التي تتطلب منا التتبع والسهر والجد والوفاء بالكلمة والوفاء بالالتزام.

هذه كلها خصال لها ثقل كبير على أعناقنا فلا شيء يعيننا على حمل هذه الالتزامات إلا قوة الله سبحانه وتعالى وتوفيقه وإلهامه وإرشاده إنه سبحانه وتعالى لم يخيب لنا أملا ولم يردنا خائبين في جميع أحوالنا والمظنون فيه سبحانه وتعالى أن يزيدنا من إلهامه ومن تسديده وإرشاده وأن يثبت أقدامنا ويطهر قلوبنا ويعيننا دوما على العمل لأن يبقى مغربنا في آن واحد أصيلا وشابا كل سنة وكل عام والسلام عليكم ورحمة الله.

الخطاب السامي لجلالة الملك الحسن الثاني بمناسبة الذكرى الخامسة والثلاثين لثورة الملك والشعب

وجه صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني مساء يو السبت خطابا إلى الأمة بمناسبة الذكرى 35 لثورة الملك والشعب. وقد نقل الخطاب الملكي الذي كان جالة الملك خلال توجيهه محفوفا بصاحب السمو الملكي ولي العهد الأمير سيدي محمد وصاحب السمو الملكي الأمير مولاي رشيد وصاحب السمو الأمير مولاي هشام على أمواج الإذاعة وشاشة التلفزة.

وفيما يلي النص الكامل لخطاب صاحب الجلالة :

الحمد لله.

والصلاة والسلام على مولانا رسول الله وآله وصحبه.

شعبي العزيز :

في مثل هذا اليوم من سنة 1953 أي قبل 35 سنة تفجرت ثورة الملك والشعب. ومنذ ذلك اليوم وأبي رحمه الله عليه وعبد الله الضعيف هذا، نحتفل وإياك كل سنة بهذه الذكرى، وذكرى تكررت أكثر من 35 سنة يصعب سواء على الكاتب أو الخطيب أن يأتي بشيء جديد، أو أن يضفي على ما أضفاه الله سبحانه وتعالى على ثورة الملك والشعب من الأوصاف وما أحاطها به من الهالات، وما رفع به شأنها فوق جميع الأحداث. لذا يصعب على كل من يتكلم كل سنة عن ثورة الملك والشعب أن يأتي بشيء جديد.

وقبل أن أخاطبك فكرت طويلا فوجدت في كتاب الله سبحانه وتعالى وكثير ما يجد فيه المؤمن المسلم ما يشفي غليله وما يملأ تفكيره وخياله آية تقول : ﴿من المومنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا﴾.

لست في حاجة إلى تفسير هذه الآية وقد فسرها ويفسرها وسيفسرها عباقرة العلماء

والمفسرين. ولكن حاولت أن أستنبط منها قاعدة تاريخية واجتماعية ربما إذا كانت تنطبق على أمة دون أمة وعلى دولة أكثر من دولة فهي تنطبق على أمتنا ودولتنا بكل تواضع وبكل شكر لله.

ذلك أن الله سبحانه وتعالى يقول ﴿من المومنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا﴾ فإن المفسر إذا أراد أن يفسر هذه الآية يمكن أن يرى في تريكيبها أن هناك بعض الدول التي تعرف وقفات بين تاريخ وتاريخ وتعرف سكونا سياسيا بين حقبة وحقبة.

﴿فمنهم من قضى نحبه﴾ والنحب هنا عندي ليس هو الموت بل أن معنى قضى نحبه هو قضى ما كلف به فمات بعد ذلك.

﴿ومنهم من ينتظر﴾ إن هذا اللفظ «ينتظر» أرى أنه لا ينطبق على تاريخنا.

إن الله سبحانه وتعالى حبا أجيالنا كلها بعدم الانتظار وذلك ليضم دائما إل المفاخر جيلا من أجيالنا. فإذا نحن تصفحنا تاريخنا منذ أزيد من 12 قرنا نجد أن الرجل المغربي والمرأة المغربية لم يعرفا في أي وقت من الأوقات مدة تعني التوقف أو الانتظار أو عدم التجنيد. بل أراد الله بنا سبحانه وتعالى أن نبقى شعبا مجندا دائما. وحينما أقول مجندا لا أخذها من اشتقاقها من الجندي أو المحارب بل حين أقول مجندا فبمعنى أن الله سبحانه وتعالى أراد أن يكون دائما الشعب المغربي على أهبة وعلى استعداد مهيأ فكريا وروحيا ووجدانيا وعقلانيا. مهيئا ليتقلى الرسالة وليبلغها ولأن يعطي الرسالة تلك الأمانة إلى من سيخلفه. هذه نعمة من الله سبحانه وتعالى لا يمكننا ولن يمكننا أبدا أن نشكره الشكر اللازم والشكر الملائم له لأن نعمة التجنيد هي نعمة اليقظة، ونعمة اليقظة هي نعمة العمل، ﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمومنون﴾.

فلنرجع بعد هذه المقدمة إلى عشرين غشت 53 التي عاشها وهم رجال جيلان. جيل ازداد في ظل الحرية وعرف الحماية وختم الله أن يموت في الحرية وهو جيل أبي رحمة الله عليه ومن كان يواكبه من صغير وكبير من معروف وغير معروف مقاوم نعرفه ومقاوم نجهله رجلا وامرأة. وقد تمتع بل وتنعم بهذه الفترة أي فترة 54 جيلي. فأراد الله أن أزداد أنا وجيلي في عهد الحماية ثم أراد الله أن نكون مشاركين بقسط متواضع ولكن مشاركين أي جيلي في استرجاع الحرية والاستقلال والكرامة. فعشنا نحن جيلين : جيل الحماية وجيل الاستقلال.

وها هو الله سبحانه وتعالى لا يريد أن ننتظر لا نحن ولا الأجيال التي ستلتحقنا فأعطانا فرصا ومناسبات عشنا فيها ونحن مهيأون ونحن على حذر. ونحن منتظرون ككل من ينتظر الرسالة أو كل من ينتظر الواجب الذي يقوم به. لقد عشنا مؤهبين مجندين لمسيرتنا الخضراء تلك المسيرة التي سيعدها التاريخ بل لقد بدأ يعدها من جملة أعاجيب الزمان وكراماته. وأرادت قدرة الله سبحانه وتعالى أن يعيش هذه المسيرة الجيل الذي سيخلفنا. وذلك بأن وجدت وسائل الإعلام المرئية والمسموعة. فكل الأطفال من ست سنوات إلى فوق الذين سيخلفوننا عاشوا معنا مسيرتنا وتحمسوا لها وكأنني وأنا أراجع ذاكرتي أراهم مهيئين لها فكريا ووجدانيا وعقلانيا فعاشوها وهضموها وكأنها كانت مسيرتهم. وأراد الله سبحانه وتعالى بعد المسيرة أن يجندنا مرة أخرى ونحن مغاربة ومسلمون بأن يجعل ن عملنا عملا واسع النطاق بعيد الآفاق لبناء المغرب العربي الكبير.

وهذه خطوة نحمد الله سبحانه وتعالى أن جعلنا ننكب ونراقب ونعمل لأن يزداد ذلك المولود المبارك حتى يمكنه أن يكون في كفالة وفي رعاية لا تعرف السكون ولا السهو. وأراد الله سبحانه وتعالى أن يكون بجانبنا وأقصد جيلي الجيل الذي سيخلفنا الجيل الذي يمع عن 53 الجيل الذي عاش المسيرة. أن يكون معنا واعيا فاهما متفهما متجندا مستعدا لتقلي الرسالة هو بدوره، ومستعدا لأن يكون أحسن خلف في بناء المغرب العربي الكبير.

إن المغرب العربي الكبير لا يمكن أن يعرف حقه وقدره إلا من كان على بينة من تاريخ إفريقيا الشمالية. إفريقيا الشمالية التي نصبت نفسها كمشعل للإسلام والعروبة والحضارة. إفريقيا الشمالية التي نصبت نفسها كمجموعة بشرية دينها الإسلام ولغتها العربية ولكن شخصيتها ليست كشخصيات الدول العربية الأخرى. ولدينا مثل يقول أن «كل من يأكل الكسكس ويرتدي البرنس فهو من المغرب العربي الكبير».

وهذا المثل لسنا نحن الذين خلقناه بل خلقه التاريخ وخلقه وجود هذه الهوية هوية مواطن المغرب العربي الكبير.

وحينما نقرأ عن الكتاب والفلاسفة وعلى رأسهم ابن خلدون لا يمكن لأي أحد ولا أي بلد من ليبيا إلى موريتانيا أن يقول أن ابن خلدون ليبي أو تونسي أو جزائري أو مغربي أو موريتاني بل أن ابن خلدون هو ابن المغرب العربي الكبير والمغرب العربي الكبير هو حلم الغد وضرورة الغد.

لماذا أقول ضرورة الغد لأنه في الزمن الذي نعيشه وسنعيشه يمكننا أن نمتع أنفسنا بعدة أشياء. يمكننا أن نكون مترفين في حياتنا وأن نسمح لأنفسنا بالنعم التي من الله سبحانه وتعالى بها علينا. ويمكننا كذلك أن نتخيل أننا وقعنا في أغلاط كيفما كانت ولكن الوحيدة التي من شأنها أن تكون كارثة على الجميع هي أن نقع في خطر التفرقة وفي خطر مواجهة بعضنا بعض.

فإذا كان التاريخ القديم وغير البعيد يعطينا دائما دروسا ويعطي للعالم دروسا حتى يكون السلم هو مبدأ كل دولة دولة فما عايشناه في السنين الأخيرة من حروب حولنا في القارة الأسيوية وغيرها لقننا جميعا درسا هو أنه لا يمكن أبدا في المستقبل أن تلاعب بالسلم ولا يمكننا أبدا أن نعتبر الحرب المباشرة وغير المباشرة كلعبة يمكننا أن نتمتع أو أن يزهو برويتها.

إن المغرب العربي الكبير سيكون إن شاء الله هو الرادع لكل شيطان رجيم وسيكون هو الحصن الحصين في مواجهة لكل من سولت له نفسه أن يتلاعب بعهود الآباء والأجداد ويكون منطلقا مباركا فياضا تنطلق منه عبقرية المغرب العربي الكبير التي هي عبقرية في آن واحد موحدة ومتجددة ومختلفة، وسيكون على الذين لم يقضوا نحبهم ولكن يكونون من المنتظرين أن يبنوا ويشيدوا هذا المغرب العربي الكبير وسيكون من واجباتنا نحن أن نجنبهم مخاطر السير، وأن ندفعهم إلى الأمام بثقتنا في تجربتنا.

إن المغرب العربي الكبير لا يمكن أن يعرف التشكك وبناء المغرب العربي الكبير لا يمكن أن يعرف التخاذل وبناء المغرب العربي الكبير يجب أن يكون مبنيا على من تقوى الله ورضوان والمغرب العربي الكبير يجب أن يكون حلقة من حلقات تلك المواعظ التي كما قلت سابقا أراد الله سبحانه وتعالى أن يضربها للشعب المغربي على الخصوص مع التاريخ، حتى يبقى دائما المغربي وإخوانه في المغرب العربي الكبير دائما منتظرا ومؤهلا ومجندا لا يعرف التوقف ولا الكلل ولا الوهن ولا الملل.

إن ذكرى 20 غشت 53 هي ذكرى كما قلت لكم يمكن أن يكتب عنها الكاتب وأن يقول عنها القائل

ولكن المؤرخ لا يمكنه أن يقنع عنها ولو بآلاف الصفحات لأن 53 وما تبعها وما سيتبع ما تبعها هي منعطف لا لقارتنا فقط ولكنها أيضا منعطف للمستضعفين، الذي أراهم الله سبحانه وتعالى أن الضعيف هو العبد والقوي هو الله.

أما أن يكون هذا الشعب مستضعفا بالنسبة لشعب آخر فتلك الأيام نداولها بين الناس وتداول الأيام هنا فيه ما يعلو وفيه ما ينحدر.

لنتخذ إذن من عبرة 53 مفتاحا لحاضرنا ومستقبلنا، ولنتخذ من الآية الكريمة التي قرأتها في مستهل خطابي ﴿فمنكم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر﴾ الآية. فلنتخذ من معنى الانتظار هنا معنى التجنيد المستمر والتأهب الدائم، والاستعداد الفكري والوجداني لخوض جميع الملاحم وليس من اللازم أن تكون الملاحم دائما دامية فهناك ملاحم تكتب بماء الورد وما الزهور.

علينا أن نكون دائما مؤهلين ومجندين حتى نبقى على هامش التاريخ وحتى يبقى مغربنا هذا ومغربنا العربي الكبير كبصمة ناطقة متكلمة على ما كان عليه أجدادنا وأسلافنا الأكرمون.

رحم الله أبانا جميعا وسيدنا مولانا محمد الخامس وجعله في أعلى عليين هو من استشهد معه ومن لقي حتفه ليكون 53 منطلقا للعيش والعز لا منطلقا للذل والموت. فرحم الله شهداءنا الأبرار الذين هم كذلك وجدوا على أهبة. لأنه بكل صراحة منذ أن قيض الله لي أن آخذ الأمانة من أبي رضوان الله عليه لم يكن لا أبي ولا أنا نفكر أننا سنخوض يوما ما حربا ضروسا وقد خضناها وعرفنا خلالها ما يعرفه كل مقاتل ومحارب من كر وفر وإقدام وتراجع. ولكن الشيء الغريب أنه حينما أرادت الأقدار أن نخوضها وجدنا أن نعمة الله سبحانه وتعالى كانت علينا وحولنا ووجدنا أنفسنا منتظرين. وجدنا أنفسنا متأهبين. وجدنا أنفسنا متمرنين حتى على أحدث الأسلحة وأخطرها. لذلك ﴿فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر﴾ الآية. لا الانتظار تحت الشمس حتى يقبض الله روحه كلا ولكن انتظار الضوء الأخضر لينطلق لعمل ما في ميدان ما. وحتى عندما أراد الله لنا هذا الامتحان الصعب وجدنا ولله الحمد متأهبين ومؤهلين له.

ولكن كيفما كانت أهبتنا ـ كما قلت آنفا ـ وكيفما كان تجنيدنا لا يمكن أن يكون في مستوى تجنيدنا وأهبتنا للبناء وللأخاء ولمحو الماضي لطي الماضي على ما فيه من مرارة ولفتح صفحة في مستوى عبقرية شعوبنا.

علينا أن ننسى أن الإسلام معنى كلمة الله سبحانه وتعالى وسنة رسوله ﷺ اخترق أراضي إفريقيا الشمالية لم يكن يعلم أن هناء من وراء البحر عالما ولكن في آن واحد رأى أن شاطئ الأطلسي بعيد جدت عن الخليج. ومع ذلك فآباؤنا وأجدادنا وأسلافنا سواء الذين أتوا من الشرق أو الذين كانوا قاطنين بالمغرب تقبلو وقابلوا وقبلو الرسالة.. رسالة الله سبحانه وتعالى.. رسالة العمران والسلام والتآخي والعمل لما فيه خير العباد والبلاد.

ألهمنا الله جميعا لنبقى دائما مؤهلين ومجندين وألهمنا سبحانه وتعالى ما به يقوي عزيمتنا وما به نوطد عزمنا لبناء هذا المغرب العربي الكبير متناسين ما مضى معانقين ما سيأتي. إنه سبحانه وتعالى لا يخيب الغالب ولا يرد الداعي إنه سبحانه وتعالى هو الكريم المعطاء هو الرحمن الرحيم.

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

أمير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني يفتتح عملية الاكتتاب الوطني لبناء

مسجد الحسن الثاني

بتقديم هبة ملكية كريمة بمبلغ أربعة ملايين درهم.

افتتح صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني بعد ظهر يوم الأربعاء 5 ذي الحجة عام 1405 الموافق 21 يوليوز 1988 بالقصر الملكي بالصخيرات عملية الاكتتاب الوطني لبناء مسجد الحسن الثاني بالدار البيضاء.

وقد استقبل جلالة الملك وفدا عن عمالة الصخيرات تمارة ضم السادة محمد الأسعد عامل صاحب الجلالة على عمالة الصخيرات تمارة ومحمد بنعمر رئيس بلدية تمارة وفريد شبيشب نائب برلماني والحاج عبد السلام بركاوي رئيس الجماعة القروية للصخيرات ومحمد بنديرة قابض مالي بالعمالة والحاج عبد العزيز السليماني محتسب ومحمد العربي ايكدر عضو المجلس العلمي للعدوتين.

وقد قدم جلالة الملك هبة مالية كريمة لبناء مسجد الحسن الثاني بالدار البيضاء بلغت أربعة ملايين درهم.

كما وقع جلالة الملك شيكات أخرى باسم صاحب السمو الملكي ولي العهد الأمير سيدي محمد بمبلغ مليون درهم وصاحب السمو الملكي الأمير مولاي رشيد بمبلغ 800 ألف درهم وصاحبات السمو الملكي الأميرات الجليلات للا مريم وللا أسماء وللا حسناء بمبلغ 300 ألف درهم لكل واحدة منهن وللا سكينة 200 ألف درهم.

وقد وقع جلالة الملك شهادات الاكتتاب المباركة لبناء مسجد الحسن الثاني كما وقع عليها السادة محمد بنعمر رئيس المجلس البلدي لتمارة وعبد العزيز السليماني محتسب بعمالة الصخيرات تمارة والحاج محمد بنديرة القابض المالي بالعمالة.

إثر ذلك ألقى السيد محمد العربي ايكدر عضو المجلس العلمي للعدوتين دعاء بين يدي أمير المؤمنين ورد جلالة الملك قائلا :

نص الكلمة الملكية السامية :

يقول النبي ﷺ «من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة».

أرجو من الله سبحانه وتعالى أن يثيبنا جميعا سواء من سن السنة أو من اتبعها. ولي اليقين أن أعمالا مثل هذه سوف تنال الرضا والرضوان من الباري عز وجل كما أنها ستنال الرضا والفرح والسرور من النبي ﷺ ومن روحه الطاهرة.

وعلينا أن نعلم دائما أنه حينما تشتد الأزمات وتظلم جميع النواحي والجهات لا نجد عونا ولا نجد راحة واطمئنانا إلا في الرجوع إلى الله سبحانه وتعالى والتوسل إليه.

فمن واجبنا إذن أن نحمد الله سبحانه وتعالى ونشكره حتى نجده دائما بجانبنا ولما أقول بجانبنا أقصد نحن المغاربة كلنا لأنه أقسم على نفسه سبحانه وتعالى قائلا :

﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾ والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

حضر حفل الاكتتاب وزير الداخلية والإعلام السيد إدريس البصري والسيد عبد الفتاح فرج مدير الكتابة الخاصة لصاحب الجلالة والسيد إبراهيم فرج الحاجب الملكي.

دلائل الخيرات

رُب خودٍ عاينتها، وهي تقرا	بعد عصر دلائل الخيرات
وعلى ثغرها، وعلى النحر منها	والحيا، دلائل الخيرات
والتجافي عن وصلها لسواها	لم يكن من دلائل الخيرات



الإسلام وحقوق الإنسان

للأستاذ أحمد مجيد بن جلون
مستشار قانوني بالديوان الملكي

لقد عرفت فكرة حقوق الإنسان مدلولا اختلف باختلاف المبادئ التي فرضتها أو الغايات المتوخاة منها أو الحاجات الملحة التي أوجبتها.

وبعبارة أخرى فإن عالمنا اليوم أصبح يتكلم عن حقوق الإنسان أو التصريح بحقوق الإنسان وكأنه يشير إلى نفس الأمر، في حين أن معنى هذه العبارة عرف مدلولات مختلفة عبر القرون والأحقاب، قبل أن تصادق الجمعية العامة للأمم المتحدة على ما سمته بالتصريح العالمي لحقوق الإنسان. في توصيتها رقم : 217 ـ 1 ـ (3)، بتاريخ 10 دجنبر 1948.

وإذا كان العالم الإسلامي لم يعر فكرة حقوق الإنسان أهمية خاصة لكونها من صميم مبادئ الإسلام الحنيف، كما سنرى ذلك فيما بعد، فإن العالم الغربي، وخصوصا فرنسا، اكتشفتها لا كمجموعة من المبادئ، ولكن كوسيلة للتعريف بالحد الفاصل بين ما يجب أن يتمتع به المرء من حقوق وبين ما يمكن للدولة أن تمارسه من إمكانات قصد قيامها بمهامها. ومن هنا جاءت الأهمية الخاصة التي أولتها الدول الأوربية والأمريكية لحقوق الإنسان.

فمن الملاحظ أن أوربا لم تثر فكرة حقوق الإنسان إلا عندما أثيرت فكرة الدستور، أي الميثاق الذي يحدد كيفية ممارسة السلطة، والتعريف بها، وتنسيق إمكاناتها وحدود هذه الإمكانات. وبمجرد ما برز للوجود أول دستور مكتوب عرفه التاريخ، وهو دستور ولاية متشوسط بأمريكا الذي صدر بتاريخ 15 يونيه 1780، جاء في مقدمته بما سماه «بالتصريح بحقوق الإنسان». إلا أن أول دستور أعطى لهذه الحقوق طابعا خاصا وخصها بنوع من القداسة هو الدستور الفرنسي المصادق عليه بتاريخ 3 شتنبر 1791، في الوقت الذي كانت فرنسا تومن فيه بما تفرضه الفلسفة الديمقراطية الفردانية التي تعتمد على المساواة والتحررية.

ومنذ ذلك الحين، ما فتئت فرنسا تجنح إلى نفس الأسلوب، في جميع الدساتير التي عرفتها.

ويظهر أن السبب في هذا يرجع إلى إرادة محرري الدساتير في وضع الحاكمين والمحكومين أمام مسؤولياتهم، وذلك بتلقينهم بصفة رسمية المذهب السياسي والاجتماعي الذي يجب احترامه عند ممارسة الدولة لنشاطاتها. وهذا ما يؤدي إلى الاعتقاد بأن الغاية من هذه المبادئ هي تأكيد مبدأ فلسفي قبل أن تكون فرض قواعد قانونية حقيقية.

إلا أن تناول حقوق الإنسان بمثل هذا الأسلوب أدى إلى نتائج مخالفة ومعاكسة لقصد من أقدموا على هذه المبادرة.

فلحد الساعة، لم يوجد أي دستور يشير إلى جميع المبادئ التي تحفظ حقوق الإنسان، كما سنها الدين الإسلامي الحنيف والتي يحتويها القرآن الكريم أو تهدي إليها السنة النبوية الشريفة.

ومن جهة أخرى فإن فكرة تسجيل المبادئ التي تفرض نفسها عند تسيير نشاطات الدولة في تصريح محدود تجهل أو تتجاهل الطبيعة الحقيقية للسلطة السياسية. ذلك أن فكرة السلطة تحمل في طياتها فكرة المشروعية. وإذا كان من المقبول منطقيا تحديد المبدإ من جهة، والتعريف من جهة أخرى بالسلطة المكلفة بتطبيقه، فإن هذا الأسلوب لا يأخذ بعين الاعتبار الحاجيات السياسية، خصوصا إذا كان تحديد المبدإ ناقصا غير كامل.

فالسلطة ليست مجرد آلة عمياء، لا ضير لها، مكلفة بتوزيع المادة الخام التي تمنحها إياها فكرة المشروعية، توزيعا يرمي لمجرد احترام القانون. وفكرة المشروعية ليست مجرد مبدإ سابق لمبدإ حق المبادرة الذي تتوفر عليه الدولة. وإذا ما نحن رفضنا كل تأثير متبادل بين هذا وذاك، بين السلطة وبين فكرة المشروعية، أصبحت المشروعية مجرد صورة بدون مفعول والسلطة مجرد قوة بدون ضير.

ومن جهة ثالثة، يؤدي اللجوء إلى التصريحات بحقوق الإنسان إلى عاقبة وخيمة، وهي أنه يدفع بالشعوب إلى الثورة ضد الحاكمين باسم المبادئ، وبالحاكمين إلى عدم احترام المبادئ، في كثير من الحالات، باسم الحرية التي هم في حاجة إليها لممارسة الحكم. وهذا بالضبط هو سبب التخوفات التي أبداها أحد رجال الثورة الفرنسية «ريفارول» Rivarol المشهور، عندما صرح أمام المجلس الدستوري الفرنسي، وهو يقاوم فكرة التصريح بحقوق الإنسان، «إذا أردتم أن يتمتع شعب عظيم بظلال الشجرة التي أنتم بصدد غرسها، وأن يستفيد من فاكهتها، فلا تتركوا جذورها عارية. لماذا تريدون أن تعلنوا للعالم مجرد حقائق نظرية ؟ إن الذين سيحترمونها هم بالضبط أولئك الذين يعرفونها مثلكم، وإن الذين لم يعرفوا كيف يستمدونها من معطيات ضمائرهم لن يفهموها، وسيحرفونها دائما».

وإنه لنقاش حاد، وحوار متواصل، لم يعرف انقطاعا منذ أواخر القرن الثامن عشر، لأنه وضع في إطار سلبي، ما دام لم يرم إلا لغاية واحدة، وهي جعل حد لسلطة الحاكمين بمحاولة تحديد حقوق المحكومين، وهي نظرية غريبة عن المفهوم الإسلامي لحقوق الإنسان.

وبمجرد انتهاء الحرب العالمية الثانية وإنشاء منظمة الأمم المتحدة، سارعت هذه الأخيرة إلى الموافقة على ما سمته بالتصريح العالمي لحقوق الإنسان.

وإذا كان هذا التصريح لا يستحق الانتقادات الموجهة لغيره من النصوص المتخذة في إطار القوانين الدستورية الداخلية للدول، فإنه يظهر وكأنه مجرد وسيلة لحماية الفرد من المسؤولين : ذلك أن تصديره يؤكد أنه اتخذ اعتبارا بكون المنتظم الدولي يجعل كرامة الفرد فوق كل اعتبار، وبكونه لاحظ أن عدم احترام حقوق الفرد أدت إلى ارتكاب أعمال وحشية، وبكون جميع الدول الأعضاء التزمت باحترام حقوق الإنسان.

ومن هنا يتجلى أن الغاية دفاعية فقط.

أما الدستور المغربي، فقد كان منطقيا لأنه لم يشر بتاتا إلى حقوق الإنسان، ولم يحتو على أي تصريح بهذه الحقوق، وإنما اكتفى بما سماه بالمبادئ الأساسية، وهي المبادئ الإسلامية العليا التي يجب احترامها في إطار القانون الدستوري.

وإذا لجأ الدستور المغربي إلى هذا الحل، فلأنه لم يكن بإمكانه أن يقلد باقي الدساتير التي سبقته، لأن حقوق الفرد في الإسلام أغنى من أن تحصر في تصريح، مهما تعددت مواده، ولأنها ترمي إلى تنظيم المجتمع الإسلامي أو الأمة الإسلامية، بدلا من أن تكتفي بتمتيع الفرد بما يحمي حريته وحقوقه.

غير أن هذا لا يعني ولا يمكنه أن يعني أن الالتجاء إلى التصريحات بحقوق الإنسان، لم يكن ذا فائدة، وفائدة عظمى، بل إن أول تصريح كان صيحة مدوية أحقت الحق وأزهقت الباطل، وجعلت حدا للطغيان، وأعطت للفرد الوسيلة القمينة بمساعدته على الدفاع عن كرامته وعرضه، وأثارت الانتباه حول ما يجب أن يتمتع به الإنسان ليحقق طمأنينته الفكرية، وحريته المادية والمعنوية، وفصلت بين ما لقيصر وبين ما لأفراد شعب قيصر، وكانت بداية الانطلاقة المباركة التي قادت جل أقطار العالم إلى النظام الاجتماعي الذي أصبح قبلة الشعوب وغاية أغلبية أعضاء المنتظم الدولي، وإنه ليس من الصدفة في شيء أن يسارع هذا المنتظم، بمجرد إنشائه إلى بلورة حقوق الإنسان في ذلك التصريح العالمي الذي يضمن للمرء كل الحريات ويعطيه جميع الوسائل لممارستها وصيانتها.

إن اكتشاف حقوق الإنسان، على المستوى العالمي، كان من بين أهم الاكتشافات التي اهتدى إليها الإنسان والتي أعانته على قطع المراحل والأشواط في طريق التحرر التام والتقدم الاجتماعي والازدهار الخلقي. إلا أن ما حققته البشرية في هذا المضمار لازال لم يستكمل عناصره ولم يبلغ غايته وقصده ولولا لشيء، إلا لسببين اثنين :

أولهما : أن المبادئ المعلن عنها ليست تامة.

وثانيهما : النقص الحاصل في وسائل التنفيذ، وهذا بالضبط هو ما عالجه المدلول الإسلامي لما يعرف بحقوق الإنسان.

وإننا لنجد في كتاب الله عز وجل وفي أحاديث وسيرة رسوله الأعظم أقوى دليل على ذلك.

إن الدساتير التي عرفها التاريخ والتصريح الأممي تتكلم كلها على حقوق الإنسان، أي على ما يمكن للمرء أن يتمتع به من مبادرات وتصرفات داخل المجتمع، دون أن يكون عرضة لمضايقات اجتماعية أو قيود إدارية، إلا أن الحالات والحقوق المضمونة تكون مجموعة من الإمكانات المخولة للمرء ولا تندرج كلها تحت قاعدة عامة تشملها، وبعبارة أخرى، فإنه لا توجد مبادئ شاملة يستخلص منها وجوب احترام مجموعة من الحقوق. ولم يكن هذا طبعا من الممكن، لأن ما يسمى بحقوق الإنسان هو نتيجة صراع دام قرونا بين الحاكمين والمحكومين، كما أنه كان في نفس الوقت نتيجة للتقييم المستمر للأوضاع ولتطور المفاهيم ولتأثير الحقائق المادية والمعطيات الاقتصادية على العلاقات البشرية.

وإذا ما نحن تصفحنا الميثاق العالمي لحقوق الإنسان فإننا نلاحظ أنه يدعو إلى احترام الحقوق الفردية الآتية :

- الحق في الحياة وفي الحرية وفي السلامة البدنية.
- تحريم الرق والتعذيب والمعاملة القاسية أو الماسة بالكرامة.
- المساواة بجميع أصنافها، ومنها حق اللجوء إلى القضاء، والمبدإالقائل بأن البراءة هي الأصل، وعدم رجعية القوانين.
- المساواة في الشغل وفي الأجرة وفي التربية.
- حرمة المنزل وسرية المراسلات.
- حرية التجول داخل الوطن وخارجه، وحق اللجوء السياسي.
- الحق في الجنسية وفي الزواج وفي الملكية.
- حرية التفكير والتعبير والتدين والتجمع.
- حق المشاركة في تسيير شؤون الدولة، وحق التوظيف، وحق المشاركة في الانتخابات.
- الحق في الانخراط في النقابات وفي الحياة الثقافية للدولة.

هذا ملخص وجيز لما جاء في التصريح العالمي لحقوق الإنسان. وهي مجموعة من التوصيات الموجهة إلى جميع الدول الأعضاء لتعمل على تطبيقها لفائدة مواطنيها، وهي تتجلى حصيلة مهمة تدافع على الفرد وعلى حريته وكرامته وماله وعرضه داخل المجتمع الذي يعيش فيه، وفي إطار المظهر الحديث والبيئة التي يتوخى المنتظم الدولي تحقيقها في جميع الأقطار والأقاليم، وهي مما لاشك فيه نابعة من إرادات حسنة وطموح خلقي، إلا أنها لاتستمد

قوتها من إيمان ديني يفرضها على الضمائر ويجعل احترامها فرضا على كل مخلوق، وواجبا يعاقب من خالفه بما تقره الديانات.

أما إذا ما نحن رجعنا إلى الدين الإسلامي، فإننا نجد نفس المبادئ، وهي تدخل في إطار الفرائض كما نجد غيرها، وهي أكثرها غنى، وأجداها فائدة، وأعمها مصلحة، وأبعدها غاية.

ودون أن نكون في حاجة إلى التذكير بجميع ما جاء به الإسلام بالنسبة للمبادئ التي تضمنها التصريح بحقوق الإنسان، لأن ذلك يتعدى الغاية من هذه العجالة، يمكن سرد بعض الحقائق التي أكدها نبينا صلوات الله عليه.

ففيما يتعلق بتحريم الرق، الكل يعلم أن نبينا ﷺ تبنى زيد بن حارثة وأعطى لسيدنا بلال ذلك المقام الرفيع الذي جعله من أقرب صحابته، والكل يتذكر الحديث الشريف القائل : «سلمان منا أهل البيت» وكذلك الحديث الشريف : «لا فضل لعربي على عجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى».

وفيما يهم المساواة، أكد ﷺ : «المؤمنون سواسية كأسنان المشط» وطبعا، فإن المساواة التي يشير إليها الحديث هي المساواة المطلقة التي تنبعث من الإيمان، وتستند إلى الضمير، وترتكز على مبدإ الإخاء الذي يدعو إليه قوله ﷺ : «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا»، إنها تلك الخصلة التي تدفع بأفراد الأمة الإسلامية إلى التضامن عملا بقوله ﷺ : «لا يكون المؤمن مومنا حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه»...

وفيما يخص التربية، فإن المسلم يتلقاها من المهد إلى اللحد، حيث أنه يبتدئ بحفظ القرآن، ويلي ذلك أو يواكبه الحفاظ على أوقات الصلاة، وطاعة الوالدين، والامتثال للأوامر الإلهية كما يلقنها إياه المجتمع الذي يعيش فيه، والبيئة التي ينتمي إليها. وفي قولة سيدنا عمر رضي الله عنه ما يغني عن كل تحليل وينطوي على أبعاد شاسعة، حينما قال : «ربوا أبناءكم لأنهم خلقوا لزمن غير زمانكم» وقال ﷺ : «من حق الولد على الوالد أن يحسن أدبه ويحسن اسمه». كما قال : «اكرموا أولادكم وأحسنوا أدبهم». وكما قال : اعدلوا بين أبنائكم في النحل كما تحبون أن يعدلوا بينكم في البر واللطف»...

أما التعليم فهو أساس المجتمع الإسلامي وركيزة المومن الطموح، وقبلة الشاب والكهل، وفي إطاره يكتسب المسلم تلك القوة التي دعا إلى التسلح بها سيدنا محمد ﷺ بقوله : «المؤمن القوي خير من المومن الضعيف» وقد جاء في الأثر : «اطلبوا العلم ولو في الصين».

ولا يخفى على أحد الأهمية القصوى التي يعطيها الإسلام للعلماء والجاه الذي يتمتعون به والمكانة المرموقة التي يحظون بها، سواء تعلق الأمر بالميدان الاجتماعي أو الديني أو السياسي.

وفي ميدان ما يسمى بالديمقراطية، من نظرية ووسائل وتنسيق، جاء القرآن بآيتين كريمتين أعطتا الحل الناجع والتوجيه الإيجابي السليم، حيث قال جل من قائل : ﴿**وأمرهم شورى بينهم**﴾ كما قال سبحانه وتعالى : ﴿**وشاورهم في الأمر**﴾. وإذا ما نحن وضعنا هاتين الآيتين في إطار باقي المبادئ الإسلامية، ظهر جليا معناهما وبرز المحتوى الحقيقي للديمقراطية الإسلامية.

وقد دافع الإسلام عن الإنسان، بصفة عامة بكيفية لا تترك مجالا للحيف أو الظلم أو التعذيب أو التنكيل، أو المساس بحريته أو حقوقه أو جسده أو كرامته، حيث قال سبحانه وتعالى : ﴿**ولقد كرمنا بني آدم**﴾، كما جاء في الحديث القدسي : «إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته محرما بينكم فلا تظالموا... وعزتي وجلالي لا نتقمن من الظالم في عاجله وآجله، ولأنتقمن ممن رأى مظلوما فقدر أن ينصره فلم يفعل... قل للظلمة لا تذكروني فإني أذكر من يذكرني وإن ذكرى إياهم أن ألعنهم».

هذا قليل من كثير وافر، مما جاء به الإسلام في ميدان ما يسمى بحقوق الإنسان، ولو أردنا تتبع كل ما جاء به ديننا الحنيف في هذا المضمار لاحتجنا إلى مجلدات. وهي نواهي وتوصيات. إلا أنها تتوفر، خلافا لتصريح الأمم

المتحدة على قوة تنفيذية تستمدها من روح العقيدة التي هي أقوى من كل وسيلة زجرية.

غير أن الإسلام لا يكتفي بالنواهي، بل إنه نظم الأمة الإسلامية على أسس إيجابية لم يصل إلى فرضها أي نظام بشري أو تشريع إنساني.

فالإسلام اختار أن يكون دين الوسط، حيث قال سبحانه وتعالى : ﴿**وجعلناكم أمة وسطا**﴾. وقال رسول الله ﷺ : «أحب الدين إلى الله السمحة الوسطية». وقديما قال أفلاطون : الفضيلة وسط بين رذيلتين.

والإسلام حث على التقوى، مصداقا لقوله تعالى : ﴿**إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾.

والإسلام دعا إلى مخافة الله، حيث قال النبي ﷺ : «رأس الحكمة مخافة الله».

كما دعا الإسلام كذلك إلى التضامن، والرفق والحياء والصدق، والعفو والأخوة، والأخذ بيد الضعيف، والفضل، وحسن الجوار الخ... وكل هذا يرجع في رأينا إلى مكارم الأخلاق التي حلى بها جلت قدرته نبيه الأكرم. وقد أكد ذلك سبحانه وتعالى حيث قال : ﴿**وإنك لعلى خلق عظيم**﴾ كما شهد بذلك سيد الأكرمين، حيث أكد : «أدبني ربي فأحسن تأديبي».

فأين نحن من تلك المبادئ المتواضعة التي جاءت بها كل التصريحات بحقوق الإنسان ؟

إن أخلاق القرآن أسمى من أن تقارن بغيرها، وهي منطلق حياة المسلم. ولن يناله أي مكروه ما دام متشبثا بها.

الرباط : أحمد مجيد بن جلون

بشق تمرة، أو بكلمة طيبة

قال ابن إسحاق :

وكانت أول خطبة خطبها رسول الله ﷺ فيما بلغني عن أبي سلمة بن عبد الرحمن أنه قام فيهم خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

«أما بعد أيها الناس فقدموا لأنفسكم ـ تعلمن والله ليصعقن أحدكم ثم ليدعن غنمه ليس لها راع ثم ليقولن له ربه ليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه : ألم ياتك رسولي فبلغك وأتيتك مالاً وأفضلت عليك فما قدمت لنفسك ؟ فلينظرن يميناً وشمالاً فلا يرى شيئاً ثم لينظرن قدامه فلا يرى غير جهنم فمن استطاع أن يتقي بوجهه من النار ولو بشق من تمرة فليفعل ومن لم يجد فبكلمة طيبة فإنها تجزي الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف».

مُعجزة الشريعة الإسلاميّة وتحدّي العصر المعاصر

تطبيق الشريعة الإسلامية لابدّ لكل عصر ومصر

للأستاذ محمد شهاب الندوي

إن الدراسة الشاملة لديانات العالم المختلفة وقوانينها لتدل على أنه لايوجد قانون من القوانين الموجودة دون الشريعة الإسلامية يستطيع أن يدعي هداية جميع البشر وتوجيهه، ويضمن فلاحه وسعادته. فإن هذه الشريعة السمحة التي تحيط بكل جانب من جوانب الحياة الإنسانية ليست متزنة مقتصدة فحسب بل وتتمكن من الدرجة العليا من المعقولية ومليئة بالحكم والمصالح، وبذلك هي مظهر من مظاهر رحمانية الله وعدله وشفقته على النوع البشري، فأحكام الشريعة الإسلامية كلها ليست معقولة ومتسايرة مع العقل وحدها بل وإنما هي قائمة على أسس علمية محكمة وعلى المكانة العالية وقانوناً سرمدياً خالداً، ومن هناك كان التبديل والتعديل في شريعة الله مستحيلاً. ولكن التبجّح بهذه الكلمات ومجرد دعوى بلا دليل لا يغني شيئاً، بالنسبة للعصر الحاضر. ومتطلّباته. بل ويتحتم لإثبات عظمة الشريعة وتفوقها على غيرها بيان مصالحها وحكمها وأهميتها وحاجة الناس إليها في ضوء الأدلة العلمية والعقلية أمام العالم الإنساني، كما يتوجب تعريف القيم والأقدار الإسلامية الصحيحة التي عادت ملقاة وراء ظهورنا لتفريطنا عملياً.

ومما لا مراء في أن القرآن الكريم هو وحده صحيفة من الصحائف الربانية أكدت كثيراً على النظر والتأمل في المعاملات الدينية والأحكام الشرعية، واستخراج الحكم والمصالح العقلية من غضونها، حتى تثبت معقولية الشريعة الإسلامية من جهة، وتستبين عظمتها ومعالم تفوّقها من جهة أخرى. ففي الدين الإسلامي من هذا الاعتبار أهمية قصوى للعقل والنظر. ويكفي لتقدير أهميتها أن القرآن الكريم استعمل كلمة العلم ومشتقاته 788 مرة، والعقل 50 مرة، والتفكير 21 مرة، والفقه كذلك 21 مرة، وكما أنه يدعو الإنسان في هذه المواضع إلى معرفة حكمة الخلق أو وجود الخالق وكيفية ربوبيته تعالى بعد التفكير والنظر في الأشياء المختلفة في الكون. كذلك تماماً يحثهم على إيضاح حكم الشريعة ومصالحها العقلية والعلمية عن طريق التأمل والتروّي في أحكام الشريعة وأوامر الله تعالى، فيقول في غير واحد من الأمكنة عقب بيان أمور الشريعة : **﴿كذلك يبيّن الله لكم آياته لعلّكم تعقلون﴾**. ويقول في موضع آخر : **﴿كذلك يبيّن الله لكم الآيات لعلّكم تتفكرون﴾**. ويتّضح من ذلك جلياً أن الشريعة الإسلامية قانون مؤيد بالدلائل والشواهد العقلية، ولو يكن ذلك لـ

يسمح الإسلام بالنظر في أحكامه، كما هو طبيعة الأديان الأخرى التي لا تسمح مطلقاً بأعمال العقل والنظر. وهناك ميّزات أخرى تنفرد بها القوانين الإسلامية فيما سواه، نورد بعضها فيما يلي :

1 - الإسلام دستور متكامل ضابط للحياة. (المائدة : 3).

2 - كله هدى ورحمة للناس. (الأعراف : 52).

3 - هو قانون يمتليئ بالحيوية ويبعث على الحياة. (الأنفال : 24).

4 - يشتمل على المعروف والأمور المتحسنة والمعقولة. (الأعراف : 157).

5 - بعيد عن المنكر والأمور القبيحة غير المعقولة (الأعراف : 157).

6 - هو مجموعة من الطيبات. (الأعراف : 157).

7 - خال كلياً من الخبائث. (الأعراف : 157).

8 - يتضمّن القوانين العادلة المتزنة. (النحل : 90).

9 - جميع قوانينه سهلة ميسرة. (البقرة : 185).

10 - ليس في القوانين الإسلامية أي حرج ولا ضيق. (المائدة : 6 والحج : 78).

11 - مليء بالحكم والمصالح. (الإسراء : 39).

وبذلك تبدو الشريعة الإسلامية لما يجمع بين المحاسن والحكم العقلية من المعجزة الإلهيّة. ولكن الواقع أن المسلمين أنفسهم فضلاً عن غيرهم يجهلون اليوم عن الإسلام ومحاسن القانون الإسلامي حتى إنهم يجهلون إمكان وجودها فيه. فإذا كان الأمر ذلك فكيف يمكنهم تفهيمها لمن دونهم. وهذا هو سبب مذلة المسلمين اليوم في الهند وإرغامهم على تعديل القوانين الإسلامية باعتبارها جائرة غاشمة، وما قضية «شاه بانو» وحركات القانون المدنى الموحّد (Uniform ivil Code) إلا مظهر من مظاهر تلك الغفلة والجهل. ونتيجة هذه الحركات الاعتدائية بلغ المسلمون الهنود من الذهول والدهشة حداً أوقفهم في الأخير موقف المدافع، ولا يجدون لبقائهم سبيلاً إلا المطالبة ببعض الاحتفاظات القانونية، بل أظلمت عليهم الدنيا وضلت السبيل أمامهم..

لو كان المسلمون عرّفوا إخوانهم المتوطّنين بالشريعة والقوانين الإسلامية على حجمها وأوضحوا دورها ومحاسنها في ضوء الأدلّة العلمية والعقلية كما أرادها الله منهم، ما وقعوا في هذه الورطة وما دهمهم هذا الأمر. فهذه الحركات المعادية للشريعة وقوانينها جلّها ناتجة عن جهلها عن التعاليم الإسلامية السامية أو وليدة للمنافسة السياسية والدبلوماسية. ولقلب اتجاه هذا التيار المعادي لابد لنا من العمل على جهة صحيحة متمسّكين بالتوجيهات الربانية.

وقد تهيأ لنا الجوّ إلى حد كبير بعد قضيّة «شاه بانو» لطرق هذا الباب المنغلق. فنرى كثيراً من الهنادك المثقّفين مستعدّين لدراسة القانون الإسلامي والبحث عن حقيقته بقلوب مفتوحة في هذه الأيام. فعلى المسلمين أن يستأنفوا أعمالهم بعزم جديد في هذا المجال، انتهازاً لهذه الفرصة الثمينة، وباعتبارها مدداً غيبيّاً من الله تعالى، حتى نتمكن من إقامة الحجّة على سيادة القانون الإسلامي وتفوّقه على جميع الديانات. وأكبر حاجة العصر إعداد المؤلفات في شتى لغات الهند وخاصة في اللغة الإنجليزية، تتحلى بالأدلّة العقلية والعلمية. ولكن أكبر مشكلاتنا في هذه الأيام أن زاوية تفكير المسلمين قد ضاقت إلى حد بعيد حتى إنهم لايعطون أي أهمية وقيمة لحل قضاياهم بشكل إيجابي وأسلوب بنّاء، بعد أن تم قضية شاه بانو، ولا يوقظهم من غفوتهم السيف المعلّق على رؤوسهم، سيف القانون المدنى الموحّد. فكأن مسؤوليتهم لاتتجاوز سوى بعض المظاهرات السياسية، والآن حيث تم تقنين عدم التدخل في الأحوال الشخصية للمسلمين (قانون ضمان حقوق النساء المسلمات فيما بعد الطلاق) عام 1986م. فالخدمات العلمية من هذا النوع إن هي إلا إضاعة للوقت. ولا ينكر منصف أن هذه النظرية السخيفة وأسلوب التفكير الخاطيء لابد من تغييرهما واختيار مسلك الحقانية المعقولة، وإلا فلا يسامحنا الزمان المقبل أبداً. فعلينا أن نكون منتبهين متيقّظين دائماً بتقدير الأوضاع وتفرس التيارات الفكرية الجارفة المستجدّة لكل يوم، مخافة أن يبيت علينا العدو ونؤخذ على غرة، وكما يدل الحديث النبوي - على صاحبه

الصلاة والتسليم - «لا يلـــدغ المؤمن من جُحْرٍ مرَّتين». فـالغلطـة الأولى يمكن أن يصفح عنهـا، ولكن الغفلـة لمرة ثانية لا تستحق الصفح والغفران. فالحاجة أكيدة أن نغيِّر مـا بأنفسنا قبل كل شيء، ونحاول فهم القانون الإلهي والقـانون الطبيعي الذي يدور حولنا فهماً صحيحاً. فلا تستطيع أمة أن تعيش علي الضانات الواهية، ومن دولة كافرة معارضة لديننا الحنيف لاعهد لها ولا ميثاق، والمسلمون في الهند قد بلغ عددهم إلى مائة وخمسين مليون نسمة.

فإن عزمنا نعيش في الهند كأمة حية يفترض علينا أن لا نألوا جهدا في التدبير للحصول على ضمان حياتنـا الاجتماعية. وأول الواجبات التي نؤديها في هذا الصدد أن نجعل الكافرين يعترفون بمعقولية الـدين والشريعة الإسلامية ونقدّم أمامهم مميّزات القانون الإسلامي والحضارة الإسلامية التي تنفرد بها الحضارة الإسلامية عن الحضارات والديانات والقوانين الأخرى غير الإسلامية. وما دام هذا العمل لا يكتمل على أسس علمية وعقلية لا تتمّ الحجة على النوع البشري من جهة العقل. وقد قال عز من قائل : ﴿**قل فلله الحجة البالغة**﴾. وبديهي أن مسؤولية تغليب حجة اللـه تعود على المسلمين الممتثلين لأوامره. فإذا فشلنـا في تأدية هذا الواجب نعد من المجرمين عنده والمقصّرين في طاعته، لأنه لا يأتي نبي جديد بعد سيدنا محمد ﷺ، فقد ختم به النبيون إلى يوم القيامة. فالعلماء هم ورثة الأنبياء وعليهم مسؤولية أداء هذا الواجب. ولكن الصفقة لاتتم إلا من جانبين، والتصفيق لا يحصل إلا بمتابعة الكفين. فكان من الضروري مؤازرة الموسرين الأسخياء للعلماء والكتّاب حتى يتمكنوا من بـذل المجهود نحو أداء مسؤولياتهم الجسيمة.

والحق الذي لا يدع للشك مجالاً أن مسؤوليات العلماء وأصحاب القلم قد تضاعفت، فعليهم أن ينزلوا في ميدان العمل والجد بكل عدّة وعتاد، ليرسخوا في أذهان الناس عظمة الشريعة وتفوّقها، بالأدلة العقلية حتى لا يتجاسر أحد على القول بأن القوانين الإسلامية لا علاقة لها بالمعقولية والاعتدال، كما قال الله عز وجل : ﴿**ليهلك من هلك عن بيّنة ويحيي من حييَ عن بيّنة**﴾.

وهذه حاجة العصر الحديث الملحة، بل هي نوع من أعمال التجديد الذي يتطلّب التحقيق والبحث والتفاني والاستماتة، لأنه يحتاج إلى دراسة قوانين العالم وثقافته وحضاراته المختلفة، إضافة إلى الاستعانة بالعلوم والفنون والحقائق الجديدة. وذلك لأن محاسن الشريعة الإسلامية لا تظهر للعيان إلا بدراسة مقارنة للقوانين الإسلامية مع القوانين الأخرى ولا شك أن الشريعة الإسلامية لما تتّصف بالمعقولية والاتّزان والقسط قانون خالد لايقبل أي تغيير في كل عصر ومصر، ويبدو بذلك معجزة إلهيّة. ولكن الناس في عصر يوزن فيه كل شيء بميزان العقل لن يعترفوا بها كقانون متفوّق مالم تنكشف عليهم حقيقتها بوصفها قائمة على أسس متينة عقلانية. ولذلك فإن من أكبر تحدّيات العصر وحاجاته الماسة أن نتناول الشريعة الإسلامية وقوانينها بالشرح والتفهيم ومقارنتها بالأديان وقوانينها بأسلوب يثبتها معجزة، وقانوناً سرمديا متفوّقا لابد له للبشرية.

ولا يغيبنّ عن البال أن الحكم الخاطيء الذي أصدرته المحكمة العليا بخصوص قضية شاه بانو لم يكن من المصادفات أو المفاجآت، بل كان هناك أخذ ورد منذ زمان، وقد سبقته محاولات لتهيئة الجوّ عن طريق عقد المؤتمرات والمذاكرات. فالمؤتمر الذي أقامه «معهد دراسة القوانين بالهند في نيودلهي» على موضوع «القانون الإسلامي في الهند المتحضرة» اعتباراً من 16/14 يناير 1982م، قدّم فيها أحد المحامين في المحكمة العليا وهو «دانيال لطيفي» مقالاً علي عنوان «القانون الإسلامي وحاجة التغيير فيه» استرعى فيه الانتباه إلى تعديل مستعجل في قانون نفقة المطلقة المسلمة، مستدلاً على ذلك بتانك الآيتين الكريمتين من سورة البقرة (242/241)، اللتين قد صدر الحكم على أساسها من المحكمة العليا بعد مرور ثلاث عشرة سنة في 1985/4/23م.

وذلك يفيدنا أن المقنّنين (العقلاء) هم السبب المباشر في تأسيس الحركات المختلفة، الذين يتقدمون إلى الحكومات أو المحاكم بقرارات مختلفة، لإدخال تغييرات وإصلاحات من هذا النوع، وبالتالي تقوم الدوائر الحكومية

بتطبيقها وتنفيذها. فيجب لغسل أدمغتهم قيام حركات ردودية لا محيص عنها، ليكن تحطيم هذه القوى وسد هذه الفتن على طريقة علمية صحيحة وقد أصبحت عادة المسلمين أن يتفزعوا أو يفيقوا من غفوتهم عندما تورق هذه الحركات وتثمر، أو قد حدث انفجار بسبب حصيلاتها.

ولذلك فلا يصلح للرد على حركة علمية على معنى أصح إلا حركة علمية موازية، فإن الحديد لايقطعه إلا الحديد، ومن مستلزمات كل ذلك أن تكون الملة الإسلامية **يقظة مستعدة على الدوام، وتوفر الدلائل على يقظتها** بوقوفها مع صفوف الحركات الأولية، والحركات العلمية تتخلص من حركات الاحتجاجات والمظاهرات التي هي من علائم الغفلة والإهمال.

وبدافع هذا الشعور حملت ألاكاديمية الفرقانية (الوقفية) على أكتافها مسؤولية إدار حركة علمية بتقنية جديدة حسب وسعها وطاقتها، لتحقيق هذا الغرض المطلوب، لتمهيد السبيل لتطبيق الشريعة. فصمّت إعداد الكتب على هذا الموضوع بأسلوب حديث باللغات الأردية والعربية والإنجليزية وغيرها، بعد الدراسة والبحث الدقيق مما يختلف عن مؤلفاتنا التي تتم بالمنهجية التقليدية القديمة. وقد تم إصدار بعض الكتب على هذا الموضوع والأخرى تحت الطبع والنشر، والإعداد والعمل والحمد لله مستمر. ولكن الحاجة تدعو إلى إفراد قسم خاص بما يتعلق بالقضايا والمسائل الشرعية ليأتي العمل على حجمه كمّاً وكيفاً. ويتفرغ لذلك علماء أكفاء تتولى ميزانية الأكاديمية رواتبهم. فنناشد المحسنين وأهل الخير ونوجه إليهم نداء خالصاً ومؤكداً أن لايدخروا وسعاً في تمويل الأكاديمية بمساعدات مالية سخية وتزويدها بمستلزماتها ومطاليبها، ليتسنّى القيام بهذه الأعمال الجسيمة والخدمات الجلية نحو الأمة المسلمة بكل هدوء وطمأنينة بال.

﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة﴾..

بنكلور الهند - محمد شهاب الدين الندوي

تتساوى في ابتدا

خيل السباق تتساوَى في ابتدا	ولا يرى السابق إلا في المدا
كذلك الرجال، كل يزعم	لكن لدى الأعمال كل يعلم

يوم الهجرة

المنعطف الأول الذي بدأ به المسلمون تقويم تاريخهم للانتقال من مرحلة الدعوة الدينية إلى مرحلة الدولة.

للأستاذ الشيخ طه الولي

ابتداء التقويم الإسلامي بيوم الهجرة تقرر في السنوات الأولى من تثبيت دعائم الإسلام وإشهار دولته في مهاده الأولى.

والذي عليه المعول من الأقوال التي وردت في هذا الموضوع، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ثاني الخلفاء الراشدين، جمع جلة الصحابة وأعيان المسلمين، وفي جملتهم عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما، وأقبل عليهم يشاورهم في أمر التأريخ الذي يحسن بالأمة الإسلامية أن تعتمده في توقيت معاملاتها وتحديد زمان احداثها وأعمالها.

وسأل عمر من حضره رأيهم في أي المناسبات التي يرون التأريخ بها، لكيلا يكونوا عالة في هذا الشأن على من كان قبلهم من الأمم، مثل الفرس المجوس والعبرانيين اليهود، والروم النصارى، وذلك للتعبير عن استقلال الشخصية الإسلامية بكيانها ومنطلقاتها وسائر معطياتها.

فقال بعض الحاضرين : تؤرخ بمبعث النبي ﷺ، أي في الوقت الذي صدع النبي ﷺ فيه بأمر ربه معلناً انه رسول الله، وطلب من قومه أن يبادروا للإعلان برسالته السماوية القائمة على عبادة الله وحده ونبذ ما كانوا يعبدونه من دونه من الأصنام والأوثان والكواكب.

وقال آخرون : بل نؤرخ بمولده يوم تشرفت الحياة الإنسانية بوجوده الشريف.

وقال غيرهم : بل نؤرخ بوفاته وانتقال روحه المباركة إلى جوار ربه أكرم الأكرمين.

وبعد تداول الرأي وتقليبه على مختلف وجوهه، استصوب بعض الموجودين أن يكون بدء التاريخ الإسلامي يوم هجرته عليه الصلاة والسلام من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، معللين ذلك بأن الهجرة هي أول ظهور الإسلام وبداية انطلاقه في دروب القوة والنماء والازدهار.

وجد هذا الرأي الأخير عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه القبول فأصدر أمره باعتماده وأخذ الناس به واجتمعت الأمة عليه.

ولما أراد عمر رضي الله عنه أن يحدد الشهر واليوم والابتداء بالتأريخ على أساس الهجرة. عاد فبسط الموضوع من جديد للشورى بين أهل الحل والعقد من المسلمين في أيامه. وكانت الهجرة النبوية من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، من شهور السنة وأيامها : المحرم وصفر وأيام من اكرم الربيعين، ربيع الأول، فابتدر عمر القوم قائلاً: بأي شهر نبدأ تاريخنا فنصيره أول السنة ؟.

قال بعضهم : نبدأ بشهر رجب، فإن أهل الجاهلية كانوا يعظمونه.

وقال آخرون : بل نبدأ بشهر رمضان، فإن القرآن جعله شهراً معظماً.

وقال غيرهم : بل نبدأ بشهر ذي الحجة. فإن فيه الحج إلى بيت الله الحرام.

وقالت طائفة : بل نبدأ بالشهر الذي خرج فيه النبي ﷺ من مكة المكرمة لحماية دينه بالذين نصروه في المدينة المنورة واقترح قائل أن يبدأ التاريخ في الشهر الذي قدم النبي ﷺ فيه إلى المدينة المنورة حيث وجد القوة والمنعة.

ولما سئل عثمان بن عفان رضي الله عنه وجهة نظره في هذا الموضوع أجاب : أرخوا من المحرم، فهو أول السنة عند العرب، وهو شهر الله الحرام، وأول الشهور في العدة، أي في التقويم السنوي المعمول به آنذاك، وهو منصرف الناس عن الحج.

وبالفعل، كان لرأي عثمان رضي الله عنه القول الفصل، فلما وضع عمر رضي الله عنه التاريخ الهجري رده لليوم الأول من المحرم، بمعنى أنه ابتدأ حساب التاريخ الإسلامي، لا من اليوم الذي استقر فيه القرار على وضعه، بل من مستهل شهر المحرم الواقع في عام الوضع، مع اعتبار المدة التي مضت قبل ذلك من يوم الهجرة إلى غرة المحرم على الوضع.

وهكذا يكون التقويم الهجري قد بدء به عند المسلمين الأولين في أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ثاني الخلفاء الراشدين، وهذا سعيد بن المسيب، من أفاضل التابعين الموثوقين في أخبارهم زوج بنت أبي هريرة عبد الرحمن بن صخر الصحابي الجليل رضي الله عنه. وقد توفي سعيد على القول الراجح سنة 53 هـ (711 م) وهي السنة التي أطلق عليها اسم «سنة الفقهاء» لكثرة من توفي فيها فقد نسب إلى هذا التابعي الكريم قوله :

«أول من كتب التاريخ عمر رضوان الله تعالى عليه، لسنتين ونصف السنة من خلافته».

قال المسعودي في كتابه «التنبيه والإشراف» : وكان ذلك في السنة 17 أو 18 للهجرة، يتنازع الناس في ذلك، أي يختلفون في اعتماد أي من السنين المذكورتين.

بعد هذا الذي قدمناه حول اجتماع عمر بن الخطاب رضي الله عنه بأهل الشورى من جلة الصحابة، وأهل الحل والعقد من المسلمين لتقرير التقويم الإسلامي، يمكن القول بأن اختيار الهجرة النبوية من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة موعدا لبدء التقويم الإسلامي، نتيجة لحوار شخصي بين الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أدى إلى الاتفاق على ما اتفقوا عليه، والتزم المسلمون بهذا التقويم منذ ذلك الحين حتى اليوم، وإلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

وهل يقبل منطق بناء الأمة وتنظيمها أن يكون هذا البناء والتنظيم من وحي المصادفات العابرة ؟ إن هذا التساؤل أصبح وارداً في هذه الأيام التي يشهد فيها المسلمون تحركاً عالمياً يشمل سائر وأمصارهم للاحتفال بمرور أربعة عشر قرناً على حادثة الهجرة النبوية وإهلال القرن الخامس عشر. وإنه مما لاشك فيه أن هذا التحرك وثيق الاتصال بهذه الحادثة من حيث دلالتها المعنوية على الأثر المباشر الذي رتب عليها، وهو : قيام الشخصية الإسلامية على الأسس الدولية التي أصبحت اليوم قانوناً عالمياً بحسب الأعراف السياسية السائدة في حياة الأمم المعاصرة.

وهذه الأسس التي ارتبطت بالهجرة النبوية، هي : الأرض، والشعب والحكومة. هذه الأقانيم الثلاثة التي يتمثل في وجودها المادي المفهوم القانوني والدستوري لوجود الدولة، وبالتالي الشخصية الاعتبارية للأمة. وإن أي نقص في هذه الأقانيم المذكورة يجعل الكلام عن وجود الدولة والشخصية الاعتبارية للأمة ضربا من اللغو العاطفي الذي لاسند له من الواقع المادي.

ومن خلال هذا المفهوم القانوني والدستوري لقيام الدولة وكيان الأمة، فإن الهجرة النبوية قد أعطت الحركة الإسلامية التي حمل لواءها النبي محمد ﷺ بوحي من ربه عز وجل، الإطار الذي أفرزها حيزاً مستقيلاً ومتحيزاً

في قلب الجزيرة العربية، وخولها بالتالي حق محاورة الآخرين في داخل الجزيرة وخارجها، وذلك من منطق الجماعة التي تتمتع في كيانها الخاص بالعناصر الأساسية اللازمة لوجودها كدولة قائمة بذاتها، ويخولها الانطلاق على قاعدة التناظر المتقابل مع الكيانات الدولية الأخرى، كيفما كانت هذه الكيانات وأينما كانت.

وهذا ما أقدم عليه النبي محمد ﷺ بالفعل، فور استقراره بالمدينة المنورة، وانتظام شؤونه فيها حين أرسى قواعد حركته الدينية على الأقاليم الثلاثة التي بيناها، وهي :

أ ـ المهاجرون والأنصار، بوصفهم الشعب الإسلامي.

ب ـ المدينة المنورة، بوصفها الأرض التي يعيش فيها هذا الشعب.

ج ـ وأخيراً، التشريع الإسلامي الذي يعكسه القرآن الكريم بوصفه القانون والدستور اللذان يطبقان على الشعب وعلى الأرض في آن واحد.

فلقد بادر النبي محمد ﷺ، آنذاك، إلى ممارسة الاتصالات المباشرة مع القبائل العربية عن طريق الرسائل التي طلب فيها من هذه القبائل اعتباره طرفاً مستقلاً في العلاقات القائمة بينه وبينها، على أساس مبادئ واضحة وشرائط محددة، كما بادر، في نفس الوقت، إلى توجيه مندوبين يمثلونه لدى رؤساء الدول المجاورة، ومحل هؤلاء المندوبين رسائل رسمية تتضمن مطالبة أولئك الرؤساء بالاعتراف بنظامه الجديد القائم على الشريعة الإسلامية، كما طلب إليهم في هذه الرسائل الاعتراف به شخصياً كرئيس أعلى لهذا النظام، وهذا ما يسمى بلغة العصر الديبلوماسية : الوثائق السياسية المتبادلة بين الدول عبر رؤسائها الشرعيين لتبادل الاعتراف القانوني فيما بينهم.

وإذا عدنا إلى الوقائع التي توالت على المدينة المنورة فور هجرة النبي محمد ﷺ إليها، وخلال السنوات الأولى بعد هذه الهجرة فإننا نلاحظ كيف أن المجتمع الإسلامي الذي شكله النبي محمد ﷺ، من المكيين الذين رافقوه ومن المدنيين الذين آووه ونصروه، سرعان ما تحول إلى وحدة شعبية، التصقت بوطنها القومي الجديد والتفت حول عهدها النبوي تحت لواء الدعوة الإسلامية، الا والذي أعطى النبي محمد ﷺ القدرة على اهتبال هذه الفرصة، ليتعرف دون أي إبطاء في الاتجاه الذي يترجم انطلاقته الدينية إلى كيان سياسي، بكل ما في هذه الكلمة من معنى على المستوى الدولي المعروف اليوم.

إذن، فإن هجرة النبي محمد ﷺ من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، كانت في الواقع نهاية وبداية، في آن واحد، أما النهاية فإنها كانت لمرحلة إعلان الدعوة الدينية، وأما البداية، فإنها كانت لمرحلة إعلان الدولة الإسلامية.

ولعلنا لا نحتاج إلى مزيد من التفصيل، من أجل إيضاح الظروف المبدئية والجوهرية القائمة بين المرحلة التي شهدت ظهور الدعوة الدينية، وبين المرحلة التي شهدت نشوء الدولة الإسلامية. ذلك أن المرحلة الأولى كانت، بما لابسها من مبادرات قام بها النبي محمد ﷺ على المستوى الإفرادي والقبلي كانت في مجملها مجرد إرهاص بتحول فكري هدفه نشر العقيدة الدينية الجديدة بين الآخرين من الأهل، والمواطنين بينما المرحلة الثانية، بما تمخضت عنه من وقائع صدامية، وأحداث ذات صفة عامة، كانت إيذاناً بتأسيس عناصر الدولة القومية الجديدة، بمعالمها الواضحة ونظمها المركزية داخلياً وخارجياً، وهي العناصر والنظر التي تعكس المعطيات القانونية الحديثة المتواضع عليها في العرف الدولي السائد اليوم، وهي :

الأرض، والشعب، والسلطة (أي الحكومة).

وانطلاقاً من هذا المفهوم التحليلي لواقعة الهجرة النبوية، من بلد الدعوة إلى بلد الدولة، فإننا نؤكد بأن الحوار الذي تبادله أصحاب النبي محمد ﷺ رضوان الله تعالى عليهم وانتهى إلى إقرار التقويم الإسلامي ابتداءاً من الواقعة المذكورة، لم يكن وليد التأولات الافتراضية، لتلك ـ الواقعة ـ كحدث مادي عارض، بل إن هذا الحوار كان مرتبطاً ارتباطاً عضوياً أكيداً بالأغراض التأسيسية التي أوضحناها، والتي كانت وقائعها الحسية لا تتجاوز الظاهرة العرضية فقط.

وعليه، فنحن نقول بأن التاريخ الهجري، كان، في الواقع تعبيراً مدروساً من قبل الذين وصفوه لأول مرة، عن

إنشاء الدولة الإسلامية بكامل ما تعنيه هذه المؤسسة العامة من أبعاد، في التنظيم الداخلي، ومن توثيق للسيادة القومية ومن توضيح للعلاقات الخارجية مع التجمعات القبلية في داخل الجزيرة العربية، وفي نفس الوقت مع الأمم الأُولى في الأقطار الأجنبية المجاورة.

وهكذا، فإنه يمكن القول بأن التقويم الإسلامي حين اتخذ من مناسبة الهجرة النبوية منطلقاً له، قد لحظ الناحية المبدئية وليس الناحية الشخصية، وبذلك يمكن الانتهاء في كلامنا عن هذا التقويم بأنه : يعبّر عن بدء انطلاقة الرسالة الإسلامية في مسيرتها الخالدة، من أجل حضارة إنسانية، لا تتقيد بالاعتبارات الفردية التي تقوم على عبادة الذات، أي عبودية الإنسان للإنسان.

ومن أجل هذا الشعار، وتحت ظل لوائه، وضع المسلمون تقويمهم الزمني بالتاريخ الهجري.

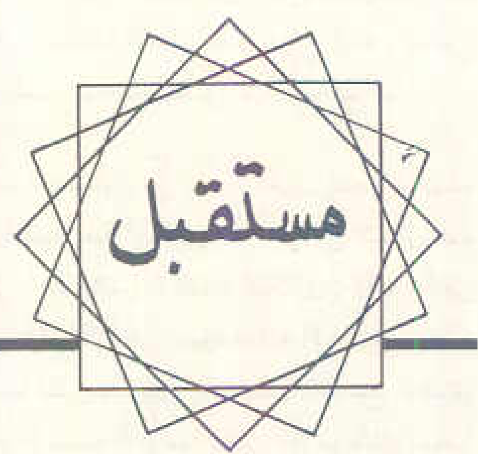
وهو التاريخ الذي يعتبر في الواقع : النقلة النوعية التي قام بها النبي محمد ﷺ : من مرحلة الدعوة الدينية في مكة المكرمة إلى مرحلة الدولة الإسلامية في المدينة المنورة.

بيروت ـ الشيخ طه الوالي

رَعَى اللـه إخـوان الخيـانـة...

رَعَى اللـه إخـوان الخيـانـة، إنهم	كفـونا مـؤونـة البقـاء على العهـد
فَلَوْ قَدْ وَفَوْا، كُنّا أسارى حقوقهم	نراوح مـا بين النسيئـة والنقـد

ـ البلفيقي ـ





للدكتور محمد الحبيب ابن الخوجة

الحمد لله الذي شرع لنا من الدين ما تستقيم عليه حياة الناس في كل الأزمان، ووضع للعالمين بالإسلام منهجا متميزا للحياة، ونظاما متكاملا لها تشمل أصوله ومبادئه وكلياته وقواعده كل الجوانب من عقائد وعبادات ومعاملات، وسلوك وأخلاق واجتماع، واقتصاد وسياسة وشؤون دولية وغير ذلك من ضروب التصرفات : «**وهذا صراط ربك مستقيما قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون**»[1] وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد عبده ورسوله، النعمة المسداة والرحمة المهداة، الذي ترك أمته على المحجة البيضاء والطريق الواضحة الغراء، وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوتهم واهتدى بهديهم وتبع سبيلهم إلى يوم الدين.

وبعد، **فإن الشريعة الإسلامية هداية إلهية ومنحة ربانية أنارت للناس المسالك، ونبهتهم إلى أصول الحق والعدل، ودعتهم إلى الخير والعمل الصالح، وصرفتهم عن الشر وسائر الانحرافات. وهي بقدر ثباتها ودوامها وتنزهها عن التبديل والتغيير لكونها شريعة الله، وارتباطها بالوحي، وثبوتها بالنصوص، ولاتصافها بكونها الشريعة الناسخة والعامة والخاتمة والخالدة، فإنها محكمة تخاطب العقل وتهديه**، وتنكشف به مقاصدها وأسرارها، فهي له نور وهو لها جلاء، والعقل لها أساس وهي له بناء، قال تعالى : ﴿**قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه، ومن عمي فعليها، وما أنا عليكم بحفيظ**»[2].

وقال سبحانه : ﴿**قدجاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم**﴾[3].

وهذه الخاصة المميزة للشريعة الإسلامية هي الميزان القسط في التكاليف وأنواع السلوك. **فقد درأت عنها من جهة النزعات والميول والشهوات والأهواء**، وحفظت للدين حرمته التشريعية وسداده، وضمنت كفالة الحقوق المختلفة به، وحماية جميع العناصر **بتحقيق التوازن المثالي بين مصالح الفرد ومصالح الجماعة**. لذلك قال أبو إسحق الشاطبي :[4] (إن الشريعة إنما جاءت

1) الأنعام : 126.
2) الأنعام : 104.
3) المائدة : 15 ـ 16.
4) الموافقات : 2 ـ 33.

لتخرج المكلفين عن دواعي أهوائهم حتى يكونوا عبادا لله. وهذا المعنى إذا ثبت لا يجتمع مع فرض أن يكون وضع الشريعة على وفق أهواء النفوس وطلب منافعها العاجلة كيف كانت، وقد قال ربنا سبحانه : **﴿ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن﴾.**

وهي من جهة أخرى قد رفعت عن الناس الحرج، وسلكت بهم مسالك اليسر والرحمة، ولم تضيق عليهم في معاملاتهم وأمور دنياهم، ووكلتهم لتحقيق سعادتهم وحماية مصالحهم **إلى القواعد العامة الشرعية والكلية يرعونها،** ثم إلى العقول الرشيدة يحكمونها. قال العز بن عبد السلام : (وأما مصالح الدنيا وأسبابها ومفاسدها فمعروفة بالضرورات والتجارب والعادات والظنون المعتبرات، فإن خفي شيء من ذلك طلب من أدلته، ومن أراد أن يعرف المتناسبات والمصالح والمفاسد راجحهما ومرجوحهما فليعرض ذلك على عقله بتقدير أن الشرع لم يرد به، ثم يبني عليه الأحكام فلا يكاد حكم منها يخرج عن ذلك إلا ما تعبد الله به عباده، ولم يقفهم على مصلحته أو مفسدته)[5].

ولتلك الخاصة المعتبرة للشريعة الإسلامية أيضا، من حيث الرعاية الربانية للخلق التي تتميز بها والتي لا يجحدها إلا ضال مكابر أو ملحد معاند، ومن حيث حاجة الإنسان المطردة والمتكررة إلى هذه الشريعة الغراء، سمة دائمة ومستمرة هي تميزها بالسعة والمرونة. ويرجع هذا في حقيقة الأمر إلى **كثرة القواعد والأصول فيها،وإلى اتساع مادة الفروع والأحكام بها، وإلى الثروة العظيمة من النظريات والضوابط الفقهية، ثم إلى المجالات الاجتهادية ومسالك الاجتهاد التي** وسعت في كل عصر من عهد الصحابة إلى اليوم ما جد من قضايا وحصل من تطورات ونشأ من وقائع وتصرفات، كل ذلك تجد له في الشريعة الأصل الذي يرجع إليه ويندرج تحته، والحكم المناسب الذي يطبق عليه ويخضع له.

ولم يخف المنصفون من علماء الغرب إعجابهم بهذه الظاهرة البارزة للشريعة الإسلامية، وأعلن عن انبهاره بها بعضهم فقال في أحد مؤتمرات الفقه المقارن : (كيف أوفق بين ما كان يحكى لنا عن جمود الفقه الإسلامي وعدم صلاحيته أساسا تشريعيا يفي بحاجات المجتمع العصري المتطور، وبين ما نسمعه الآن مما يثبت خلاف ذلك تماما ببراهين النصوص والمبادئ)[6].

وذهب آخر إلى أكثر من ذلك، بعد وقوفه على رسالة عن التعسف في استعمال الحق في الإسلام، فقال في غير تردد : (إن الشريعة الإسلامية لتحتوي على أحكام لم يصل إليها القانونيون الغربيون إلا بعد عشرة قرون)[7]، وصدرت عن الهيآت العلمية واللقاءات الدراسية التي انعقدت بلاهاي في سنوات 32، 37، 48، وبباريس في أسبوع الفقه الإسلامي عام 1951، قرارات وتوصيات من أهمها :

1 - **أن مبادئ الفقه الإسلامي لها قيمة حقوقية تشريعية لا يمارى فيها.**

2 - **أن اختلاف المذاهب الفقهية ينطوي على ثروة من المفاهيم والأصول الحقيقية هي مناط الإعجاب، وبها يتمكن الفقه الإسلامي أن يستجيب لجميع مطالب الحياة والتوفيق بين حاجاتها**[8].

---

5) القواعد : 2 - 38.
6) أسبوع الفقه الإسلامي بباريس 1951.
7) كلام رجل القانون الألماني كوهلر في العقد الثاني من القرن العشرين. عبد الرازق السنهوري، مجلة القضاء العراقية عدد 6 - 27 مارس سنة 1936.

أمين عبد الله القرقوري، حقائق عن صلاحية الشريعة الإسلامية لهذا العصر. البحث الإسلامي. مجلد 18، عدد 10 جمادي الأولى / يونيو 1974.

8) أسبوع الفقه الإسلامي بباريس 1951.

3 ـ أن التشريع الإسلامي يعد في طليعة المصادر الصالحة لسد حاجات التشريع الحديث[9].

وإن مواقف التحول والإعجاب هذه، والقرارات والتوصيات الصادرة عن المؤتمرات الدولية الحقوقية، لتشهد كلها للجهود العظيمة والاجتهادات الفائقة التي قام بها علماء الشريعة في كل عصر، وخاصة في عصور الازدهار الحضاري والعلمي، والتي لبوا بها مطالب أزمانهم امتثالا لإشارات الرسول ﷺ، وائتساء بأصحابه رضوان الله عليهم أجمعين.

ولم يجمد الفقه أو يمن بالوهن والعجز بصورة تامة ومخيفة إلا في القرنين الأخيرين، حيث هيمنت الدول الأجنبية على العالم الإسلامي، وفرضت سلطانها وقوانينها وآدابها وحياتها الحضارية على مجتمعاتنا، فأضعفت من شأن الفقه، وضيقت دوائر اختصاصه، وقاومت تعلمه وتعليمه، وأوجدت إلى جانب المدارس والمعاهد الشرعية جامعاتها الجديدة، فنازعت هذه الأولى وجودها، وظهرت آثار ذلك في إزاحة الأحكام الشرعية عن ميداني الأحكام والقوانين التجارية والجنائية، وفي عزل الفقه الإسلامي عن الحياتين الاجتماعية والاقتصادية، وعن أهم مرافق الحياة، وعن التنظيمات الإدارية والقوانين الدولية. وهكذا غاضت الدراسات الفقهية، وتقلصت الروح الاجتهادية، وانحصر المد الشرعي الفقهي في كل الأقطار إلى ما وراء الحدود المذهبية المعتمدة فيها، وتحجرت الدراسات، وفسدت التآليف لقيامها على المختصرات الفقهية المذهبية، ولاشتغال الباحثين والدارسين بألوان الجدل اللفظي العقيم الذي ذوت معه الملكات، وابتعدت به الهمم عن معرفة طرق الاستنباط للأحكام، وعن طلب أسرار الشريعة، وعن التعرف على أصولها وقواعدها العامة وعلى المقاصد الجليلة التي نيطت الأحكام بها فيها.

ولما كتب الله للعالم الإسلامي، بفضل جهود الدعاة والمصلحين، أن يسترد سيادته، ويخلص أوطانه، ويحرر نفسه من كل صور التبعية البغيضة، وحين صحا المسلمون من غفلتهم، وظهرت آثار هذه الصحوة في البحث عن الأصالة حفاظا على الذات، وفي الحرص على التفتح طلبا لمواكبة تطورات الزمان، ومواجهة تحديات الحياة المعاصرة، وفي نشدان سبل السلام طمعا في بناء الغد الأفضل بعيدا عن تيارات المادية المدمرة، ووفقا لمبادئ وأصول الحضارة الإسلامية المعتدلة القائمة على العدل والوسطية، **نادى أكثر رجال الفكر في عالمنا الإسلامي المعاصر بوجوب الاجتهاد، والبحث عن الحلول الشرعية المناسبة للقضايا المطروحة أمامنا في مختلف مجالات الحياة.**

ولم يعتد كثير من الناس بالفتاوى التي أصدرها الفقهاء في العصر الحديث لأنها وإن كانت تمثل الناحية التطبيقية للفقه، غير أن ملابسات الحياة لموضوعاتها تغيرت، وقد أحدثت الطفرة الحضارية التي شهدها العالم الإسلامي اتجاهات مذهلة وغريبة، وأنماطا جديدة أصبحت واقعا نحياه، يتأثر بالمذاهب العصرية الفلسفية والاجتماعية والعلمية والاقتصادية العالمية، ويدفع المسلمين، وقد وقعوا في دوامة ليس لهم بها من قرار، إلى أن يعودوا إلى تشريعهم يستفتونه في كل شيء لعلهم يجدون فيه المخلص والمخرج والاستقامة والهدى. قال تعالى : ﴿**ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها، ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون، إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا، وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض، والله ولي المتقين**﴾[10].

فنظام الحكم في الإسلام، والفكر السياسي والدستوري، والقواعد الأساسية للحكم الإسلامي المعاصر،

---

9) مصطفى الزرقاء، المدخل الفقهي : 1، 94، 229.

10) الجاثية : 18 ـ 19.

والعلاقات الدولية في السلم والحرب، والمعاهدات والمواثيق بين الدول، **والمجالس النيابية، والقوانين الإدارية**، والترتيبات والتنظيمات، وما جد في المجتمعات المتطورة **من مؤسسات وتصرفات مثل وسائل العلاج المتقدمة**، وأجهزة الإنعاش، وأطفال الأنابيب، وبنوك الحليب، والبنوك المنوية، ثم **الأحكام المدنية من تجارية وعقارية**، وقوانين البحار، والصيد، والشغل وتطور **العلاقات الاقتصادية داخل العالم الإسلامي وخارجه، والتراتيب المحلية العرفية الناشئة عن** ذلك، وما يملأ العالم من مؤسسات مالية، وبنوك دولية ومصارف، **ونظام الفائدة، وشركات قانونية مساهمة مغفلة**، وعقود التأمين، **والطرائق والأحوال اللازم مراعاتها في المعاملات، والمرافعات**، والدعاوى، **وفصل الخصومات وتسجيل العقود، وتنفيذ الأحكام، وأنواع القضايا الجنائية** وما تقتضيه من عقوبات وتعازير، ونحو ذلك مما جد في هذا العصر، أو دخل حياتنا عن طريق الاحتكاك بالغرب والتأثر به والاقتباس منه، مما يمكن أن يضخع في حكمه لنصوص قطعية أو ظنية من الكتاب والسنة، أو نجده مما لا يندرج تحت النصوص بأنواعها، ومما لم ينعقد عليه إجماع متقدم، يتعين أن يخضع للنظر الشرعي الاجتهادي بغية الكشف عن حكمه، وبيان موقف الشريعة منه.

وإن الاجتهاد لا ينشئ حكما وضعيا، وإنما يكشف عن الحكم الشرعي، وهو حكم الله الذي نصب الشارع أمارات عليه، وهدى إلى الطرق المعتمدة للوصول إليه.

وهذا ما يقتضيه قول الله عز وجل : **﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم. فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، ذلك خير وأحسن تأويلا﴾**[11].

وكما اعتمد الأولون من أسلافنا وأشياخنا على الرجوع إلى المصدرين الأساسيين القرآن والسنة، وقاموا باستنباط الأحكام منهما للقضايا المستجدة في أعصارهم، ينبغي أن يكون سير أعلام الفقه وأئمة الشريعة، في هذا العصر وما بعده، وفاقا لذلك المنهج الذي قامت الشواهد على حكمته وسداده. وتلك أمانة في أعناقهم، وهم مأمورون بالاجتهاد منهيون عن التقليد. **والاجتهاد لم يكن قط حكرا على العلماء المتقدمين، وإن مزاولته لحق وواجب على الخاصة من أهل النهى والعلم لهداية الناس في كل ما تدعو الحاجة إلى دراسته وبيان حكم الله فيه.** قال الشوكاني : (ومن حصر فضل الله على بعض خلقه، وقصر فهم هذه الشريعة على من تقدم عصره، فقد تجرأ على الله عز وجل، ثم على شريعته الموضوعة لكل عباده، ثم على عباده الذين تعبدهم الله بالكتاب والسنة)[12].

وهكذا فإن التشريع الإسلامي الذي هيمن على حياة الناس مدى قرون طويلة، ولم يضق بشيء من متطلباتهم بالرغم عن الغزوات والفتوحات الكثيرة وما نجم عنها، وساعدهم في عصور الازدهار على بناء حضارتهم الشامخة، واتسع فشمل كل التطورات والمتغيرات واستوعبها بحكمته ومرونته في كل الأصقاع التي دخلها، ومع كل الشعوب التي دانت به وخضعت له، لا يني أبدا في التوجيه إلى الطريق الأقوم والمسلك الأرشد، ولا يتأخر عن الاستجابة لمقتضيات التقدم الفكري والعلمي، وذلك بتحقيق التوازن المثالي العادل في المجتمعات، وبقضائه التام على كل الفوارق الجنسية والطبقية، وبحرصه الدائم على ضمان الحق والعدل.

---

11) النساء : 59.

12) إرشاد الفحول : 242.

وهو، إذ يخضع كل شيء لنظرياته ومبادئه وأصوله وقواعده، يضمن لنفسه السلطان والخلود، وللإنسانية المعذبة الخير والطمأنينة والسعادة، إذ يكل كل الأمور والتصرفات في هذا الوجود، مهما كانت ثابتة أو متغيرة، وقديمة أو جديدة إلى الرأي الحصيف والعقل المدبر الذي قذفه الله نورا في عباده، وإلى المنهج الاجتهادي الذي هدى إليه الله سبحانه، بفضله وحكمته، أمناءه على شريعته لتطبيق الكتاب والسنة، والعمل بالمبادئ السامية والقواعد العامة في كل الأحوال العادية وغير العادية، قصد جلب المنافع، ودرء المفاسد، ورفع الحرج وتحقيق المصالح، فبالرأي والاجتهاد أو بالاجتهاد بالرأي يتم للمؤمنين القصد، ويضمن لهم العدل والأمن، وتكفل لهم الحرية والتقدم.

وقد وصف ابن القيم هذا الرأي الاجتهادي بقوله : **(هو ما يراه القلب بعد فكر وتأمل وطلب لمعرفة وجه الصواب مما تتعارض فيه الأمارات)**[13].

وليس هذا الرأي بمقدور لكل أحد أو موجودا عند عامة الناس. ولذلك فرق الأئمة والعلماء بين الرأي الذميم الباطل، وبين الرأي الصائب الاجتهادي المقبول.

فمن الأول ما أشار إليه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في قوله يصف التطورات التي شهدها في عصره : (لا يأتي عليكم عام إلا وهو شر من الذي قبله، أما أني لا أقول أمير خير من أمير، ولا عام أخصب من عام، ولكن ذهاب خياركم وعلمائكم، ثم يحدث قوم يقيسون الأمور برأيهم فينهدم الإسلام ويثلم)[14].

وهذه الفئة هي التي تقيس فتفتي في دين الله بالرأي المتضمن لمخالفة النصوص، أو بالرأي الذي لا تشهد له النصوص بالقبول، أو تقول في الشرع بالخرص والظن مع التفريط والتقصير في معرفة النصوص وفهمها واستنباط الأحكام منها، أو تقول في أحكام شرائع الدين بالاستحسان والظنون، والاشتغال بحفظ المعضلات والأغلوطات، ورد الفروع بعضها على بعض قياسا، دون ردها على أصولها والنظر في عللها واعتبارها[15]. وسبيل من يفعل ذلك سبيل من يفقد الموهبة والعلم والأمانة، ويستجيب إلى هواه ظلما للعباد. وقد أمر بالاستجابة إلى الله ورسوله. قال تعالى : ﴿**فإن لم يستجيبوا لك فاعلم إنما يتبعون أهواءهم، ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله، إن الله لا يهدي القوم الظالمين**﴾[16].

ومن الثاني الصائب المحمود رأي أفقه الأمة، وأبرها قلوبا، وأجمعها علما، وأقلها تكلفا، ممن شاهد التنزيل، وعرف التأويل، وفهم مقاصد الرسول ﷺ، كالأئمة الراشدين والصحابة المقربين، وكذلك الرأي الذي يفسر النصوص ويبين وجه الدلالة فيها، ويقرر ويوضح محاسنها، ويسهل طريق الاستنباط منها، ومن الرأي المقبول المعتمد أيضا ما تواطأت عليه الأمة وتلقاه خلفهم عن سلفهم ومنه ما يحصل للباحث والمتأمل بعد طلب علم الواقعة في القرآن فإن لم يجدها فيه ففي السنة، فإن لم يلفها بها ففيما قضى به الخلفاء الراشدون أو أحدهم، فإن لم يظفر به في أقضيتهم ففيما قاله أحد الصحابة، فإن لم يجده اجتهد رأيه ونظر إلى أقرب ذلك من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وأقضية أصحابه[17].

ولعل هذه الأنماط المحمودة والمعتمدة من الرأي هي التي يحددها الأصوليون بقولهم : **(الاجتهاد بالرأي هو بذل الجهد للتوصل إلى الحكم في واقعة لا نص فيها بالتفكير واستخدام الوسائل التي هدى الشرع إليها للاستنباط بها فيما لا نص فيه)**[18].

---

13) أعلام الموقعين : 1، 55 ط. المنيرة.
14) أعلام الموقعين : 1، 47.
15) أعلام الموقعين : 1، 56 ـ 57.
16) القصص : 50.
17) راجع أعلام الموقعين : 1، 66 ـ 71.
18) عبد الوهاب خلاف، مصادر التشريع : 7.

فمنهم المجتهد المطلق المستقل.

ومنهم المجتهد المطلق المنتسب.

ومنهم المجتهد في المذهب.

ومنهم مجتهد الفتيا.

وقد فصل العلماء القول في كل صنف من هذه الأصناف. والأيسر من ذلك أن نرد الأصناف الأربعة إلى صنفين اثنين :

الأول : المجتهد المطلق.

والثاني : المجتهد المقيد.

وقد عز الأول، وقل الثاني، وأكثر العلماء اليوم من مقلدي المذاهب المتعصبين لآراء أئمتهم.

وأمام هذا الوضع المنذر بتوقف الاجتهاد وانغلاق بابه فعلا، لعدم وجود الصفوة الكافية من العلماء، وقبض الله العلم، وظهور الفتن، وعدم توافر العنصر اللازم الذي يمكن أن يخلف الراحلين، ويتلقى عنهم الأمانة في أطراف البلاد الإسلامية، وأمام مشاكل الحياة اليومية المتزايدة، وما تنطوي عليه من تعقيدات اجتماعية واقتصادية، وما ظهر ويظهر في هذا العصر من آثار التطور الفكري والحضاري التي تستوجب تعديلا للتصرف وعلاجا للأوضاع، وإيجادا للحلول الشرعية المناسبة لكل أمر يعرض، وأمام الحاجة الملحة إلى صمام الأمن الذي يحفظ للأمة عقيدتها ودينها وقيمها ومثلها، ويقيها الأخطار المحدقة بها، ويوجهها إلى المسلك السديد الواضح الذي اختاره الله لها، ويعينها على بناء مستقبلها بما يعيد إليها سعادتها وعزتها، يكون من الضروري :

أولا : وفي التو : أن ننبه الدول الإسلامية وحكوماتها إلى وجوب العناية بالعلوم الشرعية، ومضاعفة الجهد في تركيزها وتطويرها والاهتمام بها في كل أقطار العالم الإسلامي ودياره، سواء في الجامعات الإسلامية أم في غيرها من الكليات الشرعية والدينية، ومراكز الدراسات العليا ومعاهد البحوث. وإن الدراسات الجامعية والعليا أصبحت في هذا العصر مقترنة بحاجات الأمة ومتطلباتها، ومقدرة في الاهتمام والعمق بقدرها.

ثانيا : إذا كانت الأوضاع على نحو ما وصفنا، والحاجة إلى المجتهدين والفقهاء والعلماء الشرعيين أكيدة وضرورية كما علمنا، **فلابد من الحرص على تكوين جيل جديد له من التربية الذهنية، والعقلية النظرية والعملية، ما تتسع به آفاق ثقافته العصرية، ويمكنه في الوقت نفسه من الإحاطة بالعلوم الإسلامية من قرآنية وحديثية وفقهية وأصولية، ومن التعمق في دراسة المناهج والطرق الشرعية التي تساعده على حل المشاكل الاجتماعية وغيرها، بعيدا عن التزمت والتعصب المذهبي،** وبقدر كاف من التفتح السليم النابع من موارد الشريعة الصافية والقائم على مراعاة مقاصدها العالية واعتبارها. ومن أجل أن تتكون له الملكة الاجتهادية فإنه لا يسعه **إلا أن يقوم بدراسة الأحكام الشرعية في كتاب الله وسنة رسوله،** ثم الوقوف على مدارك الأئمة واجتهاداتهم، والتعرف على مختلف الأقوال والآراء في المذاهب المعتبرة، وعلى ما يسندها من أدلة ويدعمها من حجج، تخريجا لها وترجيحا بينها بردها إلى المصادر الأساسية لمعرفة أيها أقرب من النصوص أو أقيس عليها، وأيها أوفى بمقاصد الشرع.

ثالثا : أن يعتمد الطلاب والدارسون في الجامعات ومراكز البحث وغيرها على الدراسات الفقهية المقارنة داخل إطار المذاهب الفقهية وخارجها، ليكونوا بما يتسع به نظرهم من مدارك، وما يحصلون عليه من نتائج، أقدر على الوصول إلى آراء ونظريات وأحكام وتطبيقات قيمة ومتطورة.

واعتقادنا أنه لا يرقى إلى هذا الفهم، أو يبلغ هذه الدرجة من الاجتهاد بالرأي من بين أصحاب الثقافات الواسعة والعلوم الشرعية المتنوعة إلا من توفرت فيه شروط الاجتهاد. وأهمها :

أولا : العلم بأحكام القرآن والأصول التشريعية العامة التي قررها، وما ينتظم ذلك من آيات الأحكام في الكتاب. وهذا بالإحاطة بتفسيرها، ومعرفة ملابسات نزولها والوقوف على ما ورد في تأويلها، وبيان أحكامها ومقاصدها، من سنن أو آثار، وإدراك أوجه دلالاتها وما قد تكون عليه طرق انكشاف أغراضها ومعانيها من أوجه البيان والخفاء، والإلمام بمحكمها ومتشابهها، وناسخها ومنسوخها.

ثانيا : العلم التام بالسنة التشريعية العملية القولية والفعلية والتقريرية. وتلك هي المتمثلة في أحاديث الأحكام مع معرفة درجاتها من التواتر والاستفاضة والآحاد، وتبين أنواعها من صحيحة وحسنة وضعيفة، وموضوعة، واطلاع كامل على أحوال الرواة، واعتماد أهم المصادر في ذلك.

ثالثا : العلم بمواقع الإجماع، ولا يتم ذلك إلا بمعرفة مذاهب الأئمة المجتهدين السابقين، وتتبعها في القضايا المتفق عليها بينهم، ثم إدراك وجهات نظرهم فيما اختلفوا فيه.

وبهذه الشروط الثلاثة يتمكن المجتهد من رد الواقعة المبحوث فيها إلى المصدرين الأساسيين، كما يتمكن من معرفة ما انعقد عليه الإجماع بين أئمة هذه الأمة فيحتوي مواضع الفتوى، ويعمل النظر ويجتهد في غير موارد النصوص ومواقع الاجماع.

رابعا : العلم الكامل بالطريق الأساسي للاجتهاد فيما لا نص فيه وهو القياس.

ويكون ذلك بمعرفة حقيقة القياس وأركانه وشروطه، ومعرفة العلة ومسالكها وقوادحها، والإحاطة بما فصله علماء الأصول من مناهج وطرق اجتهادية، وضبطته الدراسات العلمية من المبادئ العامة للتشريع والقواعد الكلية له، وما فصلته من علل الأحكام المستمدة من نصوص الكتاب والسنة، ومن علل الأحكام المندرجة تحت القواعد الكلية.

ومن تمام هذا الشرط **العلم بالمصالح العامة والمقاصد الشرعية، والتصور الكامل لأحوال البيئة وما تتطلع إليه المجتمعات الإنسانية من مطالب** تحفظ لها مصالحها وتدفع عنها العنت والإصر.

خامسا : الحذق للسان العربي ومعرفة التصاريف القولية فيه، وإدراك خصائصه وأذواقه، والمعرفة الدقيقة بالاصطلاحات في مختلف العلوم الشرعية : قرآنها وسنتها وأصولها وفقهها.

سادسا : دين واستقامة وورع وفطنة تكفل مجتمعة لصاحب النظر والفتوى الاجتهاد بما يرضي الله من التزام أحكامه وحدوده، وتطبيق قواعد تشريعه وأصوله العامة، مع رعاية مصالح الناس والتيسير عليهم، والأخذ في شؤونهم الدنيوية ومعاملاتهم بما تقتضيه أسرار الشريعة ومقاصدها.

تلك هي أهم الشروط المطلوب توافرها في المجتهد. وهي التي يتحقق بها الوصفان اللازمان فيه للاجتهاد. ذكر ذلك الشاطبي فقال : (**أحدهما : فهم مقاصد الشريعة على** كمالها بحيث يمكن للمجتهد أن يتنزل منزلة الخليفة للنبي ﷺ في التعليم والفتيا والحكم بما أراه الله، **وثانيهما : التمكن من الاستنباط بناء على فهمه للمقاصد الشرعية**)[19].

☆ ☆ ☆

وما من شك في أن الشروط المذكورة تتفاوت في انطباقها على الخاصة من العلماء، وبذلك تختلف أصناف المجتهدين وتتمايز درجاتهم.

19) الموافقات : 4، 105 ـ 108.

رابعا : ولابد في هذه الأحوال كلها من إتقان وتطبيق المناهج الاجتهادية المعتمدة التي جماعها أصول الفقه، مع العلم الدقيق بالقواعد العامة، والأشباه والنظائر، والفروق التي تساعد المجتهد عند طلب الأحكام من مصادرها والبحث عنها في مظانها على تحقيق مقصد الشارع فيما ينتهي إليه من فتوى أو رأي.

خامسا : أن تتوفر الجهود في الدراسات العليا الشرعية والفقهية على بحوث فردية وجزئية يعدها الطلاب بإشراف كبار الأساتذة يتناولون فيها القضايا المعاصرة، يفحصونها فحصا علميا من جميع جوانبها، ويعرضونها من جهة على الواقع العملي وملابساته وتطورات الحياة ومقتضياتها، ومن جهة أخرى على الآراء المعتمدة في المذاهب، وعلى الحالات المماثلة التي قد كان للسابقين فيها رأي أو آراء اجتهادية، **مع الحرص دائما على اعتبار روح الشريعة وأهدافها.**

ومتى توافرت هذه القدرات والإمكانات، وواكب الفقه الإسلامي الحياة في حاضره كما كان يواكبها ويواجه تياراتها وتحدياتها ويحكمها في ماضيه، وخاصة في عصور النهضة والتقدم والازدهار الفكري والحضاري للعالم الإسلامي، **فإن الاجتهاد في الفقه الإسلامي حاضرا ومستقبلا سوف لا يكون في حاجة إلى تبني النظريات القانونية، ولا إلى اقتباس الأحكام الوضعية،** لا لأننا نأبى طلب الحكمة والاستفادة من الاقتباس، «فالحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها»[20]، ولكننا كأمة أكمل الله لها دينها، وأتم عليها نعمته، لا نرضى التبعية في تشريعاتنا، ولا نحب أن نوصف بالقزامة، ولنا المصدران الأساسيان للتشريع، ثم الإجماع والقياس، والمصادر التبعية المتعددة. وإن الفقه الإسلامي كما قال السنهوري (النظام قانوني عظيم له صنعة يستقل بها، ويتميز عن سائر النظم القانونية في صياغته، وتقضي الدقة والأمانة العلمية علينا أن نحتفظ لهذا الفقه الجليل بمقوماته وطابعه. ونحن في هذا أشد حرصا من بعض الفقهاء المحدثين فيما يؤنس فيهم من ميل إلى تقريب الفقه الإسلامي من الفقه الغربي، ولا يعنينا أن يكون الفقه الإسلامي قريبا من الفقه الغربي فإن هذا لا يكسب الفقه الإسلامي قوة بل لعله يبتعد به عن جانب الجدة والإبداع، وهو جانب للفقه الإسلامي منه حظ عظيم)[21].

☆ ☆ ☆

وما من شك في أن الثروة العظيمة التي تكونت عبر العصور وعلى مر القرون، والتي يتميز بها الفقه الإسلامي على ما دونه من قوانين، كان أساسها ذلك الاجتهاد العلمي الدقيق الذي لمسنا آثاره عند الأئمة وكبار فقهاء **المذاهب في المصطلحات الفقهية يحددونها،** وفي افتراض **الحوادث قبل وقوعها يقررون أحكامها** مسبقا، وفي **صياغة القواعد الكلية،** بعد التداول والنظر والتحوير والصقل، يستنبطونها في مجال التعليل والاستدلال من دلالات النصوص التشريعية، ومبادئ أصول الفقه، والمقررات العقلية.

ولقد حملت هذه الظاهرة العلمية القدامى على التنويه بالأصول العامة والقواعد الكلية حتى قال الشهاب القرافي :

(وهذه القواعد مهمة في الفقه عظيمة النفع، وبقدر الإحاطة بها يعظم قدر الفقيه ويشرف، ويظهر رونق الفقه ويعرف، وتتضح مناهج الفتاوي وتكشف... ومن جعل يخرج الفروع بالمناسبات الجزئية دون القواعد الكلية

20) السخاوي : المقاصد الحسنة : 191 ـ 415.

21) عبد الرازق السنهوري، مصادر الحق : 1، 6 ـ 7.

تناقضت عليه الفروع واختلفت، وزلزلت خواطره فيها واضطربت، وضاقت نفسه لذلك وقنطت»[22].

ونحن إزاء هذا التراث العظيم من الأصول والمناهج والقواعد والأحكام الذي تركه لنا الأئمة والمجتهدون في الفقه الإسلامي في مختلف المذاهب السنية المدونة وغيرها لم نبق في حاجة إلى مزيد من النظر والتحقيق في الأحكام القطعية، وفي المسائل التي انعقد عليها الإجماع، وفي القضايا الاجتهادية التي انتهي فيها إلى أحكام مقبولة وممكنة التطبيق.

وكما أن الاجتهادات الفردية لم تبق طريقا تنشرح لها النفس أو يطمئن لها القلب وخاصة في أحكام القضايا المستجدة لأن هذه تحتاج إلى مزيد درس، ومناقشة، واجتهادات جزئية تقوم على تخريج الأحكام على أصول بعض الأئمة المتقدمين أو من خلفهم من كبار الفقهاء، أو على ترجيح بعض الآراء والمذاهب بعضها على بعض، أو تحتاج إلى نظر آنف يقوم على الاستنباط والمقارنة وحمل النظير على نظيره ابتغاء جلب المنفعة ورفع الحرج على الناس، وفي هذا تتباين الأنظار وتختلف الآراء فإنه يكون من الأليق والأجدى الاعتماد في تحديد الأحكام بشأن القضايا المعاصرة **على الاجتهاد الجماعي**، لما ينبني عليه من تحقيق أهل الحل والعقد وتمحيصهم، ولما فيه من العصمة من الزلل وضمان إصابة الحق بقدر الوسع.

وليس هذا بدعا من الأمر. فالله قد مدح المؤمنين بكون **«أمرهم شورى بينهم»**.

وأخرج ابن عدي، والبيهقي في الشعب، قال السيوطي، بسند صحيح عن ابن عباس، قال لما نزلت : **﴿وشاورهم في الأمر﴾** قال رسول الله ﷺ : «أما أن الله ورسوله لغنيان عنها ولكن الله جعلها رحمة لأمتي. فمن استشار منهم لم يعدم رشدا، ومن تركها لم يعدم غيا»[23].

ولذلك كانت النازلة إذا نزلت بأمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضي الله عنه ليس عنده فيها نص عن الله ولا عن رسوله جمع لها أصحاب رسول الله ﷺ ثم جعلها شورى بينهم[24].

وقد أدرك الخاصة من العلماء ذلك، وشعرت بالحاجة إليه المؤسسات العلمية والشعوب الإسلامية، فتكونت هيآت للاجتهاد الجماعي : منها المتقيدة بالمذاهب، ومنها المتحررة منها، المعتمدة على عموم آراء الفقهاء من مختلف المذاهب.

ولما انعقد مؤتمر القمة الثالث للدول الإسلامية برحاب البيت الحرام في 19 ـ 22 ربيع الأول 1401 هـ / 25 ـ 28 يناير 1981م، أصدر قراره السامي بإيجاد «مجمع فقهي إسلامي دولي موحّد» يكون أعضاؤه من بين العلماء البارزين الذين تعينهم الدول الأعضاء في منظمة المؤتمر الإسلامي ممثلين لها في مجلسه. وقد قام هذا المجمع بفضل الله، وانضم إلى عضويته نخبة من كبار الفقهاء في هذا العصر، وممثلون لعديد من المؤسسات المجمعية الفقهية والإسلامية. وبفضل ما يمتاز به هؤلاء العلماء من نزاهة وورع، وتحقيق دقيق في المسائل الفقهية، وممارسة للقضايا المطروحة على العالم الإسلامي يوميا، وتجربة في معالجة المشاكل المستجدة، وبفضل الخبرات العالية التي يمثلها الأخصائيون في الاقتصاد والاجتماع والقانون والطب وفي غير ذلك من فروع المعرفة والعلم المتطور، والتي ظهرت آثارها المعتبرة في مشاركتهم في المؤتمرين السنويين السابقين، يمكن لهذا المجمع بأعماله العلمية واجتهاداته الجماعية أن يحقق بإذن الله للأمة الإسلامية جمعاء أهدافا ضرورية ثلاثة تخرجها من الحيرة والضبابية، وتنشلها من التبعية والتخلف، وتنقذها من الانقسام والتفرق، وتلك الأهداف هي :

22) القرافي : الفروق : 1، 2 ـ 3.

23) الشوكاني. فتح القدير : 1، 395.

24) أعلام الموقعين : 1، 70.

أولا : بيان حكم الله في القضايا المستجدة التي لا نص فيها ولا إجماع، والتي اختلفت فيها الآراء ولم يتبين الوجه السديد الذي تطمئن إليه النفوس ويمكن اعتماده بشأنها.

ثانيا : شد الأمة الإسلامية إلى شريعتها السمحة وتمكينها من حل مشاكلها عن طريق المنهج الجديد للفقه الإسلامي، والاستخدام الصحيح لقواعده، والخضوع في ذلك كله لأسرار التشريع الإسلامي ومقاصده.

ثالثا : جمع كلمة الأمة الإسلامية بالاهتمام بمشاكلها، وتدبر أحوالها، ودراسة أوضاعها، وفحص قضاياها، من أجل إيجاد الحلول المناسبة لها عن طريق الاجتهاد الجماعي في أكبر منظمة فقهية مجمعية تضم مختلف الشعوب والأقطار الإسلامية ممثلة في الفقهاء والعلماء أعضاء مجلس المجمع، وفي أصحاب الاختصاص والخبرة الذين يدعون لمشاركتهم النظر والبحث.

ولن تضيق الشريعة ولا الفقه الإسلامي عن بيان حكم الله في أي أمر يحدث وأية قضية تجدّ.

وكما درس السابقون من الأئمة، في عصور التحضر والازدهار وعند دخول شعوب كثيرة بعاداتها وتقاليدها ونظمها في الإسلام، وقائع أعصارهم وأخضعوها لكتاب الله وسنة رسوله، وروح التشريع الإسلامي فكان منهم المتشدد الذي يتبع نهج ابن عمر، والمترخص المقتدي بابن عباس، والقياسي مثل الإمام أبي حنيفة، والأثري كالإمام أحمد، والظاهري كداود بن علي بن خلف، والواقف عند الألفاظ والمباني وظواهرها لا يستنطق غيرها، والمعوّل في استنباط الأحكام على المعاني والمقاصد وطرق الدلالة المختلفة للنصوص عليها، يمكن لعلمائنا اليوم أن ينهجوا هذا المسلك ويتبعوا هذا السنن معتمدين طرق الاستنباط المرنة التي تبلغ القصد، وتحقق الأمل.

فقد مهد الصحابة والتابعون، ثم الأئمة المجتهدون السبيل لذلك، حين أخذوا بالقياس : وهو تسوية واقعة لم يدل على حكمها نص بواقعة دل على حكمها نص في الحكم الذي دل عليه النص لتشارك الواقعتين في العلة. وهذا هو اجتهاد الرأي الذي عناه معاذ من قوله : (أجتهد رأيي ولا آلو)، وهو ما دعا عمر بن الخطاب أبا موسى الأشعري إليه في قوله : (الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب الله ولا سنة النبي ﷺ. ثم اعرف الأشباه والأمثال فقس الأمور عند ذلك بنظائرها، واعمد إلى أقربها إلى الله وأشبهها بالحق)[25].

والمجتهد اليوم يسير على هدى من ربه وبينة من أمره، حيث يعتمد القياس في استنباط الأحكام، وخاصة إذا عرف أسباب ومقاصد الأحكام، وفرق بين علة الحكم وحكمته وسببه، وعرف شروط العلة وتقسيماتها من حيث المناسبة، ومن حيث المصلحة التي هي مظنة لها، ومن حيث إفضاؤها إلى المقصود الذي هي مظنة له، وأدرك مسالك العلة، وقام بتخريج المناط إذا كان النص الدال على الحكم لم يتعرض له، وبتنقيح المناط إذا كان الوصف المعتبر في الحكم مذكورا مع غيره في النص، وتحقيق المناط في الفرع الذي يراد إلحاقه بالأصل.

وفي هذا العمل استجلاء لمقاصد الشارع، وتحقيق لمصالح العباد. وهو وإن كان جهدا عقليا فهو الذي استحق من الشارع توجيه الخطاب إلى ذوي الألباب، وقد جاء في المسودة ما يؤكد اعتماد القياس في استنباط الأحكام : (فالقياس العقلي حجة يجب العمل به، ويجب النظر والاستدلال به بعد ورود الشرع ولا يجوز التقليد فيه. وقد نقل عن أحمد الاحتجاج بدلائل العقول. وبهذا قال جماعة من الفقهاء والمتكلمين من أهل الإثبات)[26].

ومثل القياس الاستحسان. وهو العدل بالمسألة عن حكم نظائرها إلى حكم آخر لوجه أقوى يقتضي العدول.

---

25) أحمد زكي صفوت جمهرة رسائل العرب : 1، 252 ـ 214.

26) آل تيمية : 356.

وله قسمان : **استحسان قياس**، ويطلق عليه القياس الخفي، **واستحسان الضرورة**.

والقسم الأول : أساسه قياس آخر هو أدق وأخفى من القياس الأول، ولكنه أقوى حجة وأصح نظرا وأسد استنتاجا من القياس الذي وقع العدول عنه في هذا الضرب من الاستحسان.

والقسم الثاني : ما خولف فيه القياس لضرورة موجبة، أو مصلحة مقتضية، أو رفعا للحرج.

وقد اعتمد الاستحسان في الصدر الأول. قال العنبري : (القياس ما قال علي، والاستحسان ما قال عمر)[27].

وقال مالك : (تسعة أعشار العلم الاستحسان)[28].

وبه معالجة غلو القياس إذا أدى هذا إلى مشكلة في المصلحة التطبيقية.

ولا يختلف عن القياس والاستحسان في الاعتبار الاستصلاح عند أكثر الأئمة في السابق واللاحق. وهو عبارة عن استنباط الحكم الفقهي في واقعة لا نص فيها ولا إجماع بناء على مصلحة لا دليل من الشارع على اعتبارها ولا على إلغائها. وهو كما قال عبد الوهاب خلاف : (أخصب الطرق التشريعية فيما لا نص فيه. وفيه المتسع لمسايرة التشريع تطورات الناس وتحقيق مصالحهم وحاجاتهم)[29].

ولاتساع دائرة المصالح المرسلة أي غير المعتبرة ولا الملغاة في نظر الشارع خيف من التباسها بما يكون من ابتغاء الشهوات أو إجابة داعي الهوى، فشرط علماء الأصول للاعتداد بها : أن تكون مصلحة حقيقية لا وهمية، وعامة لا شخصية، وأن لا يعارض التشريع لها نصا ولا إجماعا.

وجعلوا من العوامل الداعية إلى الاستصلاح : جلب المصالح، ودرء المفاسد، وسد الذرائع، وتغير الزمان.

☆ ☆ ☆

وحياة المجتمع اليوم القائمة على الأنظمة والترتيبات العامة، وعلى استحداث كثير من الأحكام والقوانين لرعاية الشؤون المختلفة في كل المجالات المدنية والقضائية وغيرها فيما لا نص فيه من الشارع، بما يحفظ المصالح، ويتحقق به سبب من الأسباب المتقدمة الداعية للاستصلاح، أمر مقبول شرعا ومأذون به، وإن جعله الناس من التدابير والإجراءات السياسية والإدارية، قال ابن القيم : (إن الله أرسل رسله، وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط وهو العدل الذي قامت به السموات والأرض، فأي طريق استخرج بها الحق، ومعرفة العدل، وجب الحكم بموجبها ومقتضاها، والطرق أسباب ووسائل لا تراد لذواتها وإنما المراد غاياتها التي هي المقاصد، ولكنه نبه بما شرعه من الطرق على أسبابها وأمثالها، ولن تجد طريقا من الطرق المثبتة للحق إلا وهي شرعة وسبيل الدلالة عليها. وهل يظن بالشريعة الكاملة خلاف ذلك ؟ ولا نقول أن السياسة العادلة مخالفة للشريعة الكاملة بل هي جزء من أجزائها، وباب من أبوابها، وتسميتها سياسة أمر اصطلاحي، وإلا فإذا كانت عدلا فهي من الشرع)[30].

ومن الطرق المعتمدة لضبط الأحكام الشرعية العرف الصحيح، وهو ما تعارفه الناس، وليست فيه مخالفة لنص، ولا تفويت مصلحة، ولا جلب مفسدة. وهو أقسام : لفظي وعملي وعام وخاص.

ولاعتباره في نظر الشارع واعتماده في الحكم اشترطوا فيه أن يكون مطردا أو غالبا، وأن يكون قائما عند إنشاء التصرفات التي يراد تحكيمه فيها، وأن لا يعارضه

---

27) المسألة المشتركة أو الحمارية. ابن قدامة. المغني : 6، 182.

28) نقل هذا القول ابن العربي عن ابن القاسم عن مالك. الشاطبي. الموافقات : 4، 209.

29) عبد الوهاب خلاف. مصادر التشريع : 85.

30) أعلام الموقعين : 4، 309 ـ 310.

تصريح بخلافه إذ لا عبرة للدلالة في مقابلة التصريح، وأن لا يكون فيه تعطيل لنص ثابت أو لأصل قطعي في الشريعة.

وقد استند إليه رسول الله ﷺ واعتمده الأصوليون حفظا للحقوق وإقامة للعدل. قال القرافي في الفرق الثامن والعشرين، المسألة الثالثة :

(وعلى هذا القانون تراعى الفتاوى على طول الأيام، فمهما تجدد في العرف اعتبره، ومهما سقط أسقطه. ولا تجمد على المسطور في الكتب طول عمرك، بل إذا جاءك رجل من غير أهل إقليمك يستفتيك لا تجره على عرف بلدك، واسأله عن عرف بلده وأجره عليه وأفته به دون عرف بلدك والمقرر في كتبك، فهذا هو الحق الواضح، والجمود على المنقولات أبدا ضلال في الدين، وجهل بمقاصد علماء المسلمين والسلف الماضين)[31].

والعرف يجري في الأحكام الاجتهادية من قياسية ومصلحية. وهي التي تتبدل بتبدله بحسب الزمان وأخلاق الناس.

وإلى جانب هذه الطرق المعتمدة لدى الأصوليين، للتوصل إلى معرفة حكم الشارع في كثير من الجزئيات والفروع والمسائل المستجدة، قواعد محكمة. منها : مراعاة الشارع الظروف الخاصة، وأحوال الضرورة، والأعذار. فالمشقة تجلب التيسير، والضرورات تبيح المحظورات، وما أبيح للضرورة يقدر بقدرها، والأخذ بالرخص عند تعذر الوفاء بالعزائم.

وأي شي أدل من هذا على اتساع الشريعة ويسرها ومرونتها ؟ وأن الشريعة لكما قال الإمام الشعراني : (إنما جاءت من حيث الأمر والنهي على مرتبتي تخفيف وتشديد لا على مرتبة واحدة. فإن جميع المكلفين لا يخرجون عن قسمين : قوي وضعيف من حيث إيمانه أو جسمه في كل عصر وزمان. فمن قوي منهم خوطب بالتشديد والأخذ العزائم، ومن ضعف منهم خوطب بالتخفيف والأخذ بالرخص. وكل منهما حينئذ على شريعة من ربه وتبيان، فلا يؤمر القوي بالنزول إلى الرخصة، ولا يكلف الضعيف بالصعود للعزيمة)[32].

وإن ما لم ينزل به كتاب أو لم ترد به سنة من الأحكام، ولم ينعقد عليه إجماع، ولم يتناوله علماء الشريعة بالبحث والدرس، والمجتهدون باستنباط الأحكام له بأحد الطرق المتقدمة من قياس أو استحسان أو استصلاح أو عرف، لهو على الإباحة الأصلية داخل في منطقة العفو التي يلمع إليها قوله تعالى : ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبدلكم تسؤكم، وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تُبْدلكم، عفا الله عنها والله غفور حليم**﴾[33]. والتي وردت الإشارة إليها فيما روي عن النبي ﷺ من قوله : «إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها، وحدد حدودا فلا تعتدوها، وحرم أشياء فلا تنتهكوها، وعفا عن أشياء رحمة بكم من غير نسيان فلا تسألوا عنها»[34].

☆ ☆ ☆

فإذا سار علماؤنا اليوم على هذا المنهج السديد الواضح في اجتهاداتهم، وتركوا التحزب الفقهي والعصبية المذهبية، وأخذوا بالفقه الإسلامي عامة معتبرين لقواعده ونظرياته، ونتائج الجهود الاجتهادية فيه مع التفتح على الواقع وأحوال الحياة المعاصرة، أخرجوا المجتمعات الإسلامية من حيرتها، وأبانوا لها سبيل ربها، ووجهوا الإنسانية كلها إلى ما به يكون علاج أدوائها، وتدارك أوضاعها، واستقامة أمرها.

---

31) الفروق : 1، 176 ـ 177.
32) الميزان الكبرى : 1، 3.
33) المائدة : 101.
34) رواه الدارقطني : 4، 115، الطبري، التفسير : 11، 114.

وإن الأمر ليتطلب من الفقهاء الجلة، ومن أهل الحل والعقد في المجمع، من أعضاء وخبراء، ومن كل ذوي الكفاءات العلمية في الشريعة الإسلامية : من مفسرين ومحدثين وفقهاء وأصوليين، أن يجعلوا نصب أعينهم لتحقيق الأهداف التي أومأنا إليها أعلاه، بجانب إصدارهم الفتاوى المتنوعة، وعنايتهم بالتراث الفقهي، ودراساتهم الجامعية المختلفة، ومشاركاتهم في الموسوعات الفقهية، وحرصهم على وضع معاجم المصطلحات، وفهارس الأصول الفقهية والأمهات، القيام بجهود أخرى، هي وإن اقتضت تكليف بعض الأخصائيين وتفريغهم لها، لكنها تعيننا على تحقيق خدمات جليلة للفقه وللمجتمع الإسلامي في حاضره وغده. ومن أهم هذه الخدمات والأعمال العلمية المرتقبة التي تنير السبيل للمجتهدين وتساعدهم على تقديم آثار جهودهم المعتبرة للعالم الإسلامي :

1 ـ **تدوين الفقه الإسلامي تدوينا جديدا يعين** على فهمه والاستفادة منه عامة، ويساعد على تطبيق الشريعة.

2 ـ **جمع ما صدر عن العلماء المعتمدين في كل بلد من فتاوى وآراء في القضايا المعاصرة لدرسها والمقارنة بينها والاستفادة منها**، واعتبارها مادة أساسية لبحث تلك القضايا بحثا جديدا مجمعيا، واستخدام الأحكام التي تشير إليها في تقدير النظر الاجتهادي الجماعي، لإصدار القرارات المناسبة في القضايا المطروحة.

3 ـ **وضع تنظيمات وتراتيب وطرق إجرائية وفق أحكام الشرع الإسلامي** لمتطلبات العصر الراهن ومقتضيات الزمن المعاصر مثل المؤسسات الجديدة والشركات المستحدثة وما يجري بها من التصرفات والأعمال.

4 ـ **جمع الأحكام الاجتهادية التي لم تعد تخضع للعرف، ولا تستجيب** للمصلحة بحسب هذا الزمان، ووضع دراسات حول الأعراف الجديدة والمصالح المتغيرة لإجراء الأحكام بحسبها رفعا للحرج عن الناس، وحفظا لمقاصد الشريعة.

5 ـ **دراسة الأحكام الاجتهادية في المذاهب المختلفة لتخير ما يفي منها** بمراعاة أكمل للمصالح، ومواجهة أتم للحوادث المتجددة، والتحديات المعاصرة.

6 ـ **جمع الجهود المبذولة لمحاولات التقنين للشريعة الإسلامية**، وإعداد مشروع شامل لما جاء في القوانين الصادرة في هذا الشأن حتى اليوم، قصد التنسيق بين تلك الجهود، والتعديل لبنود القوانين وصيغها، والتوصل إلى وضع قانون جامع موحد للأمة الإسلامية تكون نظرياته وقواعده وأحكامه ونصوصه مستمدة من روح التشريع الإسلامي، مستخدمة للفقه الإسلامي بوجه عام.

☆ ☆ ☆

تلك هي النظرة الثابتة العلمية للاجتهاد كما نتصوره، وتلك هي الأبعاد والآفاق المستقبلية التي ترتبط، من جهة بالمجتهد وبدوره في الحياة المعاصرة، وما نراه من الاجتهاد الجماعي المجمعي الذي لا نستبدل به بأي وجه من الوجوه الاجتهادات الفردية اليوم مهما كان مصدرها، كما ترتبط من جهة أخرى بالاجتهاد وطرق الاستنباط المتعددة والمتنوعة القادرة على استيعاب كل قضايا العصر.

وهذه هي الجهود والأعمال التي نروم تحقيقها، والوصول إليها لبناء غدنا الأفضل الوضاء، ونشر أسباب الخير والكرامة والعزة في مجتمعاتنا الإسلامية وفيما حولها.

وما مستقبل الاجتهاد الفقهي لأمتنا الا مرآة تنعكس عليها أولا جوانب الثبات والدوام المعلنة عن أصالتنا، وصحة مبادئنا، وعمق فلسفتنا التشريعية، وثانيا جوانب التطور والتقدم المترجمة عن سعة دستورنا الإسلامي ومرونة قواعده العامة وأصوله الكلية.

والله الكريم ذا الطول نسأل أن يوفق مساعينا، ويسدد خطانا، ويهدينا سبلنا، وينجز لنا ما وعد به عباده المؤمنين الصادقين من الاستخلاف في الأرض، والتمكين للدين، والعزة والنصر. إنه سميع مجيب.

العلاقات بين المسلمين والمسيحيين بأوربا

للدكتور يان سلومب JAN SLOMP

ترجمه عن الانجليزية : الاستاذ محمد الصائغ ..
اختيار وتقديم : الدكتور عبد المجيد احجاب
مدير المركز الإسلامي والثقافي بأمستردام.

الباحث :

الأستاذ دكتور (يان سلومپ JAN SLOMP) مستشرق هولندي بارز على الساحة العلمية الاستشراقية، وأستاذ بالجامعة الحرة بأمستردام V.U Universteit سبق له أن رأس مجلس الكنائس المسيحية الهولندية، وقضى ما يقرب من عقد من السنين بالباكستان، وحوالي ربع قرن في اهتمامه بمواضيع العلاقات والتقارب بين المسلمين والمسيحيين.

للأستاذ دكتور يان سلومپ بحوث عديدة عن الإسلام، ومن الطريف أنه كتب بحثاً مقارناً عن الأعياد في المسيحية والإسلام، نقل من الهولندية إلى العربية.

دكتور يان سلومپ يجيد الإنجليزية ويتكلم الفرنسية بمستوى مقبول.

البحث موضوع الاختيار والتقديم : المضمون وأبعاده.

هذا البحث المعنون بـ«العلاقات بين المسلمين والمسيحيين في أورباه والمنقول عن الإنجليزية، كان موضوع الكلمة التي تقدم بها الصديق الأستاذ دكتور يان سلومپ إلى مؤتمر 3 يناير 1985 العالمي بمدينة أوتريخت بهولندا في إطار الدعوة الإسلامية والذي حضره مسلمون أوروبيون.

وقد قرئ البحث على مسامع المؤتمرين والحاضرين من طرف الأستاذ دكتور يان سلومپ نفسه.

وتقديراً لأهمية الموضوع الذي أشيد به مباشرة بعد إلقائه، وقدمت له في ذات الحين ترجمة تلخيصية بالعربية، طلبت صورة منه إلى الأستاذ دكتور يان سلومپ، وصلتني بالبريد مع كلمة الاعتذار عن تأخر استلام البحث الذي أعاده إلى البريد لخطإ معين، نتج عن عدم ضبط في العنوان.

موضوع البحث الذي أقدم له موضوع تميز بحساسية مستمرة على الخط التاريخي للعلاقات الثنائية الإسلامية المسيحية التي مرت بمراحل متقلبة بين المدّ والجزر، ولقد كـان للحروب الصليبيـة على الشرق العربي والتي دامت قرنين من الزمن ـ وطأ أخف منه على الغرب الإسلامي حيث أغلقت باب العلاقات الإسلامية المسيحية مبكراً على صعيد أروبا بمعركة تور بواتييه (Tours Poitiers) بفرنسا سنة 732م والمعروفة عند العرب بمعركة «بلاط الشهداء»[1] إن توقف الفتح الإسلامي في معركة بلاط الشهداء باستشهاد البطل الكبير عبد الرحمن الغافقي، كان عبارة عن إشارة

1) يذكر المؤرخون أنه لا زالت تسمع في عين مكان معركة بلاط الشهداء وإلى حد الآن صدى الأصوات فسروها بأصوات الملائكة وهي صلاتها على أرواح الشهداء.

الضوء الأحمر بتوقف العلاقات موضوع البحث ولقد كرس هذا التوقف بخروج المسلمين من اسبانيا الإسلامية سنة 1492م، وذابت هذه العلاقات على أرض أروبا ولوقت طويل، بعد إخراج من تبقى من المسلمين الذين أطلق عليهم الإسبان اسم الموركسيين (Los Morescos).

ونحن نأسف عميقاً ونتأسى بالغاً حينما نقرأ صورا من تلك المأساة في قصيدة أبي البقاء الرندي الرائعة التي يقول في مطلعها :

لكـــل شيء إذا مــــا تم نقصـــان
فـــلا يغر بطيب العيش إنســـان
هي الأمـور كمـا شـاهـدتهـا دول
من سره زمن ســاءتـــه أزمـــان

أو في قصيدة الشاعر الأندلسي عبد الله بن فرج اليحصبي المشهور بابن العسال الذي يصور لنا عقلية انهزامية مغلوبة بقوله :

يـــا أهـل أنـــدلس حثـوا مطيتكم
فمـــا المقـــام بهـــا إلا من الغلـــط
الثـــوب ينســـل من أطرافــــه وأرى
ثـوب الجـزيرة منسـولاً من الـوسـط
ونحن بين عـــدو لا يفـــارقنـــا
كيف الحيـاة مـع الحيـات في سفـط

ونحن لا نريد أن يتكرر هذا الانهيار المأسوي نتيجة سوء فهم للعلاقات لقد أدرك بعض رجال الدين المسيحيين الكبار من ذوي العقول النيرة والرؤية الحكيمة مدى الأثر السلبي والبعيد للحروب الصليبية على العلاقات المسيحية الإسلامية، فنادى القديس سان فرانسوا (Saint François) من مدينة Assise بإيطاليا مثلا إلى السلم وإيقاف الحروب الصليبية على المشرق العربي، ولم يمنعه طول المسافة أو مشاق السفر من التوجه بنفسه سنة 1219م إلى السلطان مالك الكامل (الابن الأصغر لصلاح الدين) ليعرض عليه دعوته للسلم ومشروعه لتحسين العلاقات الإسلامية المسيحية.

وإذا صحت عبارة «التاريخ يعيد نفسه» الخلدونية، غضا للطرف عما فيها من جدل، فإن البابا جان بول الثاني، كمسؤول أعلى في الكنيسة المسيحية الكاثوليكية، وكرجل يآزر السلم ويدعو إليه، ويؤيد جاهدا سبل تحسين العلاقـــات بين المسلمين والمسيحيين أراد أن يبعث من جديد سنة سلفه Saint François بالدعوة إلى السلم وإقامة صلاة من أجله في نفس المدينة التي انطلق منها الداعي سان فرانسوا بغرض تحقيق نفس الغاية.

وتختلف دعوة القديس سان فرانسوا عن خلفه جان بول الثاني في أن بابا روما الحالي وسع نطاق دعوته إلى أكثر من طرفين، وأنه وجه دعوته إلى ممثلي غير الديانات السماوية الثلاثة الكبرى أيضاً.

ولقد تم بالفعل أداء صلاة السلم المنادى بها في مدينة Assise الإيطالية يوم الجمعة 27 اكتوبر 1986، حضرها أكثر من مائة وخمسين فردا (بما فيهم النساء) مثلوا اثنا عشر ديانة.

إن كنيسة روما كانت سديدة في تصريحها الرسمي الصادر عن المجلس العالمي الثاني للفاتيكان سنة 1963 حيث أوردت فيه ما تعريبه «إن الكنيسة تنظر إلى المسلمين نظرة احترام وإجلال».

وأضاف التصريح الطويل نسبياً موضحاً «ورغم الأعمال العدائية والنزاعات التي نشأت عبر القرون بين المسيحيين والمسلمين، فإن هذا المجمع الديني الموقر يلزمنا بإلحاح أن ننسى الماضي، ونجتهد بإخلاص قصد الوصول إلى تفاهم مشترك، وذلك لمصلحة البشرية جمعاء، كي تكون قضيتهم العليا هي المحافظة على الأمن وإنشاء العدالة الاجتماعية والقيم الخلقية والسلم والحرية»[2].

وقد دعم هذا التصريح في الملتقى الثالث للمجلس الإيكوميني الأروبي بمدينة Riva Del Garda بإيطاليا اكتوبر 1984 ومما ورد فيه :

2) أكبر مجموعة من المسلمين، كانت بعثة المغرب، والصوم المنادى به التزم به بعض الحاضرين جزئيا انظر في ذلك Jeune Afrique N° 1348 du 5 Nov 1986 P.22.

«إن الكنائس الأروبية تولي للإسلام اهتماماً بالغاً، والدليل على ذلك كثرة المراكز والأمانات العامة واللجان [الخاصة بالشؤون الإسلامية] المقامة من طرف الكنائس المختلفة».

إن اتجاه الكنيسة الكاثوليكية حالياً، يختلف عن نهجها السابق في حدود المائتي سنة الماضية حيث اسودت صفحة العلاقات الإسلامية المسيحية لسببين هامين :

أ ـ السلوك السلبي للكنيسة أو اتخاذها مواقف معينة.

ب ـ ظهور تكتلات مغرضة مناوئة للإسلام والمسلمين، تمثلت في مؤتمرات عالمية،[3] مهدت بتخطيطاتها المبيتة، والمتقنة المكر إلى تدمير المسلم ومحو هويته، وعلى سبيل الإشارة فقط «ففي الفترة ما بين 1873 حتى 1964 تم عقد 26 مؤتمرا دولياً، ضم الواحد منها مآت المستشرقين وتلاميذتهم من الغرب بالإضافة إلى بعض الشرقيين، وكان المؤتمرون يتخذون العديد من القرارات والتوصيات»[4] لم تكن لتخدم إطلاقاً تحسين خط العلاقات المسيحية الإسلامية، وإنما لخلق فرص جديدة لتسويد وتشويه العلاقة والسيطرة على العالم الإسلامي، انتهت بالتسلط والاستبداد الاستعماريين على العالم الإسلامي. إن اتخاذ قرارات وتوصيات خطيرة النتائج والآثار على المسلمين والعمل على تنفيذها كانت هدف هذه المؤتمرات العالمية، ولقد كانت المقالات العديدة تنشر في الصحف والمجلات، أسبوعية، أو شهرية، أو سنوية كانت أما الكتب المتضمنة لعبارات الحقد الدفين (والسب المشين) على المسلمين، والمكرسة لفكرة توهين الروابط والعلاقات، وتفتيت وحدة الشعوب الإسلامية، فكانت مادة نفيسة في سوق الكتب الأروبية، ومكتبات أروبا خاصة، والعالم الغربي عامة.

ويرد الأستاذ الدكتور عبد العليم عبد الرحمن حضر[5] ـ بحق ـ أصول هذه النزعات العدائية إلى الفكرين التبشيري والاستشراقي الحاقدين، وإلى قوتهما الدافعة والخفية : دهاء ومكر المخططات الصهيونية[6]

﴿ويمكرون، ويمكر الله، والله خير الماكرين﴾.

للخلاصة، وفي تصرف، يمكن إجمال أهداف المؤتمرات العالمية المناهضة للإسلام كأسباب لتدهور العلاقات الإسلامية المسيحية ـ حسب الأستاذ الدكتور خضر ـ فيما يلي :

1 ـ طلب المؤتمرين من حكوماتهم زيادة الإشراف والمراقبة على ارتقاء الإسلام، حتى لا يتهدد نمو مستعمرات الدول العظمى.

2 ـ نداء المؤتمرين وإشارتهم على مسؤولي المستعمرات بتقليص نطاق الإسلام وتخصيب ميدان التبشير بالنصرانية.

3 ـ الدعوة إلى المسيحية العالمية بالاهتمام وباتخاذ التدابير السريعة في المناطق التي لم يصل إليها الإسلام بعد.

---

3) من بين تلك المؤتمرات العالمية مؤتمر القاهرة 1906م ـ مؤتمر أدنبرة 1910م وهو أخطرها مؤتمر لكنو 1911م ـ مؤتمرا القدس الأول والثاني 1924، و1935 ـ مؤتمرا بلتيمور بالولايات المتحدة الأمريكية 1942 و1961 ـ كما عقد مؤتمر عالمي للكنائس في جاكارتا بأندونيسيا سنة 1975 حضره 3000 مبشر بنوايا خطيرة على المسلمين.

انظر في ذلك دكتور عبد العليم عبد الرحمن خضر ـ الشرق الأوسط عدد 2902 تاريخ 86/11/8.

4) نفس الصحيفة السابقة.

5) انظر صحيفة الشرق الأوسط العدد 2402 ـ المرجع السابق.

6) للإشارة فقط، فالصهيونية ليست هي اليهودية، وهي أساساً حركة سياسية ذو نزعة عدوانية لكل ما هو مسلم وعربي.

من النماذج الآتية لتلك المساعدات المالية والعينية التي تقدمها الدول الأروبية للدول والمناطق التي أصابها الجفاف في إفريقيا ـ خبرني أخ لي ممن يعملون في مجال العمل الإسلامي أن الأروبيين يهدون اللقاءات الإسلامية المسيحية المسجلة على أشرطة الفيديو كوسيلة للتبشير بالنصرانية أمام هؤلاء المنكوبين بمحاولة إقناعهم أن المسيحية كالإسلام، وأن المسلمين يجتمعون في مجالس المسيحيين.

4 ـ تشويه الإسلام والثقافة الإسلامية، والتشكيك في الأديان بصفة عامة.

5 ـ إفساد الخصائص القومية في العالمين الإسلامي والعربي.

6 ـ إيجاد تخاذل روحي وشعور بالنقص مما يؤدي إلى الخضوع للمدنية الغربية.

7 ـ توسيع شقة الخلاف بين الأديان والمذاهب والطوائف، وإثارة النزاع، وتأجيج بواعث الخلاف باستمرار.

إن موضوع العلاقات الإسلامية المسيحية في أوروبا احتل مكان الصدارة في مجال البحوث ذات الصلة باللقاءات الإسلامية المسيحية التي تطورت في شق إيجابي بشكل حثيث بعد الحرب العالمية الثانية.

والواقع، أن بروز ما يطلق عليه الجيل الأول من المسلمين بأروبا كعامل في الساحة المهجرية، خلق نموذجاً جديداً للعلاقات الإسلامية المسيحية، وحوّل مفهوم النظرة الشبه التقليدية» للعلاقات الثنائية بين المسلمين والمسيحيين، وحورها في صياغة جديدة، تتلاءم مع ظروف ووضع جيل آخر هو أبناء المهاجرين الذين نبتوا في الساحة المهجرية وأطلق عليهم «الجيل الثاني».

الصياغة الجديدة للعلاقات الإسلامية المسيحية أو الحوار الإسلامي المسيحي الجديد :

إن تطور العلاقة بين المسلمين والمسيحيين على أرض أروبا بدا يرسم طريقه في اتجاه جديد، تكونت ركيزته من جيل الأبناء، أولائك الذين ولدوا على أرض غير أرضهم، وتربوا في بيئة غير بيئتهم، وتعلموا لغة غير لغة آبائهم، وتعرفوا على أفكار جد متقدمة على خلاف أصولهم، وعايشوا حرية دينية، لم يعهدها المسلم بتاتاً في أي دولة عربية أو إسلامية، وذلك أشد ما يهدد ابن المهاجر من أخطار في حياته المستقبلية.

فتهديد العقيدة، مجاله خصب في المدرسة والشارع الأوروبيين، فالهولندي العادي مثلاً يتقبل عفوياً وبترحاب عبارة (God bestaot niet) «الله سبحانه وتعالى عن ذلك ـ غير موجود» ولكنه يكشر الوجه أو يحدق العين كلما سمع كلمة إيمان أو دعوة له. وقد تجاوزت أوربا مرحلة العلمانية، لتصل إلى مرحلة الإلحاد وتقبلها ودول أوربا الغربية عامة على نفس الخط. وبحكم معايشتي للأوساط الأروبية في عدد من الدول، وتجربتي المتواضعة في حقل العمل الإسلامي سواء عن طريق المحاضرات التوجيهية التي أفهم بها، أو عن طريق المؤتمرات الإسلامية العالمية التي شاركت فيها أو أسهمت فيها بالرأي والحوار والطروح المناسبة للمقام، أحب أن أنقل إلى كل قارئ مسلم اتفاق رجال الفكر والرأي على أن أبناء المسلمين في أروبا خاصة، والغرب عامة يواجهون جسيم الأخطار في دينهم وعقيدتهم وشخصيتهم.

ونحن المسلمين قاطبة إذا لم نتحرك في اتجاهات معينة، ومناهج تربوية، واختيارات إسلامية وسطية ميسرة سهلة، بعيدة عن التطرف والمغالاة والانحراف والشذوذ الذي لايخفى على أحدنا سوء عواقبه وضار نتائجه، سوف لن نخسر عملة صعبة واحدة فقط ولكننا سوف نخسر في آن واحد ثلاث عملات نادرة وصعبة :»

ـ عملة نتعامل بها مع الله سبحانه وتعالى وهي رضاه عز وجل.

ـ عملة مادية.

ـ عملة بشرية.

وللتذكير بدق ناقوس الخطر، فإني كباحث أرى استفحال الداء في حدود العشر سنوات المقبلة، وضياع الجيل الثاني نهائياً في مدة أقصاها عشرون سنة إن لم نتدارك المواقف بالعلاج اللازم.

إني كنت دائماً في الخط المعتدل، أمقت الاتجاهات الفوضوية وأدعو إلى الوسطية والحكمة والتعقل، وأرفض جزما استعمال الأساليب القسرية البعيدة عن الحوار والمناقشة.

﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾.

﴿ادفع بالتي أهي أحسن، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾.

صدق الله العظيم

«إن هذا الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فأوغل فيه برفق، إن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى».

«حديث شريف»

فالتطرف في الدين، خطر كبير على الإنسان وعلى أسرته وعلى مجتمعه.

ونحن حينما نتذكر ذلك العابد المفرط في العبادة، الناسي لحقوق نفسه عليه (ولأسرته، إن كانت له أسرة، ولمجتمعه دوماً).

لا ننسى تلك القولة الرائعة الحكيمة من جوامع كلمه عليه السلام.

«والله إن أخاه لأعبد منه» بعدما توضح له عليه الصلاة والسلام أنه لم يكن منتجاً اقتصادياً، وأنه كان عالة على أخيه الذي يدبر أمره مالياً.

لا أريد أن أبتعد كثيراً عن الجوهر لأعود قائلاً إن موضوع الجيل الثاني من أبناء المهاجرين، هو موضوع الساعة والمستقبل. فهم الذين سوف يحددون اتجاه العلاقة الإسلامية المسيحية للاحق الوقت على أرض أوروبا سواء في منحاها الإيجابي أو السلبي. وهم الذين سيلعبون دوراً طلائعياً فريداً لصالح أوطانهم وللأمة الإسلامية جمعاء، كلما أحسن وأتقن استغلال تربيتهم وتوجيهم،[7] وإلا وضع في الحسبان تلك الصورة الغريبة التي جسدها الألمان المتجنسون بالجنسية الأمريكية من الذين ضربوا ألمانيا بالقنابل خلال الحرب العالمية الثانية.

- إني أعتقد أنه ليس هناك من توجيه غير التيار الإسلامي المعتدل الميسر، المتعقل، المتفهم، الواعي، المنطلق من الساحة ذاتها، بذات اللغة التي يتكلمها ابن المهاجر المسلم، سواء في اسبانيا أو فرنسا أو ألمانيا أو بلجيكا أو انجلترا.

فالبعثات التعليمية إلى هذه الدول تنقص أغلبها الأخلاق والروح الدينية، مما يتسبب في مشاكل جديدة، تجد مصدرها في سلوك المربي ذاته. فهناك مثلاً من عناصر الإرساليات التعليمية من يشوه مفهوم رمضان عملياً أمام الابن البرئ، أو مدلول الولاء للوطن العربي، أو الأمة الإسلامية، بكلمة نابية يعتقد معها أنه بدأ يتحضر لأنه يعيش في أرض متحضرة.

إن الحضارة والتقدم شيء آخر، وعلينا استجلاء مضمون هذه الكلمة المأثورة حتى نصل إلى مدلول نبي لمفهوم الحضارة تقول الكلمة المأثورة :

«خذوا عن عقول اليونان وأيادي الصين ولسان العرب»..

«فالواقع أن الحضارة ليست هي القشور، وإنما هي الولاء للوطن والأمة، والإسهام في تقدمها بالنفس والنفيس، ومختلف الوسائل المكننة».

إن الإسهام الحقيقي والعملي في تحضر أوطاننا وأمتنا الإسلامية، يجب أن يقوم على التضحية والإخلاص. وكعلاج لمشكل ابن المهاجر، أرى أن يختار العنصر الأصلح خلقياً ودينياً في البعثة قبل أن ينظر إلى إحرازه على درجة علمية معينة. ويرحم الله الزعيم سعيد زغلول القائل :

لسنا محتاجين إلى كثير من العلم، ولكننا محتاجون إلى كثير من الأخلاق.

إننا في الحقيقة محتاجون الآن إلى العلم والأخلاق سوياً، ولكن أثبت التاريخ أن الانهيار الخلقي يجر وراءه ويلات لاحصر لها.

وهنا أستمح بإبداء رأي - سواء إلى المنتقد أو المعتقد - يتلخص في قصور إثمار الإرساليات التعلمية لسببين أساسيين.

1 - قلة عدد أفراد البعثات التعليمية وعدم ضبط انتقاء الصالح منها خلقاً وولاءً لدينه ووطنه وأمته الإسلامية.

---

[7] لقد سبق لي أن وجهت في أمستردام - في إطار بحثي عن التواجد الإسلامي الإسلامي بدول أوروبا الغربية - نداء إلى سفراء الدول العربية والإسلامية المعتمدين في هولندا، دعوتهم فيه إلى أن يعملوا للعمل على ربط الجيل الثاني بوطنه وأمته الإسلامية عن طريق المعهد الإسلامي بأمستردام باعتباره الحل الوحيد 6 الفاعلية الأكيدة في هذا المضمار.

2 - تفرقها في مؤسسات تعليمية متباينة المكان والاتجاه (البعد - مدارس عمومية تعتمد النظرة العلمانية - مدارس مسيحية) والبديل المقترح، أن يؤسس معهد أو مدرسة في كل عاصمة بدولة أروبية تابعة لدولة إسلامية معينة (أو تساهم فيها عدة دول عربية وإسلامية) تقوم على أساس ذي سند قانوني، وتتبع منهاجاً إسلامياً على الأقل بنسبة خمسين في المائة من موادها. على أن الأهم في هذا الطرح أن تختار العناصر الجيدة ذات النزعة الدينية والمحبة لوطنها ولدينها لاستكمال دراسة إسلامية محضة في ذات المؤسسة او في إحدى الدول العربية أو الإسلامية، للقيام بدور الدعوة داخل الأوساط المهجرية وباللغة التي يتكلمها أبناء هذه الجالية..

وهنا سوف نلمس أكيدا أثر هذا النموذج الذي سوف يغطي جانب النقص بالنسبة للذين لم يتمكنوا من دراسة المواد الإسلامية في المدن الأخرى.

وهذا الطرح ليس جديداً أو غريباً، فهو الأسلوب الذي تتبعه الدول الأروبية بإقامتها في الدول العربية أو الإسلامية ما يسمى بـ«Les Centres Cultirels» لصالح تربية أبنائها.

إن تأسيس مثل هذه المدارس والمعاهد المنادى بها، هي البديل الفعال. وهي العلاج الوحيد لما هو متراكم في الساحة من أمراض.

فلو وجد هذا النداء سبيلاً للاستجابة والتنفيذ لحققنا أهمية قصوى في ربط المسلم بوطنه أيما ارتباط فهو العنصر الذي سيوجه العلاقات المسيحية الإسلامية مستقبلا بأروبا (وأمريكا) لصالح المسلمين عامة، ولتحسنها بشكل أوسع.

بقي القول إلى أنه في حالة وجود صعوبات مادية لتنفيذ الاقتراح، خاصة مع المتاعب الاقتصادية العالمية حالياً، فإنه يمكن جمع أفراد الإرسالية المتواجهة بدولة ما، في عاصمتها، والبدء بالعمل توآ. على أن أي دولة أروبية لن تباطئ في منح مبنى مؤسسة لهذا الغرض، لو طلبت منها رسمياً وعن الطريق الدبلوماسي أو الوزاري، للاستعدادات التي لمسناها لدى بعض المؤولين الأروبيين، إضافة إلى أن القوانين الأُروبية كلها تفرض التعليم الإجباري إلى سن معين، وتعطي للأقليات العرقية حقها في دراسة لغتها وحضارتها الأصلية.

أكيد أن موضوع العلاقات الإسلامية المسيحية أصبح ذا أهمية قصوى، ويفرض نفسه على الساحة المهجرية بدرجة عالية، والأمل الكبير أن نعمل باستمرار على إثمار الخط التقليدي للحوار الإسلامي المسيحي لصالح الطرفين بتقليص شقه الخلاف لا إلى اختلاف، وتلمس أوجه التأويلات المقبولة من الجانبين، وان نتوجه كذلك إلى إتقان الدور التربوي المنادى به لصالح أبنائنا من الجيل الثاني، في مهجرهم بأروبا، إني أعتقد يقيناً بأن أبناء المهاجرين يشكلون محور العلاقات الإسلامية المسيحية المستقبلية، وأنهم هم الذين سوف يعكسون الصورة المثلى لهذه العلاقة كلما أتقن الدور التربوي، موضوع الطرح.

إن المسلمين يقول «يان سلومپ»، يكونون جزءاً لايتجزأ من التاريخ الأوربي إنهم ينتسبون لحاضره ويقررون مستقبله، إن هذا الوجود الإسلامي - عبر القرون - يضيف المستشرق يان سلومپ - إذ يشكل في حد ذاته موضوعاً للتفكير والاهتمام سواء داخل الكنيسة أو داخل المجتمعات التي تواجد فيها، فإنه أصبح حقيقة إنسانية لا للشرق فحسب، ولكن أيضاً، ومنذ عقود مضت لدول غرب أروبا.

صور وشذرات من الاستشراق بهولندا :

تعتبر جامعة ليدن بهولندا أول جامعة وأعرقها في أروبا.

ويعتبر عمل فان سينك ومجموعته في موسوعة «المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي الكريم» من أحسن وأفضل الأعمال الاستشراقية عالمياً في إطار الاشتغال بالحديث النبوي الشريف وهذا المشروع الضخم تبنته الحكومة الهولندية بالطبع بعد أن توضح إفلاس مشروع الطبع. وعمل بقي قرناً من الزمن يطبع ليس بالأمر الهين.

والمشهور عن بعض كبار المستشرقين أنهم من ألد خصوم الإسلام ففان سينك الذي ألف بمفرده أيضاً مفتاح

كنوز السنة كفهرست لمواضيع الحديث في الكتب الصحاح، يعتبر من ألد أعداء الإسلام.

ودوزي الشهير في أبحاثه الأدبية وخاصة الأندلسيات منها لا يقل أهمية عن أخيه «فان سنك» في عدائه للإسلام والمسلمين.

وإذا كان الأستاذ دكتور مولد الرئيس الحالي لمجمع الكنائس المسيحية الهولندية ورئيس الفرع الهولندي للجماعة الثانية وأستاذ علم الديانات المقارن بجامعة أمستردام قد صرح بأنه لا يعتقد أن تكرر الكنيسة المسيحية أساليبها التي كانت متبعة في القرون الوسطى بتشويه صورة الإسلام والمسلمين، فإن هذا التصريح يجب أن يعالج بحذر.

أما الأستاذ دكتور «يان سلومب» المقدم لبحثه، فقد سخر ربع قرن من حياته للتقارب والحوار الإسلامي المسيحي، رغم ما يؤخذ عليه من أخطاء لا ترقى به إلى درجة الاتهام الصريح. فرغم الاطلاع على بعضها، فإني أطرح الأمر للنقاش نخرج معه بنتائج حاسمة في الموضوع.

والجدير إثارته في هذا الصدد أن الباحث الأخ الأستاذ فاروق ابراهيم، وصف الأستاذ الدكتور يان سلومب «بالكاتب المنافق» في بحث شيق له بصحيفة أخبار هولندا عدد شتنبر 1986 وقد طلب منه دكتور يان سلومب إيقاف متابعة النشر لإعطاء شروح في الموضوع. وعلى ما أعتقد - إن لم تخني الذاكرة وأنا في حالة سفر، وبعيد عن المرجع - فقد استجاب الأخ الأستاذ فاروق ابراهيم للطلب، وعبر عنه تحريراً عن طريق الصحافة المكتوبة.

وسوف ألاحق المستجدات عند عودتي لهولندا بحول الله.

وأعتقد أنه من جميل الصور أن أختم هذه الشذرات بما أشرت إليه في بحثي عن التواجد الإسلامي بدول أوروبا الغربية - أوساط المهاجرين المسلمين بين المشاكل المستعصية والحلول المقترحة - نموذج هولندا، من أن الوزير الأول الهولندي السيد رود لوبرز صرح في إطار تحسين العلاقات بين المسلمين والمسيحيين بأنه يعتقد في تقارب الديانتين السماويتين : المسيحية والإسلام وأنه سوف يخطب بالعربية تمهيداً لاستقطاب المسلمين إلى جانبه في الانتخابات البرلمانية لسنة 1986.

خطة للبحوث العلمية المستقبلية

كإسهام عملي في تنفيذ الحلول المقترحة وتحسين للعلاقات المستقبلية لم يدر بخلدي أن أنشر ترجمة هذا البحث والتقديم له بواسطة إحدى صحفنا الوطنية قبل نشره بهولندا حيث استقر وبدأت نشر بحوث علمية موثقة في إطار الاهتمام بالعلاقات الإسلامية المسيحية وبأوضاع الجاليات الإسلامية المتواجدة على صعيد أوربا الغربية إسهاماً مني في اقتراح الحلول الممكنة، والبدائل المشار بتطبيقها، خاصة مع تجربتي ومشاركتي في العمل الإسلامي على صعيد مؤتمرات دولية أو عن طريق الخبرة المكتسبة من نتائج أعمال الندوات واللقاءات، الإسلامية العامة، ثم عن طريق الاحتكاك اليومي بالبيئة المهجرية الإسلامية ومعرفتي بعناءتها اليومية، مما دفعني إلى أن أدخل الميدان الإصلاحي والتوجيهي عملياً بالمحاضرات العامة والدروس الخاصة.

وباعتباري مغربياً، أحسست بواجب البدء بالعملية الإصلاحية تجاه المغاربة وأبنائهم، مركزاً على توعيتهم بقضايا السلوك والمعاملات. فالدين سلوك ومعاملة بعد رسوخ العقيدة.

وارتأيت في المرحلة الثانية إصدار بحوث تهدف إلى غايات جوهرية تتمثل في ربط ابن المهاجر بوطنه وأمته الإسلامية وحضارتها دفعاً للتنكر للدين والولاء للوطن، واتقاء لخطر التغريب والإلحاد المهدد لهم في اليقينيات الدينية.

لقد وقع بحثي عن التواجد الإسلامي بدول أوروبا الغربية موقعاً طيباً في قلوب إخواني وأساتذتي الذين قرأوه، وأدركوا مراميه بعمق، وأسقوا لأخطار الليالي الحبالى المقبلة، وقد ألح عليّ بعض أساتذتي الجامعيين بمزيد من الإنتاج حول الوضع المهجري للمسلمين في أوروبا.

وأمام اقتراح إخواني وأساتذتي،
وباعتبار تشجيعهم الأدبي الفعال، أعرب في حبور مسترسل عن متابعة الإنتاج رغم عدم تطابق تخصصي مع المادة المرغوب في نشرها، طالباً منهم أن يقفوا إلى جانبي عند احتياجي لهم بالإرشاد والتوجيه.

إن المواضيع التي قررت أن أنشرها، لصيقة بالوضعية المهجرية وهي عبارة عن دراسة ميدانية تهدف إلى نتائج إصلاحية.

إن البحوث المستقبلية التي هيأت لها نسبة عالية من المادة العلمية هي الثلاثة التالية :

الانهيار المأسوي للوجود العربي بأروبا هل يعيد التاريخ نفسه ؟

1) المذهبية ومدى تلاؤمها مع الأوساط المهجرية الإسلامية في أروبا.

2) الأسرة الإسلامية وعناءاتها في أروبا.

3) رؤية حتمية للتجديد في أروبا.

وآمل أن الحق هذه البحوث ببحثين عن :

(1) المفهوم العبثي للحرية في فكر الجيل الثاني بالأوساط المهجرية الإسلامية بأروبا.

(2) دبلوماسية محمد ﷺ ومنظار الحوار الإسلامي المسيحي.

وكمتخصص في القانون، أردت أن أضيف إلى مكتبتنا القانونية، بحوثاً قيمة سوف تنقل عن الإنجليزية وأقدم لها.

ومثل هذه الأبحاث انتقيتها بنفسي من هولاندا وأنجلترا، وحسب ما في علمي ترجمتها لا توجد في أية مكتبة حقوقية عربية.

ولقد أشاد الكثير من أخصائي القانون بأروبا ببعض هذه البحوث المختارة وبالحصر بحث الأستاذ الدكتور Capellet الإيطالي المعنون بـ How watches The Watchmen ? (من يراقب المراقب ؟

ومؤلف البروفسور Carol Han Loul عن التعويض والأضرار الحكومية مهم جداً، ويحمل بالإنجليزية عنوان : Compensation and government Torts Modern Legal Studies - London.

وإني آمل من وزارة التعليم المغربية أن تمدنا لفترة محددة بأستاذ جامعي، تخصص القانون العام، ومن الذين يجيدون الإنجليزية، لملاحقة التشريعات الأروبية حول المهاجرين بأروبا. وللمركز الإسلامي والثقافي خبرة كبيرة في التوجيه حيال هذا الموضوع.

والأمل أن تنشر هذه البحوث الأخيرة (القانونية) تحت إشراف المركز الإسلامي والثقافي بهولندا، ويبعث بها توا إلى الوزارات والمعاهد العليا والجامعات والمؤسسات المعنية.

خاتمة :

وبعد،

فالعلاقات الإسلامية المسيحية موضوع دقيق وذو حساسية مرتفعة على الساحة المهجرية بأروبا. وهو موضوع الساعة والمستقبل والخطوط العريضة لتميز علاقة جيل الآباء عن الجيل الثاني، بدأت تشق طريقها نحو التكوين. وأبناء المهاجرين المسلمين هم المركز المحرك لهذه العلاقة التي سيكشف عنها العقد القادم، وتحدد مضمون دائرتها العشرون سنة الآتية، بقدر الدور الذي ستلعبه الحكومات العربية والإسلامية في المجالين الإسلامي والتربوي لصالح أبناء المهاجرين المسلمين على أرض أروبا الغربية.



الصياغة المثلى للدعاء الأمثل

للدكتور عبد الله العمراني

في العادة يلجأ الناس إلى الدعاء كلما حز بهم أمر، أو مسهم ضر، فإذا فرج الله كربتهم، وكشف ضرهم، أعرضوا ونأوا ونسوا ربهم، ونسوا الدعاء. «وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما، فلما كشفنا عنه ضره، مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه». (يونس 12). ولكن المومنين يلجأون إلى الدعاء في سائر أحوالهم وأوقاتهم، في الشدة والرخاء، في الضراء والسراء، تنفيذا لأمر الله تعالى، وتلمسا لاستجابته الموعودة، ﴿**وقال ربكم أدعوني أستجب لكم**﴾. (غافر 60)، على أن الداعي ينبغي أن يتحلى دائما بالصبر، وأن يستعجل الاستجابة، فهي آتية لا ريب فيها إن عاجلا أو آجلا. روى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله عليه الصلاة والسلام قال : «يستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول : دعوت فلم يستجب لي». وفي حديث شريف آخر «إن الله لا يمل حتى تملوا». بمعنى أن الله لا يقطع عنكم نعمه حتى تملوا من سؤاله.

لكن، بم يكون الدعاء ؟ صيغ الدعاء كثيرة متعددة بتعدد الزمان والمكان والجنس واللغة، ومتنوعة بتنوع الداعين ومطامحهم الدنيوية والأخروية، بيد أن الذي يهمنا هنا الآن، هو الصياغة العربية المثلى للدعاء الأمثل : وتحققا لهذا الهدف عمد السابقون الأولون إلى صوغ أدعية فضلوها واختاروا التوسل بها لأنها - أولا - معبرة عما يكنون في أنفسهم، ولأنها - ثانيا - مظنة الاستجابة والغفران وتحقيق الرغائب، فإذا أشكل عليهم وجه الاختيار، سألوا أهل الذكر. وقد سأل أبو بكر الصديق رضي الله عنه رسول الله ﷺ أن يعلمه دعاء يدعو به في صلاته فقال له : «قل، اللهم إني ظملت نفسي ظلما كثيرا ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم».

اعتاد الكتاب في مختلف عصور الأدب العربي أن يرصعوا رسائلهم الديوانية أو الإخوانية بأدعية توائم مقتضى الحال، وتلائم مقام المرسل إليهم ومكانتهم الاجتماعية، إذ من مقتضيات البلاغة أن يكون لكل مقام مقال، وأن تكون مخاطبة الخليفة أو الملك أو الأمير، هي غير مخاطبة الوزير أو الرئيس أو الصديق، يدعم هذا أن الكتاب كانوا شبه مطوقين بالتزامات وتقاليد ورسوم كتابية ثابتة لا يحيدون عنها قيد أنملة، فإن حاد أحدهم عنها، أصبح عرضة للرد والانتقاد. ومن تلك التقاليد أو الرسوم الكتابية ما يمكن أن نشير إلى بعضها فيما يلي :

1) أن كتب الوزراء الصادرة باسم الخلفاء، كانت تخلو دائما من تاء التكلم ونون الجمع فلم يكن يرد فيها «فعلت كذا» أو «فعلنا كذا» بل «فعل أمير المومنين كذا».
2) أن الوزراء كانوا يكاتبون أمراء الأقاليم على قدر منازلهم

معتذرا عن التقصير الحاصل من كاتبه، ولما خلف القاسم بن عبيد الله أباه في منصب الوزارة، حرص على أن يكاتب الأمير بالتأمير، وبالدعاء التام، فكان الأمير يكاتبه بالتوزير وبتام الدعاء.

5) أن الكتاب المحدثين صاروا يدققون في استعمال صيغة التفدية (جعلني الله فداءك) في مكاتباتهم وتجنبوا أن يخاطبوا بها الوزير، لأن الشيء في نظرهم إنما يفدى بمثله أو بأجل منه. ولكن الأقدمين تحرروا من هذا القيد، فصاروا يخاطبون بالتفدية الخلفاء، والوزراء، فضلا عن الإخوان والأصدقاء... كتب أديب من المدينة المنورة إلى صديق له بالبصرة، وتأخر الكتاب على المرسل إليه فظن أن صديقه المدني جفاه فكتب إليه : أطال الله بقاءك، كما أطال جفاك، وجعلني فداءك إن كان في فداؤك.

6) أن الصيغ الدعائية إنشائية بطبيعتها، فإذا سبقتها جملة خبرية أو ما يدل على جملة خبرية، وجب الفصل بواو : سأل الخليفة العباسي المأمون (198 ـ 218 هـ)، وزيره عن شيء، فأجابه بالسلب قائلا : لا، وجعلني الله فداءك يا أمير المومنين». فقال له المأمون : «لله درك ! ما وُضعتْ واوقطُّ موضعا أحسن من موضعها في لفظك».

وسأل والده الخليفة هارون الرشيد (170 ـ 193 هـ) وزيره عن شيء أيضا، فأجاب بالنفي قائلا : «لا، وأيد الله الخليفة». فيما بعد، علق الأديب المعروف بالصاحب ابن عباد (326 ـ 385 هـ) فقال : «هذه الواو أحسن من الواوات في خدود الملاح» !

وقبل المأمون والرشيد، وفي وقت مبكر جدا، حدث أن خليفة رسول الله أبا بكر الصديق (11 ـ 13 هـ) رضي الله عنه، مر برجل يحمل ثوبا في يده فسأله : «أتبيع هذا الثوب ؟» أجاب الرجل : «لا، يرحمك الله». فقال له خليفة رسول الله : «لا تقل هكذا، وقل : «لا، ويرحمك الله».

نخلص من هذا كله، إلى القول بأن لصوغ الأدعية المثلى أساليب خاصة وقوالب معينة ينبغي للمنشئين والمتحدثين أن يراعوها، وأن لا يخرجوا عن مقتضياتها، حتى يقعوا في مثل ما وقع فيه بعض أصحاب المعاجم حين أقروا في معاجمهم صيغة دعائية لا يرضى عنها البيان العربي السليم، وينبذها الذوق الأدبي الرفيع نبذ النواة !

وحسب مستواهم الرسمي والاجتماعي :

أ ـ فأمير الإقليم الذي أسندت إليه مسؤوليات الحرب، والخراج وسائر الأعمال الإدارية، كان يعامل معاملة الوزير، فيخاطب بالصيغة الدعائية «أطال الله بقاءك وأدام عزك» أو «أدام الله عزك وأطال بقاءك».

ب ـ ومن هو أدنى منزلة كان يخاطب بقوله «أعزك الله ومد في عمرك».

ج ـ ومن هو دون تلك المنزلة كان يكاتب بدعاء «مد الله في عمرك وأكرمك وأبقاك».

د ـ ومن هو أدنى مقاما كان يدعى له بصيغة «أبقاك الله وحفظك».

وعلى الرغم مما يبدو على الترتيب من تكلف أو تعسف، فإن مشايخ الكتاب اختلفوا بصدد هذه الصيغ الدعائية المزدوجة والمثلوثة : أي الصيغ يقدم ؟ وأيها يؤخر ؟

قال بعضهم : العبرة في تقديم صيغة على أخرى، ما رتبه الأقدمون واستعملوه ورسموه.

وقال آخرون : العبرة في التقديم والتأخير ما يكنه الكاتب الداعي في نفسه، وينتويه، لا ما تسطره بنانه. واستند البعض الثالث إلى ما تقتضيه قواعد اللغة التي تنص على أن العطف بالواو لا يفيد ترتيبا، مستدلين بقوله تعالى : ﴿**يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين**﴾ (آل عمران 43). فالآية الكريمة قدمت كلمة «واسجدي» على كلمة «واركعي» مع أن الركوع يسبق السجود.

3) أن الوزير عند ما يكاتب أمير إقليم، كان لا يتسمى ولا يتكنى على عنوان كتابه، بل كان يكتفي بجعل العنوان هكذا : لأبي فلان (في سطر) فلان بن فلان (في السطر الآخر).

4) أن الوزير إذا حاد عن السبيل المرسوم، وخالف التقليد المتبع، عاد فاعتذر. يحكى أن الوزير عبد الله ابن سليمان، نقص دعاء أمير مصر والشام أبي الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون (270 ـ 282 هـ)، فرد الأمير عليه، ونقص دعاء. فطن الوزير للأمر، فبادر وأجاب بتمام الدعاء،

ولزيادة الإيضاح نقول : إن الفعل الثلاثي المجرد «قر» له معنيان رئيسان :

الأول : قر بمعنى برد. والبرودة هنا إما حسية طبيعية، نقول قر اليوم أي برد، وليلة قارة أي باردة، وإما معنوية مجازية، نقول قر عينه أي سر صاحبها ورضي، أو سحت عينه دمعا باردا سارا، (فالدمع البارد علامة السرور بعكس الدمع الحار)، وهذا المعنى المجازي هو المراد في الدعاء، وهو الذي تبناه القرآن الكريم كما سيأتي بعد حين.

المعنى الثاني : قر بمعنى ثبت واستقر، ومنه قوله تعالى خطابا لنساء النبي محمد ﷺ : ﴿**وقرن في بيوتكن، ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى**﴾. (الأحزاب 33).

فإذا أدخلنا على الفعل الثلاثي المجرد اللازم همزة التعدية، تكون لدينا معنيان رئيسان آخران

أولهما : أقر بمعنى اعترف أو أذعن للحق، ومنه قوله تعالى : ﴿**ثم أقررتم وأنتم تشهدون**﴾. (البقرة 84). وقوله تعالى : ﴿**أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا : أقررنا**﴾ (آل عمران 81).

وثاني المعنيين : أقر بمعنى ثبت، ومنه قوله تعالى : ﴿**ونقر في الأرحام ما نشاء**﴾ (الحج 5).

إن القرآن الكريم الذي هو مثلنا الأعلى في البلاغة والفصاحة والذوق السليم، لم يستعمل بتاتا الفعل الرباعي في المعنى الذي نريده، بل استعمل فقط الفعل الثلاثي المجرد اللازم أو ما اشتق منه :

أ - استعمله في صيغة المضارع كما في قوله تعالى : ﴿**فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها ولا تحزن**﴾ (طه 40)، وقوله تعالى : ﴿**فرددناه إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن**﴾ (القصص 13)، وقوله تعالى : ﴿**ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن**﴾، (الأحزاب 51).

ب - واستعمله في صيغة الأمر كما في قوله تعالى : ﴿**فكلي واشربي وقري عينا**﴾، (مريم 26)، أي وطيبي نفسا واطمئني بالا ولا تغتمي أو تحزني.

ج - واستعمله في صيغة المصدر كما في قوله تعالى : ﴿**وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك، لا تقتلوه**﴾ (القصص 9)، وقوله تعالى : ﴿**ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين**﴾، (الفرقان 74).

هذا هو أسلوب القرآن في براعة تعبير، وروعة تصوير. وكيف لا، والقرآن أس البلاغة، ورأس الحكمة، وفصل الخطاب، أما الشعر العربي فحدث ولا حرج، عالج الموضوع بعميق تدبر، وجميل نسق، وإذ لم يكن في مقدورنا الاستقصاء، نستطيع التمثيل فنختار هذه الصورة الحلوة المستساغة التي جمع فيها الشاعر بين فعلي «استقر وقر» جمعا بليغا حين قال :

فألقت عصاها واستقر بها النوى
كما قر عينا بالإياب المسافر

ونختار من مطولة شاعر النيل محمد حافظ إبراهيم في عمر بن الخطاب (13 - 23 هـ) رضي الله عنه، أبياتا تصف دهشة سفير كسرى، وقولته الشهيرة :

وراع صاحب كسرا أن رأى عمرا
بين الرعية عطلا وهو راعيها

وعهده بملوك الفرس ان لها
سورا من الجند والأحراس تحميها

رآه مستغرقا في نومه فرأى
فيه الجلالة في أسمى معانيها

فوق الثرى تحت ظل الشمس ملتحفاً
ببُردةٍ، كاد طول الدهر يبليها

وقال قولة حق أصبحت مثلا
وأصبح الجيل بعد الجيل يرويها

أمنت لما أقمت العدل بينهم
فنمت نوم قرير العين هانيها

(الديوان ج 1 ص 51)

تلك استعمالات كتاب الله المبين، ﴿**وإنه لكتاب مبين لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه**﴾ (فصلت 41). وهذه استعمالات الشعراء حماة اللغة، والناطقون بلسان الأدب الرفيع.

أما استعمالات بعض المعجميين فتتجلى في أنهم عالجوا الفعل الثلاثي المجرد اللازم كما ينبغي أن يعالج، وشرحوه شرحا واقيا سليما. ثم عالج أحدهم - وتبعه آخرون الفعل

الرباعي المتعدي فقالوا «أقر الله عينه»، ثم زاد أحدهم على هذه الصيغة السقيمة كلمة «وبعينه»، ونسوا أن «أقر» الرباعي يحتمل معنى فجا غير مهذب، إذ أن إقرار العين وتسكينها عن الحركة يعني موت صاحبها ـ لا قدر الله.

لكن، ما الذي دعا المعجميين إلى تبني الفعل الرباعي غير مكتفين بالثلاثي ؟ هل هو الجمع والحشد لمجرد الجمع والحشد ؟ أم هل هو الإعراب حبا في الإغراب ؟ أم هل هو الغرام بالتحريف أو التلاعب اللفظي لغرض في النفس خفي ؟ نأبى هنا أن نتهم، وإن كان التاريخ الأدبي يحتفظ لنا بشيء من هذا القبيل :

2) قيل لأعرابي : السلام عليك (بكسر السين). رد الأعرابي : الجَنْجَاتُ عليك. قيل له : ليس هذا بجواب. قال : السلام والجنجات شجران مران، أنت جعلت علي واحدا منهما، فجعلت عليك الآخر.

3) كان اليهود في المدينة المنورة يحيون المسلمين بتحية الإسلام، لكنهم كانوا يكسرون سين السلام. ومن المعلوم أن السلام (بكسر السين) تعني الحجارة، فكأنهم كانوا يقولون : الحجارة عليكم ! كبرت كلمة تخرج من أفواههم !

3) كان الرسول عليه الصلاة والسلام يبلغ رسالة ربه حين كان يلقي على الصحابة أنماطا من العلم، فكانوا يقولون له : «راعنا يا رسول الله» «أي راقبنا وانتظرنا حتى نفهم ما تقول ونحفظه».

أ ـ اهتبل اليهود التشابه اللفظي بين هذه الكلمة العربية (راعنا) وبين الكلمة العبرية (راعينا) المشتقة كليشيه من الفعل العبري ר ע ע (رَع) بمعنى «ساء» أي صار شيئا شريرا مؤذيا. فأخذوا يقلدون الصحابة ويقولون للرسول عليه الصلاة والسلام : (راعينا) ولكنهم كانوا يضمرون في أنفسهم معنى الكلمة العبرية، لا المعنى العربي.

ب) واغتنم اليهود أيضا فرصة وجود إحدى القراءات التي تقول : (راعنا) بالتنوين : أي ذا رعن وهوج وحمق، (على حذف ياء النسب، كما حذفت في (لابن) أي ذي لبن، وتامر أي ذي تمر)، وصاروا يستعملون الكلمة مراعين ما تتضمنه من سباب وشتم.

ولكن إذا خفي معنى الاستعمالين معا على المواطن العربي العادي، فإن مغزاهما لم يكن ليخفي على من يعلم خائنة الأعين ما تخفى الصدور، لذا نزل الوحي مرتين، في المرة الأولى أرشد المومنين إلى القول السديد، وتوعد الكافرون : ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا، وللكافرين عذاب أليم**﴾. (البقرة 104). «راعنا» و «انظرنا» هنا بمعنى، فكلمة «انظرنا» أمر من نظره إذا انتظره. وفي المرة الثانية فضح اليهود ولعنهم وأخزاهم : ﴿**من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع و راعنا ليا بألسنتهم وطعنا في الدين، ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيرا لهم وأقوم، ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يومنون إلا قليلا**﴾. (النساء 46).

وهكذا فضح الوحي المنزل تآمر الخبثاء، وكشف نياتهم السيئة ورد كيدهم في نحرهم، إذ منعهم بطريقة جد رائعة من أن يستعملوا كلمة (راعنا) ذلك الاستعمال الماكر. ﴿**ومكروا ومكر الله، والله خير الماكرين**﴾. (آل عمران 54). صدق الله العظيم.

تطوان : عبد الله العمراني

رؤى في أفق الثقافة :

الألفاظ أوعية المعاني

للأستاذ المهدي البرجالي

الألفاظ ـ كما قيل ـ أوعية المعاني؛ وفي الواقع فإن هذه الأوعية المعنوية لتختلف ـ عادة ـ كالأوعية المادية، من حيث حجم الحمولة التي تحتوي عليها، وبساطة تركيب هذه الحمولة أو تشعب العناصر المتألفة منها؛ وما إلى مثل ذلك؛ فرب لفظة كالخبز مثلا، ترتسم في الذهن بمجرد سماعها صورة فورية عنها، دون أن يكون هناك داع للاستفاضة في شرحها وتحديد أبعادها، والتدقيق في بلورة الملابسات المعنوية التي تكتنفها، إذا كان المراد فقط من فهم اللفظة جانبها اللغوي الصرف، وليس المعطيات العلمية والتاريخية والحضارية وغيرها، مما يتعلق بالمادة المشار إليها بتلك اللفظة؛ وفي المقابل المضاد تماما، توجد ألفاظ أخرى، قد يكتفى في إدراك مفهومها بتصور سطحي، وذي دلالة تقريبية؛ إلا أنك إذا ما شئت استيعابا حقيقيا لمدلول اللفظة من هذا القبيل، يتأتى لك به تصور محتواها الاصطلاحي المجرد، تصورا غير مشوب بغموض أو لبس، ومستقطبا تكاملية العناصر المتألف منها المعنى العام لها، فإنك ستجد نفسك، سواء كنت متحدثا أو متحدثا إليك في حاجة إلى إيراد أو سماع شرح طويل الذيل للفظة كهذه، شرح يتناول بالتحليل والتشريح، الملابسات المعنوية المختلفة، التي ترتبط بمفهومها، والتفاصيل والجزئيات التي تقترن بها في مساق ما تدل عليه، وجملة العناصر التي تداخلت في تكييف وتوجيه دلالاتها ليستقيم فحواها في أذهان الناس على نحو معين ! إن بعض الألفاظ من هذه الفصيل، لربما يقتضي التبسط في تصوير بنيتها المعنوية نطاق بحث كامل ! ومن بين نماذجها مثلا، «الجمال»، «البلاغة»، «الأصالة»، «الإبداع»، وما من هذا القبيل؛ ومما يشار إليه في هذا الباب كذلك، المصطلحات الموضوعة للدلالة على المذاهب والمدارس الفكرية، والمشارب والنزعات العقائدية وما على شاكلتها؛ فـ «فالرواقية مثلا، و «التصوف»، «والبنيوية»، «والوجودية» وسوى هذه، لا يمكن التعرف إليها بمجرد تعريف قاموسي، يكتفى فيه بمجرد الإشارة العابرة لدلالة اللفظة من هذا النوع، وهي دلالة مصاغة في الأصل صياغة تنتصهر في مضمونها مضامن ومسارات فكرية معينة وتتمازج ضمنها جدليات ومسالك وتقاطعات في الرؤى وأنماط التقدير، ومعالم في النظر الفلسفي أو الاجتماعي أو السياسي والإيديولوجي على هذا النحو أو ذاك، قد تداخل بعضها مع بعض، لتتشكل منها صورة متكاملة الملامح، تنبئ عنها اللفظة المرصودة للتعبير عن موضوع من هذا المعنى.

وكما يعمد من يجهلون تركيب جهازها، إلى تفكيكه وإعادة تركيبه لمعاينة الكيفية الواقع بها الالتحام بين أجزائه، فكذلك ـ والمقارنة تقريبية طبعا ـ شأن من يريد

التعرف إلى عالم من المعاني والأفكار الدالة عليها لفظة كلفظة الرومانسية ! والكلاسيكية أو الانطباعية، أو التجريدية، أو مثل هذا من الاصطلاحات المتصلة بالأدب والفن ونحوه ! فهذا لا يعنيه في شيء، أن يلم باللفظة من خلال «بطاقة تعريف» قاموسي لها، ويجزوه ذلك ! بل إن عليه أن يستطلع - ولو بإيجاز - الأصول والمداخلات الفكرية لنشوء وتطور النزعة أو المذهب المعني، وهي عملية شبيهة بعملية التحليل أو التفكيك، لينتهي من ذلك إلى تصور كاف لمدلول المصطلح الموضوع، والذي يمكن اعتباره بمثابة وعاء لكل ما تعنيه الأفكار والرؤى والقناعات، التي تبلورت من خلالها الصيغة الفلسفية أو الفنية أو نحوها، المعبر عنها عبر ذلك المصطلح.

وثمت ونحن نستعرض نماذج الألفاظ ذات المضامين أو المحمولات المتشعبة - نموذج آخر - وهو بيت القصيد في موضوعنا - ويتمثل هذا النموذج في لفظة لا تعبر عن علم أو مذهب أو مدرسة فكرية مخصوصة، وإنما عن كل بحور الفكر والمعرفة التي تتفرع عنها أو تصب فيها مختلف الروافد، وتتبلور فيها للإنسان مفاهيمه ورؤاه عن الحياة وتجاربها، وتتضح بؤثراتها ملكات المرء الذهنية واستعداداته ! إنها لفظة «الثقافة» هذه اللفظة البسيطة صياغة، والتي تنطوي في محتواها على كل هذا الأفق الشاسع، الذي تتمايز من خلاله قدرات الأفراد عن بعضها، وأيضا قدرات المجتمعات ! وهناك مثال آخر من هذا الصنف، وهو لفظة «الحضارة» وهي ككلمة «الثقافة» لا تقل في ضخامة مدلولها وما تنمُّ عنه من مقاصد، تستقطب جميع ما تفتق عنه العقل البشري على مر العصور، وما أبرزه من عطاءات تتميز بها - باستمرار - أوجه حياته.

الحضارة والثقافة على مستوى اللفظ

لفظ الحضارة - فيما يعلم - لفظ دارج في متن اللغة منذ القدم، ولو أن محمولاته المعنوية قد تطورت واتسعت دلالةً بالنظر لتطور نطاق مضمون الحضارة نفسها عبر الأزمنة، وتشعبه تبعا لتطور حياة الإنسان ونمو معارفه ومدركاته واستطاعاته، وفي هذا كله، استمر مفهوم الحضارة قائما في مقابل مناقضه «البداوة» واستمر يعني في أساسه، ما يرادف أيضا كلمات «المدنية» أو «التمدن» أو «العمران» أو ما إلى ذلك.

أما «الثقافة»، فلفظ مستحدث من حيث محموله الدلالي، وإن كان في أصله عريقا بمعنى أضيق بالنسبة للمعاني الحديثة المحشودة في إطار مفهومه اليوم ! والجذر المأخوذة منه اللفظة المتداولة اليوم، يعكس معنى ماديا قوامه الاستقامة والتقويم، وكان يرد عن الرمح المعوج مثلا في سياق القول بما يفيد تقويم اعوجاجه ! ثم انصرف معنى التقويم هذا انصرافا أدق، فورد في مجال التعبير عن تقويم إعوجاج الفكر ! وفي هذا المجال، وضمن تصور محدود نسبيا انحصر مفهوم الثقافة أو التثقيف حتى كان ما حصل في عصرنا من تحميله ما أصبح يحمله من مفهوم في غاية الرحابة والشسوع ! وبمقتضاه، يرتبط مفهوم الثقافة - كما يدرك اليوم - بكل ما يمت بصلة إلى المؤثرات التقويمية الإيجابية التي تحصل للمرء في نفسه وفي شعوره وفي خياله وفي مسلكه وفي مختلف قدراته العقلية، نتجة لما أطلع عليه، أو ألم به من معرفة، وما تعلمه من أشياء، أو احتك به من أجواء، أو اكتسبه من خبرات وتجارب ! وليس الأمر في سعته الدلالية، بأقل من هذا بالنسبة لما يدرك من مصطلح الحضارة بمضامينه المتشعبة اليوم ! فاللفظة، لفظة الحضارة، تنبئ عن نطاق يشمل مختلف جوانب التطور والتقدم، التي تتكامل لمجتمع من المجتمعات وليس فقط، بالمعنى المحدود في العمران وما في ضمنه، وإنما في المحيط الأوسع للحياة الاجتماعية والاقتصادية وأشكال الترتيب والتنظيم في خلالها، بكل ما يحتويه ذلك من وسائل وأسباب وأدوات وتقنيات مختلفة، بل إن الحضارة ترى أيضا - من خلال مساحات واسعة - في الجوانب غير المادية لحاية المجتمع ! وهنا قد يقال مثلا، إن أخلاق هؤلاء القوم، أخلاق حضارية أو متحضرة، أو أن سلوك، اولئك سلوك غير متحضر أو بدائي، ومن هذه الزاوية قد يتداخل - في الكثير - مدرك الحضارة ومدرك الثقافة، على الرغم مما يوجد في عمق التحليل من فروق مميزة بينهما.

في خلال هذا المنظور، يلحظ كم هي مطاطة وفضفاضة، الدلالة التي تشي بها لفظتا الثقافة والحضارة، وأية مساحة يمتد عليها مساق القول الداعي إلى إيراد إحدى اللفظتين أو الأخرى بحسب ما يراد الإعراب عنه، وهو كثير متنوع، وذو أبعاد معنوية فسيحة، بحيث يتعذر معها أحيانا التعيين الدقيق لحدود اللفظتين؛ ولنركز النظر خاصة في مضمون كلمة الثقافة مع ارتباطها أحيانا بلفظ الحضارة، لنتبين مدى سعة المجال فيما يدرك من هذا المعنى بجوانبه العديدة.

الثقافة من خلال المفهوم

لقد تواترت ـ لتجلية مفهوم الثقافة ـ تعاريف مختلفة، لمحاولة الإحاطة بما تعبر عنه، وتمييز مضمونها عن مضامين أخرى تقرب منها أو تبعد، على الرغم مما يضم الجميع من علاقات اعتبارية وروابط ! ومما ذكره بعضهم في هذا الصدد : «... أن الثقافة ليست في المعرفة ! بل أنها ما يتبقى في النفس بعد أن ننسى جميع ما حصلنا من معارف، وما يتبقى، هو إدراك مكون، وحس مرهف، وذكاء نفسي يعرفونه بأنه القدرة على حل المشاكل التي تعرض لأول مرة، مما يبدو منه وكأن الثقافة عندئذ مجرد تدريب لملكات النفس، وذلك بينما يرى نفر آخرون أن الثقافة، ليست مجرد تدريب للملكات، بل هي دراسة وتفكير معا، فالدراسة بغير تفكير لا يمكن أن تنتهي إلى فهم صحيح، والاكتفاء بالتفكير دون دراسة، لا يمكن أن يؤمن معه الضلال، ولذلك يرى هذا النفر، أن الثقافة هي طائفة من الخبرات والمعارف التي قد تنسى تفاصيلها، ولكنها لابد أن ترسب في النفس، مجموعة من الأصول والمبادئ العامة التي يستقيم معها التفكير وينضبط الإحساس؛ وهم يخصون بالذكر، المعارف التي تدعى بـ «الإنسانيات» وذلك لأن أهم خواص المثقف، هي فهمه لنفسه ولأخيه الإنسان، وقدرته على التعامل معه، بشرف ويسر ! ومن هذا، فنحن نرى أن المثقف الحق، لا يجوز أن يكون صالحا لنفسه فقط، وإلا فإن الثقافة كما تبدو من مثاله، ستكون بمثابة تقوقع وانغلاق، الأمر الذي يجعلها فاقدة هويتها ومدلولها الحتمي من خلال تفكيره ونظرته ومسلكه ! فالثقافة بمفهومها السليم، وبحسب ما تقتضيه المواصفات المميزة لها، هي تفتح نفسي وفكري على البيئة الاجتماعية التي يعيش المثقف في ظرفها، وعلى محيط الناس الأوسع الذي يتشكل منه ما نعرفه بالمجتمع الإنساني في عمومه؛ والتفتح هذا من شأنه أن يكون محفوزا بحوافز إيجابية قوامها حب المعرفة والخير والجمال، والرغبة في التلاقي والتجاوب مع المحيط الإنساني عبر قيم ومثل من هذا القبيل.

ورب قوم

إن الفكر ـ كما يعلم ـ قاعدة رئيسية في دفع عجلة التاريخ، وإمداده بديناميكية فاعلة تتحرك بها عوامله وتتكيف وجهته، وذلك مثلما يمكن القول من جهة أخرى، أن التطورات التاريخ، وكذلك الأجواء التي تنجم عن هذه التطورات، وما تحدثه من مؤثرات على طبيعة الحياة من شأنها هي كذلك أن تنعكس على حركة الثقافة والفكر، بما يتيح منحها قدرات واستطاعات متجددة، بل يسوغ في هذا الصدد، تشبيه نمو حصيلة ثقافة أمة من الأمم أو مجتمع من المجتمعات، بنمو الكائن الحي نفسه مع توالي الأيام عليه، وتفاعله مع نواميس الطبيعة والوجود ! فكلما تقادم الزمن على مجتمع ما، تكاثرت بذلك فرص تمرسه بالكون حوله، واحتكاكه بفعالياته، ومعرفته بالمزيد من الحقائق والوقائع، وتوالي تجاربه وخبرته نتيجة ذلك، وتعوده على كيفيات الاستجابة لما يعرض له، ووسائط التعبير عما يستجد عليه، ويبرز في محيطه ! والفرد في هذا، صورة مصغرة عن المجتمع وإن اختلت التفاصيل، وبمقتضى هذه الحال، تجد أن الأهمية النوعية أو حتى الكمية لمحصول ثقافة شعب من الشعوب، وإن كان ذلك يخضع لجملة من العوامل طبيعية واقتصادية واجتماعية وسياسية وغيرها، فإن من بين العوامل الرئيسية في الأمر، طول عهد الجماعة الملحوظة ـ في هذا النطاق ـ بالتاريخ، وعراقتها في محيطه ! ومثل هذه الجماعة، قد توصف ـ لميزتها هذه ـ بالأصالة التاريخية،

وهي صفة كثيرا ما تكون - في اعتبارا أو آخر - جديرة بها، كما، تكون محققة أيضا - لتوفر الدواعي لذلك - أن تنعت بالعراقة الحضارية، وفي ضمن ذلك، بالعراقة الثقافية، على اعتبار ما يقع من تداخل متواتر في السمات التي يتحلى بها مجتمع ما بهذا الخصوص، فرب قوم كان لها في حقبة من حقب التاريخ - باع طويل في مضمار الفكر والثقافة، ودرجة ملحوظة أيضا من التقدم في مجال العمران وما إليه ! إلا أن شهرتهم التاريخية، ترجع إلى الجانب الفكري والثقافي، قبل أن ترجع إلى ما خلفوه من آثار أو معالم معمارية وما في حكمها، ومن بين الأمثلة، مجتمع الإغريق القدماء ! ومن الجلي أن الأندلس الإسلامي لا تعرف فقط بالمعالم والزخاف والنقوش التي بقيت شاهدة عليها، بل تعرف كذلك بأدابها وفنونها، وعلمائها وشعرائها وتراثها في كل درب من دروب الثقافة، مما استمر حيا بعد أفول نجم العرب منها، بفضل تداخل مكونات ذلك التراث، مع ثقافات عدد من المجتمعات العربية في ميادين مختلفة.

ومن فحوى هذين المثالين، نلحظ أن أقوى العناصر في تراث شعب من الشعوب صمودا أمام تقلبات الأيام، وحتى بعد الاضمحلال الفعلي للشعب المعني، هي القيم الثقافية التي يكون قد خلفها إذا كانت ثقافته ذات أبعاد إنسانية عميقة، بحيث تبقى لها القدرة على الإشعاع، دون أن يبهت مرور الحقب لمعانها. أو يقلص من طاقتها الملهمة ! وقد يتعرض في حال غير ما ذكر - مجتمع معين أو مجموعة من المجتمعات المترابطة فيما بينها - لتيارات جارفة، تهز ذلك المجتمع أو تلك المجموعة من الأعماق، موشكة أن تنهي ماله أو مالها من فاعلية جزءا أو كلا، والصورة على هذا : العالم العربي والإسلامي في خلال القرون الكثيرة التي انقضت عليه. إن هذا العالم المترامي عبر أقاصي آسيا إلى أقاصي إفريقيا، اذا كان يشكل إحدى الحقائق الكبرى في عالم اليوم، والحال أنه قد مرت به منذ القرن السادس الهجري، زوابع وهزات من الممكن أن تكون قد عصفت عصفا جذريا بأصول الوحدة العقلية والوجدانية التي تلحم اللبنات الجوهرية لتماسكه، فمرد ذلك بطبيعة الحال، متانة القاعدة التي ترتكز عليها الروابط الفكرية والثقافية التي تشده شدا إلى بعضه البعض، والمستمدة من جاذبية القيم المشتركة، التي تضفي عليه المعنى المميز لوجوده.

ربما حسب الاستعمار ذات يوم...

ربما حسب الاستعمار الأوروبي خلال القرون الأخيرة، أن نهايته ليست محدودة بحدود حتمية، فذهب من ثمت - ضمن استراتيجية له طويلة النفس في محاولة التصرف - طبقا لتلك الستراتيجية - في الأوضاع الثقافية في العالم المستعمر (بالفتح) لاستثمار ما كان يود أن يحصل عليه - عبر ذلك - من نتائج مناسبة لإمكانية استمرار وجوده المباشر، أو غير المباشر في المناطق التي يسيطر آنئذ عليها، وقد انطلق مسار السياسة التي اتبعت بهذا الشأن، على مستوين إثنين، يتعلق الأول منهما بالمناطق التي اعتبرت «فارغة» أصلا من الناحية الثقافية، لكون ثقافة سكانها الأصلاء محصورة في تقاليد وأنماط ضحلة وأحيانا بدائية ومتكاسة، الأمر الذي يجعل مثل هذه المناطق المنبثة في إفريقيا وآسيا والمحيط الهادئ، مرشحة لتحويل الإنسان فيها تحويلا ثقافيا جذريا، بالقدر الذي يمكن من ربطه ربطا عقليا ووجدانيا كاملا بالمستعمر، ويتيح بالتالي تبعية هذا الإنسان المستديمة بقدر يقل أو يكثر - لسياسات ومصالح البيض القادمين من وراء البحار (الثاني) يخص البلدان العريقة أصلا، وذات التراث الثقافي الفاعل في حياة الناس اليومية، والقائمة لهم به شخصية حية مشهودة في بيئتهم الفكرية والاجتماعية والمعيشية وغيرها ! فهذه البلدان يتعذر فيها فعلا إحلال مضمون ثقافي مستورد، محل مضمونها الثقافي الخاص، لأنه لا يوجد فيها فراغ ثقافي جدي يمكن ملؤه، بيد أن هذه الحال، لا تمنع بحسب النظرة الاستعمارية - من استعمال ما يمكن من «ثغرات» في البلدان التي على هذه الشاكلة، بهدف إحداث انقسامات ثقافية فيها قد ينشأ عنها وجود «جزيرات» اجتماعية، تتسم ببعض التمايز الفكري فيما بين بعضها البعض، وهو تمايز قد ينقلب إلى تناقضات، تتسلل من

خلال منافذها التدخلات الخارجية في البلد الذي يعاني من حالات من هذه القبيل.

ونظرة إلى الأوضاع التي تسود العالم اليوم، تظهر بالفعل أهمية العامل الثقافي في تحصين عدد من المجتمعات المحصنة بالفعل ضد التيارات السلبية الخارجية، كما تظهر كذلك إلى أي حد يتسبب التخلخل الثقافي، إذا ما منيت به بعض البلدان - في جعلها معرضة بصورة تقل أو تكثر - لمؤثرات من هذا القبيل.

وفي هذا النطاق، تطرح قضية المحافظة أو التفتح الثقافي نفسها عن منظور عقلاني تتعين به الضروريات والمقتضيات، ومناحي السلب والإيجاب بهذا الخصوص.

لقد نشأت على مر التاريخ، ثقافات عديدة أثر بعضها في بعض، على نسق متسلسل ومتداخل، فكان من ذلك هذا الركام من المعارف والمواضعات والصيغ التعبيرية التي تعكس ضخامة وثراء الفكر الإنساني في محيطه العام، ولم يكن لهذا الثراء أن يتنامى بالشكل الذي تم عليه الأمر، لو أن ثقافة واحدة التهمت غيرها من الثقافات و «أعدمتها» جميعا، لتستقطب بمفردها الفكر الإنساني، وتحتكر تمثيله ! ونتيجة لهذا، فقد استطاعت كل ثقافة جديرة بوصفها كثقافة حية وفاعلة وإيجابية، أن تساهم بنجاح تتفاوت صوره - في عمليات التلاقح والتفاعل الثقافي العلمي، انطلاقا من خاصيتين لا بد أن تكونا متوفرتين فيها ليكون بوسعها أن تنجز مثل هذا الإسهام الناجح؛ وأولى هاتين الخاصيتين : قدرة ثقافة كهذه على النمو والتطور الذاتي عن طريق الاستيحاء والاستقاء من معين البيئة الإنسانية التي نبعت منها، وأما الخاصية الثانية، فتتمثل في قابلية هذا الثقافة، لتنظيم علاقاتها مع المضامين الثقافية الواردة عليها من خارج بيئتها، تنظيما بعيدا عن ملابسات التأثر بشعور الانبهار الساذج بتلك المضامين والانسياق وراءها بدون تمييز.

إن من الضروري أن تنتظم علاقات كهذه في إطار قوامه التبادل الخلاق والخصب مع ثقافات الآخرين، وتبادل يطبعه التبصر وحكمة الانتقاء في تلقي المؤثرات الوافدة ونفس التبصر والحنكة والحصافة في هضم ما يحسن هضمه من محتوياتها ! إن هذا هو فحوى ما يدعى بالتعايش بين الحضارات، أو الحوار بين الحضارات، وهو بالضرورة حوار بين الثقافات.

أن الأصالة الثقافية سبيل الإنسان - أديباً أو فناناً أو غيره، لتقديم عطاء فيه صدق وتميز؛ بل قد يكون فيه نوعمن الإبداع والابتكار، لأنه ليس مجرد تقليد لما تلقاه صاحبه عن الثقافات الأخرى خارج بيئته وإن كان من المفروض أيضا ألا يكون العطاء المعروض مجرد تكرار سطحي لصيغ من الثقافة المحلية، أو نتيجة لمحاولة استلهام منها غير موفقة. أما إذا استطاع المرء أن يزاوج بنسب حكيمة - بين موحيات أصالته، ومتلقيات معاصرته العالم حوله، وأمكنه أن يأتي منذ ذلك بصيغ وتجليات تليدة طريفة، وبالتالي، مبدعة، فإنه يكون قد أدلى بإضافة جيدة، إلى إسهام بيئته الاجتماعية في هذا الحوار الدائر بين الثقافات، وليس الأمر في هذا، مقصورا على مجال الأدب والفن، بل يشمل طبعا شتى مجالات النشاط الإنساني التي تندرج نتائجها في إطار الموضوع الثقافي.

وقد لاحظ بعض المفكرين في الغرب، صورة الظاهرة البادية في الذوبان التدريجي لقيم ثقافية وحضارية لبعض الجماعات أمام الاجتياح الذي تمارسه الصيغ المتدفقة عليها من رواء البحار، واعتبر بعضهم هذه الحالة، على أنها مدعاة لتقليص رقعة التنوع والتلوين في مسرح الحياة العالمية على مستويات مختلفة.

التنمية والتجانس الثقافي

على أنه بعيدا عن الملابسات الجمالية والتشويقية والاستمتاعية للتنوع الثقافي في العالم، فإن هناك جانبا آخر مختلفا في إشكاليات الثقافة، ويتعلق موضوعه بقضية التنمية وصلتها - إيجابا أو سلبا - بمتانة أو ضعف التلاحم الفكري للمجتمع، هذا التلاحم الذي هو بدوره قاعدة الأساس لكل تماسك قومي سليم ووطيد. ويورد الخبراء في هذا الصدد أن ما من بلد ينعم مجتمعه بانسجام ثقافي،

يتمثل بصورة رئيسية ـ في وحدة المثل والقيم، وتماثل للرؤى والقناعات، إلا ويكون ذلك أقوى دعامة لتماسكه القومي، وبالتنيجة، يكون أدعى إلى نجاح عمليات التنمية في حظيرته، ذلك أن الستراتيجية التنمويه، تتطلب في الواقع ـ لتحقيق خطوات لها ـ هذا القدر من التماسك الذي يسهل ـ بأكثر ما يمكن ـ طوعية الاستجابة الجماعية لمقتضيات وتكاليف العمل الإنمائي، ويضاعف من شحذ العزائم، على صعيد عام للنهوض ـ بحماس ـ بأعبائه، والاضطلاع بالتحملات اللازمة عنه على مدى غير محدود.

وهناك من البلدان كثير، يتوفر فعلا لمجتمعاتها ـ وبصورة طبيعية عميقة الجذور ـ القدر اللازم من التماسك الفكري المستمد من أصالة تاريخها وحضارتها ومقوماتها الاجتماعية وعمق أصالة مؤسساتها، الأمر الذي يؤمن رسوخ قدرتها ـ في المجال النفسي ـ وهذا أمر هام ـ على التعاطي مع قضايا الإنماء ومشاكله بفعالية وطول نفس، ومجابهة مختلف المتطلبات بهذا الخصوص، إلا أن الأقطار التي تجد نفسها ـ في حال ما ـ من ضعف التكامل الفكري، من شأنها أن تشعر بملح الحاجة ـ لمواجهة ذلك ـ إلى العمل على تعميق الوجدان القومي لمجتمعها، كجزء من تنميته الثقافية التي تندرج في النطاق الأعم للإنماء.

حوافز التثقف عبر الأجيال

يقول «ديوارانت» صاحب موسوعة «قصة الحضارة» بصدد تعريفه للحضارة «إنها أي الحضارة، نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي» وهذه القولة ـ كما ترى ـ مستقاة من النظرة التقيمية للموضوع الثقافي والموضوع الحضاري، بما تشدد عليه هذه النظرة من حميمية التداخل بينهما، وهي نقطة سبق أن أشرنا إليها فيما قبل، إلا أن المراد إلقاء البال إليه في سياق الفقرة التي انتهينا إليها الآن، هو ما يتعلق من هذا التداخل بمسألة التنمية الثقافية المشار إليها آنفا، والتنمية الثقافية بما تنطوي عليه من أغراض، يوجد في أساسها، تعهد ارتباط المجتمع بعراقة قيمه الفكرية ومثله الإجماعية ـ ليست بالطبع، موضوعا حديثا، لأنها كانت دائما ـ طوال العصور ـ من أساسيات التفكير الاجتماعي ، ومناط اهتمامات موصولة في حظيرة المجتمعات، خلفا عن سلف، شعورا من الإنسان بأن الإرث الحقيقي والأهم، الذي يخلفه لعقبه، إنما هو ـ أولا ـ ما ينتقل إليه منه من قيم فكرية وثقافية إن لم يكن الوارث يحسن للتعبير عنها إذا كان غير متعلم، فهو يومن بها على الأقل، وتتشكل من إيمانه بها، هويته في نطاق الهوية العامة للمجتمع الذي ينتمي إليه. وكما هو واضح فمثل هذا الحافز في عملية التعلم التي هي سبيل التنمية الثقافية للفرد ـ مثل هذا الحافز المتعلق بصيانة توارث المثل والقيم، هو وارد في مجتمعات عالمنا المعاصر، كما كان واردا في أية حقبة سابقة من حقب التاريخ، بيد أن هذا الحافز، تلابسه اليوم، حوافز أخرى، ذات إلحاح أقوى مما كان في مجتمعات قديمة؛ ويتعلق الأمر خاصة في هذا، بحالة الارتباط الموجود في مناخ المدينة الراهنة بين عملية التثقف، وبين ما يؤمل الحصول عليه ـ عبرها ـ من منافذ مهنية، وموارد مادية للعيش؛ على أن هناء فوق هذا، فارقا أساسيا آخر في هذا المجال، ويتجلى في ظاهرة التلازم النسبي في المجتمعات بين الأمية أو شبه الأمية، وبين الاحتراف اليدوي والتجاري؛ وزوال هذا التلازم اليوم، بحيث إنه يبدو من الأمور المألوفة في المجتمعات الحديثة أن يختار المرء سبيلا حرفيا في الحياة، ولو أنه يكون قد نال من العلوم والثقافة قدرا غير يسير؛ وهذا من منظور أن التعلم في مفاهيمه المعاصرة، ليس فقط وسيلة ارتقاء فكري أو تربية وجدانية؛ وإنما هو كذلك، أداة مساعدة للمحترف على تحسين نمط ومردودية احترافه، وتمكينه بذلك من تحصيل موارد أفضل.

وسائط الثقافة تليدة وطريفة

ونأتي بعد هذا إلى نقطة أخرى فيما يخص هذه الفوارق بين قديم وحديث في عالم التعليم والتكوين الثقافي؛ ويتركز الأمر هذه المرة، حول الأجهزة والوسائل التي يوفرها العصر في هذا الميدان، مقارنة بما كان

موفورا من أجهزة ووسائل مماثلة عند أجيال وعصور غابرة؛ لقد ظل الكتاب الذي عرف ورقه وشكله وطريقة كتابته أو طباعته ـ تطورات عديدة ـ أداة التثقف أو التثقيف الأساسية خلال دهور وأجيال عبر مراحل التاريخ الطويل؛ وبسبب أصالة الكتاب ومتانة قيمته الثابتة، وصلاحيته العملية في جميع الأحوال، استطاع أن يصمدَ أمام تيار كل التحولات التي سجلها عالمنا المعاصر في هذا القرن وما قبله، وأمكنه أن يستبقي وجوده ـ كما لبث على امتداد الدهر ـ أداة رئيسية لتدوين المعرفة، وبث إشعاعها، وتيسير تداولها بين الناس، وحفظها للأجيال اللاحقة؛ وعلى الرغم من التقنيات المتقدمة، التي تناولت الكتاب بالتطوير والتجويد في محتواه وشكليات مظهره، وحتى من حيث تصنيفه وتبويبه وعرض مضامينه، فإن هذه الأداة التنويرية الهامة، قد بقيت في الجوهر ـ على ما عهده عنها السابقون، وننتفع بها نحن في زمننا، كما كانوا ينتفعون بها في أزمنتهم هم كذلك.

ويتحدث عن منافسة الصحافة والدوريات الأدبية والعلمية ووسائل الإعلام المسموع والمرئي والخيالة إلى أحدث الأجهزة كالفيديو مثلا ـ منافسة هذه الوسائل الكتاب، وأمكانية صرفها في النهاية ـ بشكل ما ـ للأنظار عنه؛ بيد أن مثل هذه التوقعات ليست منبنية على معطيات أو معاينات إحصائية أكيدة : وحتى من الناحية المنطقية البحتة، فإن إمكانية من هذا الطراز ـ ولو مرئية فقط، من زاوية استشفاف مستقبلياتي (نسبة لمستقبليات) ليست متبادرة بالضرورة، على الأقل في الأمد المنظور؛ ذلك أنه سواء من الوجهة السيكولوجية أو العملية، فالتحولات على مثل هذا المستوى التي قد تتناول ما يمكن أن ندعوه «ثوابت حضارية» وهي ثوابت متجذرة في عمق مجرى التطور الذي بلور صورة المدنية ـ لا يمكن أن تقع على غرارة تبدلات الموضة الدارجة على سطح الحياة في مجتمع أو غيره؛ لقد ارتبط أمر المعرفة المتطورة عند الإنسان أساسا، بمعيار الكتاب، لا بالمقياس الشفوي البدائي، ارتبط بالكتاب بغض النظر عن الشكل الذي اتخذته هذه الأداة المعرفية، ونوعية الأجزاء التي تدخل في تركيبها، وعمليا فإن الكتاب في منظور الكثيرين إليه ـ يمكن من التأني والتثبت في حقل الدراسات المعمقة بكيفية ربما لا تتسنى عن طريق «الفيديو» مثلا، وما على شاكلته؛ بل إن المجلات بما فيها الدوريات المتخصصة، تجد أمامها داعيا لأن تتحول ـ حجما ومحتوى وإخراجا ـ إلى مظهر ومخبر الكتاب لتؤدي ـ بصورة من الصور ـ رسالة الكتاب، وتحتل ـ فيما تبتغيه من مكانة ـ خانة من الخانات في عالمه.

وصحيح أن الوسائل الحديثة ـ من سمعية وبصرية ونحوها ـ تشكل قفزة نوعية هامة في مضمار استغلالها للأغراض التثقيفية بالنسبة لقطاعات عريضة من المجتمع، وهي في هذا قد تفوق الكتاب من حيث سعة المجال الذي تتيحه، والمرونة المتوفرة لها على هذا الصعيد، إن باعتبار ما يجمعه بعضها من ميزة التزاوج بين الصورة والكلام «المتحركين» وإن بالنظر كذلك إلى حجم المضمون الذي تبلغه في الدقيقة الواحدة، لعدد معين من الناس؛ بالنسبة مثلا للكتاب فإن نسخة واحدة لا يمكن أن يستفيد منها في نفس الوقت إلا مطالع واحد، (سوى إذا كا يقرأ لآخرين) بينما يستطيع المآت إن لمن يكن الآلاف، أو الملايين (عن طريق الإذاعة أو التلفزة) الاستماع أو مشاهدة نفس الشريط في نفس الوقت، واستقاء المعرفة بهذه الوسلية أو تلك على هذا المدى الأوسع، إلا أنه مهما يكن من أمر، فيمكن القول بثقة أنه ليس من الوارد حتما أن تتقهقر وسائل التثقيف التليدة، وأهمها الكتاب، أمام الوسائل الطريفة كفيره، على غرار ما يقع بالقياس لصراعات الملابس أو التأثيث أو ما من هذه النوعية؛ فقد أصبح أفراد المجتمع البشري بملاييره العديدة ـ من الوفرة وغدت حاجياتهم الثقافية من التشعب، بالقدر الذي يجعل الحاجة قائمة ـ باستمرار ـ إلى «استهلاك» مختلف أشكال وأنماط واستعمالات أجهزة التثقيف، سواء ما كان نموذجها عتيقا. موغلا في القدم كالكتاب، أو هو من قبيل المستجد المستحدث، أو ما يجوز أن يأتي به الغد.

سلا : المهدي البرجالي

ناظر الوقف

وتعامله مع حركة التعليم الإسلامي

للأستاذ محمد بنعبد الله

- 15 -

III مادة الدراسة : وأجور المعلمين :

لقد كانت مادة الدراسة التي كانت تعقد في صدر الإسلام، هي كتاب الله، وكان الرسول عليه السلام يستند في المسجد على أسطوانة، ويتحلق حوله الصحابة، جموعا خلف جموع، ويجلس بجانبه أتباعه ليعلمهم القرآن، ويشرح لهم ما غمض من معانيه، ودق من مراميه، ويستنبط أحكام الدين من آياته. وكان الرسول بطبيعة الحال يؤدي هذا العمل ابتغاء وجه الله.. وقد ضرب النبي عليه السلام، مثلا لأحوال الذين يتلقون عنه، فقال في الحديث الذي رواه أبو موسى : «مثل ما بعثني الله بدين الهدى والعلم، كمثل الغيث الكثير، أصاب أرضا، فكان منها نقية قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى، إنما هي قيعان لا تمسك ماء، ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه في دين الله، ونفعه ما بعثني به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به...».

وكان رسول الله ﷺ، يجلس في المجلس عند موضع الأسطوانة المسماة اليوم أسطوانة التوبة.[1] فكان إذا صلى الصبح انصرف إلى ذلك الموضع، فحلق أصحابه به حلقا بعضها دون بعض، أي أن بعضها أضيق من بعض، فيتلو عليهم ما أنزل من القرآن من ليلته، ويحدثهم إلى طلوع الشمس، ويسألونه عما يعرض لهم.. ففي صحيح الإمام البخاري من حديث أبي موسى الأشعري، جاء رجل وهو قائم. فقال يا رسول الله : «ما القتال في سبيل الله ؟ فرفع رأسه إليه، وقال : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله..».

فالمسجد كان أول مكان تكونت فيه الإطارات في الإسلام، وقد ظل كذلك إلى فترة من عهدنا الحاضر، ففيه تكونت إطارات القراء والفقهاء والمحدثين، وكلها من الإطارات الأولى في الإسلام، ثم تلتهم الإطارات العلمية الأخرى من لغويين ونحويين وغيرهم.. فكان أول فوج من الإطارات المدنية في الإسلام هو فوج المعلمين الذي كلفهم الرسول بتعليم صبيان المدينة على إثر معركة بدر..[2].

---

(1) أسطوانة التوبة، هي تلك الأسطوانة بالمسجد النبوي التي ربط نفسه عندها أبو لبابة الأنصاري، فأضيفت الأسطوانة إلى التوبة، وهي كائنة في الروضة وهي اليوم الأسطوانة الرابعة فيما بين المنبر النبوي وبين الحجرة المشرفة.

(2) «تكوين الإطارات، بين الماضي والحاضر» للدكتور إبراهيم حركات. **الرسالة التربوية، ع : 1. 1 يناير 1976.**

وقد وجه عمر بن عبد العزيز عشرة من التابعين إلى القيروان يعلمون الناس القرآن والشريعة : وهم عبد الله بن يزيد المعافري، وسعيد بن مسعود القِتْباني التجيبي، وإسماعيل بن عُبيد مولى الأنصاري، وعبد الرحمان بن رافع التنوخي، وجُعْثَل ابن هاعان بن عمير الرعيني، وإسماعيل بن عبيد الله المخزومي، وحيان ابن أبي جبلة القرشي، وطلق بن جابان الفارسي، وموهب المعافري، وعبد الله بن المغيرة الكناني.

وقد بوب البخاري في الصحيح بحلق العلم والجلوس في المسجد، وكان بجابر ابن عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاري أحد المكثرين عن النبي حلقة في المسجد النبوي يوخذ عنه العلم[3]... وفي كتاب الديات من «صحيح البخاري» : أن أم سامة بعثت إلى معلم الكتاب : أن أبعث إلي غلمانا... وترجم البخاري في الأدب المفرد : باب «السلام على الصبيان» فأسند إلى ابن عمر أن كان يسلم على الصبيان في الكتاب[4].

وقد وصف الجاحظ في «البيان والتبيين» أن جعفر بن الحسن أول من اتخذ حلقة في مسجد البصرة، لا قراء القرآن والقصص.. وكان مسلم بن جندب الهُذلي قاص مسجد المدينة في الدولة الأموية..

وكانت الربط من جملة مواضع التعليم، فقد وصف ابن العربي في رحلته رباط «المنستير»، ومن فيه من العلماء الذين كانت تعج بهم رحاب هذا الرباط.

وقد جلس الإمام مالك في أول انتصابه لبث العلم في المسجد، وكان مجلسه في المسجد إلى الأسطوانة المعروفة بأسطوانة الثوبة، وهي التي كانت مجلس رسول الله، ثم كان أكثر التلقي عنه في بيته[5].

فهكذا كان رسول الله ﷺ يجلس لأصحابه بالمسجد، يعلمهم الدين، ويرشد السائلين، ويؤدب ويحدث عن الأنبياء السابقين، ويجدد للناس سيرة نظامهم، ويوصي ولاة الأمور، ويكتب للأمراء، ويعلمهم مواقع السيرة الرشيدة.. وجعل عليه السلام أياما معينة لتعليم النساء، وقد حرص الصحابة على علم ما يصدر منه، وربما تناوبوا لحضور مجالس النبي عليه السلام ليبلغ الحاضر الغائب ما يسمعه في مغيبه، قال البخاري في صحيحه[6] عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ قال : كنت أنا، وجار لي من الأنصار نتناول النزول على النبي، فينزل يوما، وأنزل يوما، فإذا نزلت جئته بما حدث من الوحي وغيره، وإذا نزل، فعل مثل ذلك...

واتجه الصحابة، بعده، هذا الاتجاه، فأقرأوا القرآن، وعلموه الناس، دون أن يأخذوا، أو يقبلوا لذلك ثوابا ولا أجرا ماديا، وانتقل هذا الميل إلى العصور التالية، واعتنقه كثير من التابعين، ومن جاء بعدهم، وضُم إلى القرآن حديث الرسول عليه السلام، وقد ذهبت طائفة كبيرة من الفقهاء ـ كما سيأتي ـ كالحنفية جميعهم وأحمد بن حنبل وسفيان الثوري وغيرهم إلى أنه لا يجوز أن يأخذ المعلم أجرا على تعليم القرآن والحديث،[7] ثم تطورت المسألة مرة أخرى، فأصبحت الدراسات الدينية كلها لها حكم القرآن والحديث، وكما كان على هذا الشخص أن يقرئ الناس ما حفظه من القرآن، ويروى لهم ما سمعه من أحاديث الرسول، كذلك أصبح عليه أن يعلم الناس ما وعاه من ثقافة ومعرفة دون أجر مادي اكتفاء بالثواب من الله...

وقد ظل العلماء يقصدون المساجد ليؤدوا هذا العمل دون انتظار من يحفزهم أو يحثهم على الذهاب إليها لتعليم العلم، وظل الناس يلتفون حولهم. ويأخذون عنهم من غير أن تتدخل الحكومات في ذلك...فقد كان هذا العمل غير داخل في دائرة سلطانها، فادام المعلم غير معين منها، ومادام لا

---

(3) «در السحابة، فيمن دخل مصر من الصحابة» للسيوطي ص : 78، و«در السحابة» كتاب لطيف استوعب فيه السيوطي ما ذكره الإمام محمد بن الربيع الجيزي الذي ألف كتابا في الموضوع ذكر فيه مائة ونيفا وأربعين صحابيا دخلوا مصر، وزاد عليهاالسيوطي ما فاته من تاريخ بن عبد الحكم، وتاريخ ابن يونس،وطبقات ابن سعد، وتجريد الذهبي وغيرها، فزاد على العدد ثمانية.

(4) كتاب «الأدب المفرد» ص : 269 ـ ط : طشقند، تقديم السيد محمد ضياء الدين بباخانوف رحمه الله.

(5) كان علي بن زياد صاحب مالك، قد أقرأ سحنون في تونس ببيت سحنون 3 في المدارك.

(6) كتاب العلم في باب التناوب في العلم ص : 1/244.

(7) «عيون الأخبار»، لابن قتيبة ص : 2/131.

يتقاضى من الدولة على عمله أجرا، فقد ترك له أن يدرس ما شاء، وقت ما شاء[8].

وفي ضوء هذا الاتجاه سار أغلب المدرسين المسلمين، وتقضي لنا المراجع العربية جملة كبيرة من الأقاصيص التي تنبئ عن أنهم، وحتى الفقراء منهم كانوا يجلسون لتعليم الناس بدون مقابل، كما فعل ذلك كال الدين أبو البركات الانباري الفقيه النحوي الذي كان بابه مفتوحا لطالبي العلم، يعلمهم لوجه الله: وفي ميدان التأليف يذكر الخوارزمي عند افتتاحية كتاب : «الجبر والمقابلة» أن العلماء لم يزالوا يؤلفون احتسابا، وأنه ألف كتابه لحاجة الناس: وفي تعبير لصاحب كشف الظنون حاجي خليفة : «فالعلوم ليس الغرض منها الاكتساب» كل ذلك حرصا على نشر الثقافة الإسلامية على نطاق واسع، وتعميم التعلم والتثقيف بين سائر أفراد المجتمع...

وهكذا كان الحال في الصدر الأول من فجر الإسلام، لأن الروح الديني الصادق كان متغلغلا في الصدور، فتيا في القلوب، حتى إذا تقدمت العصور بالمسلمين، فشغلوا بالأمور الدنيوية... فذلك الروح القوي الوثاب هي التي دفعت المسلمين إلى القيام بتعليم القرآن، والكتابة تطوعا، وتلك الروح هي التي استغرقت النفوس، فملأت القلوب، وعمرتها بالإيمان مما أدى إلى تلك الفتوحات العظيمة في التاريخ، والتي لا يمكن تفسيرها إلا بقوة الإيمان، وشدة اليقين، وثبات العقيدة...

فتعليم القرآن والحديث، وعلوم الدين في فجر الإسلام كانت هذه مادة الدراسة كما كانت تطوعا. وقد ذكر القابسي في رسالته : «ولما انتشر الإسلام، وأصبح من العسير وجود من يعلم للمسلمين أولادهم، ويحبس نفسه عليهم، ويترك التماس معايشه، صلح للمسلمين أن يستأجروا من يكفيهم تعليم أولادهم. ويلازمهم لهم...

(8) التربية الاسلامية، د. أحمد شلبي ص : 194.

عقد مؤتمر ديني عام، وندوة تعليمية تحت إشراف مجلس إدارة جامعة : «سراج العلوم» في «بونديهار غوندة» . الهند بمناسبة مرور 80 عاما على إنشائها، وذلك 7 - 8 مارس 1986، وموضوع الندوة : «إحياء منهج السلف الصالح التربوي في المدارس الاسلامية» واشترك في المؤتمر وفي الندوة عدد من كبار العلماء من الهند وخارجها.

فالأجر إذن في نظر القابسي ضروري، ووجه الضرورة أنه لو اعتمد الناس على التطوع لضاع كثير من الصبيان، ولما تعلم القرآن كثير من الناس فتكون هي الضرورة القائدة إلى السقوط في فقد القرآن من الصدور، والداعية التي تثبت أطفال المسلمين على الجهالة...

وقد نقل العلامة «درابر الأمريكي المشهور صاحب كتاب : «اختلاف العلم والدين[9] الذي كتب كتابا نادر المثال في تاريخ الحركة الفكرية العلمية في العالم، عن «جيبون» في كلامه على ما كان من تنشيط العرب للمعارف : «إ أمراء المقاطعات كانوا يناظرون الخلفاء في محبة العلم، وبسعيهم انتشر العلم من سمر قند وبخارى إلى فارس وقرطبة، وقد أنفق أحد الوزراء مائتي ألف دينار على بناء مدرسة في بغداد أجرى عليها خمسة عشر ألف درهم سنويا، وكانت هذه المدرسة عمومية يقرأ فيها ستة آلاف طالب يدرسون معا، من ولد السيد الرفيع، إلى ولد الصانع الوضيع، وكانوا يجرون النفقات على التلاميذ الفقراء، ويؤدون الرواتب الجمة للمعلمين. ويشير «درابر» هنا إلى المدرسة النظامية التي شادها الوزير نظام الملك في بغداد.

وقد روي أنه عنه ما قامت المدارس النظامية في المشرق، قررت الدول راتبا لمعلم أو شيخ أو إمام أو واعظ، ولعل ذلك في منتصف القرن الخامس الهجري.. فهذا عيسى ابن النكندر القرشي قاضي مصر أيام ابن طاهر، أشار به عبد الله بن عبد الحكم، وأعلمه أنه فقير، فأجرى له سبعة دنانير كل يوم، وأجازه بألف دينار[10].

ثم كانت المدارس بعد ذلك ببغداد للعلوم الشرعية ووسائلها فكانت المدرسة النظامية التي أنشأها نظام الملك (ت 485هـ) الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي. فاقتدى به الناس كما في الوفيات لابن خلكان، وقد سبقت هذه المدرسة

(9) قال عنه العلامة أمير البيان شكيب أرسلان : إنه كتاب شهير مشحون بالفوائد إذا انتدح لنا الوقت قد نعيد النظر عليه، ونطبعه مع تعليق العلامة الدكتور «فانديك» أستاذ أساتيذ العصر، والعلامة الشهير الذي طالع الترجمة كلها...

(10) المدارك ص : 1/41.

المدرسة النظامية في نيسابور التي أسسها نظام الملك. ووزير السلطان «ألب أرسلان» السلجوقي، ليدرس فيها إمام الحرمين عبد الملك الجويني بعد رجوعه من مجاورة الحرمين إلى نيسابور عام 448.

ويتحدث التاريخ بأن نظام الملك هو الذي رتب المرتبات للمدرسين على نطاق واسع، وإن كانت تلك المرتبات وجدت قبله، ولكن على نطاق محدود... وقد بدأت فكرة إعطاء الأجور لمن يقومون بخدمة العلم، ويسهمون في رفع المستوى الثقافي...

وقد تحدث تقي الدين أبو بكر زيد الجراعي الحنبلي (ت 883) في كتابه[11] عن نشأة المدارس فقال : ذكر ابن أبي الدم أن أول من بنى المدارس قوام الدين نظام الملك الطوسي، الحسن بن علي وكان وزير السلطان ألب أرسلان السلجوقي عشر سنين، ثم وَزَرَ لولده ملك شاه عشرين سنة، وكان يحب الفقهاء، والصوفية، ويكرمهم ويؤثرهم... بنى المدرسة النظامية ببغداد، وشرع فيها سنة سبع وخمسين وأربعمائة، ونجزت سنة تسع وخمسين.. وجمع الناس على طبقاتهم فيها يوم السبت عاشر ذي القعدة ليدرس بها الشيخ أبو إسحاق الشيرازي، فلم يحضر، ويقال : لقيه صبي، فقال كيف تدرس في مكان مغصوب، فوسوسه فاختفى، فلما أيسوا من حضوره، ذكر الدرس بها الشيخ أبو نصر ابن الصباغ عشرين يوما.. ولما وصل الخبر إلى الوزير، احتال على الشيخ أبي إسحاق، ولم يزل يرفق به حتى درس بها، وحضر يوم السبت مستهل ذي الحجة، وألقى الدرس بها إلى أن توفي.. وقيل إنه كان يخرج أوقات الصلوات فيصلي بمسجد خارجها...

وبنى أيضا مدرسة بنيسابور تسمى النظامية، درس بها إمام الحرمين، واقتدى الناس به ببناء المدارس[12].

وقد أنكر الحافظ شمس الدين الذهبي في «تاريخ الإسلام» على من زعم أن نظام الملك أول من بنى المدارس، قال : وقد كانت المدرسة البيهقية بنيسابور قبل أن يولد نظام الملك، والمدرسة السعدية بنيسابور، أيضا، بناها الأمير نصر بن سبكتبين أخو السلطان محمود لما كان واليا بنيسابور.. ومدرسة ثالثة بنيسابور بناها أبو سعد إسماعيل بن علي بن المثنى الاستراباذي الواعظ الصوفي شيخ الخطيب، ومدرسة رابعة بنيسابور، أيضا، بنيت للأستاذ أبي إسحاق...

قال الحاكم في ترجمة الأستاذ أبي إسحاق : لم يكن بنيسابور مدرسة قبلها مثلها، وهذا صريح في أنه بنى قبلها غيرها...

قال القاضي تاج الدين السبكي في«طبقاته الكبرى» : أدرت فكري، وغلب على ظني أن نظام الملك أول من رتب فيها المعالم للطلبة، فإنه لم يصحّ لي، هل كانت للمدارس قبله معالم أم لا ؟ والظاهر أنه لم يكن لهم معلوم...

وذكر الشيخ تقي الدين بن تيمية في قاعدة له، قال : «وأحدثت المدارس لأهل العلم، وأحدثت الربط والخوانق لأهل التعبد، وأظن مبدأ الإنشاء ذلك في دولة السلاجقة.. فأول ما بنيت المدارس والرباطات للساكين، **ووقفت عليها وقوف تجري على أهلها في وزارة نظام الملك،** وأما قبل ذلك، فقد وجد ذكر المدارس والربط، لكن ما أظنه كان موقوفا عليها لأهلها، وإنما كانت مساكن مختصة... وقد ذكر الإمام معمربن زياد من أصحاب الواحدي أخبار الصوفية، وأن أول دويرة بنيت لهم في البصرة...

والمدارس، فقد رأيت لها ذكرا قبل دولة السلاجقة في أثناء المائة الرابعة،ودولتهم كانت في المائة الخامسة...

☆ ☆ ☆

وقد امتنع كثير من العلماء في الصدر الأول للإسلام عن قبول الأجر لقاء تعليمهم القرآن والحديث، ولقد يؤثر على العلماء القدماء، أنهم كانوا يتورعون عن أخذ الأجر عن العلوم والفضائل التي كانوا يلقنونها للناس.. كما كان بعضهم يأخذ أجرا على التعليم، فأرسطو وأفلاطون كانا يحصلان أجور التعليم من الطلاب.. ومن هذه الأجور، وما كان يوصي به الطلبة من مال، بنيت مدارس ثابتة دائمة[13].

---

(11) «تحفة الراكع والساجد، في أحكام المساجد» تحقيق الشيخ طه الولي (1980).

(12) تحفة الراكع والساجد ص : 196.

(13) تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى ص : 15.

وفي أساطير اليونان أن الكهنة والسدنة يرتزقون من هبات الناس والقرابين والنذور، وعلى هذا السنن جرى الحال عند الهنود والقبط والفرس وسائر الأمم المتعاصرة في عصور التاريخ الأولى.

☆ ☆ ☆

ومع كون التعليم عند اليونانيين حرا، تبعا لقوانين «سولون»[14] SOLOM، في القرن السابع،ق.م. ما جعلوا مدارس للإناث...

ومن أحاسن أصول اليونانيين في التعليم المأخوذة من شرائع «سولون» أحد حكماء اليونان السبعة. والذي نهض بشؤون التعليم أن كل والد ملزم بتعليم ولده القراءة والسباحة، وأنه إن لم يفعل ذلك أدب.. وسار الرومان على أثرهم حذو النعل بالنعل إلا تغييرات طفيفة قضت بها الاختلافات القومية، وزادوا عليهم بتخصيص البنات بمدارس، وفرضوا الجرايات للمعلمين، بعد أن كانت مهملة عند اليونان حتى اضطرا «ارستيف»[15] الفيلسوف تلميذ سقراط إلى أخذ الأجرة من طلبته، فأغضب عليه «سقراط» طول حياته، لكن كان الملوك وأهل الفضل يعنون بالعلما،ويمدونهم بالإعانات[16].

لقد آثر «سقراط»[17] الفيلسوف اليوناني الامتناع عن تناول الأجر لغاية نبيلة، ومقصد شريف، وهدف روحي وخلقي.. فسقراط يرى أن الوصول إلى الحقيقة ثم نشرها وإذاعتها بين الناس لا يتم على الوجه الصحيح الذي نصل فيه إلى الحقيقة الخالصة إلا إذا ابتعد المعلمون عن شوائب المادة.. فهذا الفيلسوف، كم تذكر كتب التربية، كان أول الممتنعين عن تناول الأجر بالرغم من أنه عاش في عصر السفطائيين المعلمين الذين كانوا يلقنون الشباب علوم البلاغة البيان والجدل والفلسفة، ويتناولون أجورهم على ما يقدمونه للطلبة من علوم وأخلاق، فسقراط خالفهم، فكان يعلم الشباب، ويخلص في تعليمه وتلقينه، ولا يأخذ أجرا، ولا ينتظر ثوابا، بل كان يعلم في كل مكان وجه فيه، سواء في الشارع أو الطرقات أو الأروقة أو الميادين العمومية...

وقد ذكر الدكتور أحمد فؤاد الأهواني الأسباب التي أدت هذا الفيلسوف إلى امتناعه عن قبول لأجر، بأنها فلسفية، ذلك أن الفضيلة يستمدها صاحبها من النفس، ويستطيع أن يصل إلى ذلك العلم بالتأمل، ولا يمكن أن تعلم الفضائل، فلا يستحق المعلم بناء علىذلك أجرا...

وما من شك في أن سلطان المعلم على تلميذه يكون أقوى وأكثر إيحاء، ويكون التلميذ أدنى إلى قبول آراء المعلم. إذا عفّ عن أخذ الأجر، إذ تكون الصلة بينهما روحية معنوية، لا تدخل المادة في علاقة بعضها ببعض فتفسدها...

أما مسألة الأجر عند المسلمين، فقد نشأت عن علة دينية، ونوازع خلقية، وعلى تعليم القرآن والحديث بالذات.. ولم يكن هم المسلمين، كما كان دأب الفلاسفة اليونانيين، الوصول إلى الحقيقة، والبحث عنها، لأن كتاب الله المنزل على عباده فيه جميع ما يحتاجه المرء من فضائل وأخلاق، ونفائس وأعلاق، ومن أراد الوصول إلى الحق، فليحفظ القرآن، ويقبل على سنة رسول الله عليه السلام...

وكان بعض الأساتيذ يأخذون أجورا من طلابهم علىتعليمهم، ومن هؤلاء ابن الأعرابي (ت 230 هـ) وكان دخله من ذلك ألف درهم في كل شهر...

ورووا عن الإمام الشافعي أنه قال : «كنت يتيما في حجر أمي فدفعتني في الكتاب، ولم يكن عندها ما تعطي المعلم، فكان المعلم قد رضي مني أن أخلفه إذا قام، فلما ختمت القرآن دخلت المسجد،فكنت أجالس العلماء، وكنت أسمع الحديث أو المسألة فأحفظها، ولم يكن عند أمي ما تعطيني

---

(14) «سولون» SOLON (640 ـ 558 ق.م) مشرع أثني، أحد حكماء اليونان السبعة نهض بروح الوطنية بين الإثينيين، خفف وطأة الضرائب على الفقراء، ووضع لبلاده قوانين حررتها من قيود كثيرة.

(15) أرستيب، ARISTEPPE، فيلسوف إغريقي، ولد في «سيرين» ليبيا القديمة ق.م. ب 5 قرون تلميذ سقراط.

(16) اليس الصبح بقريب ص : 15.

(17) SOCRATE (465 ـ 399، ق.م) ولد في أثينة فيلسوف يوناني كان معلما في أثنية، كان يلقي دروسه في الأزقة وفي الجماعات بأسلوب عامي يتشابه السؤال والجواب، فكان لها أعمق تأثير، قاوم تعاليم السفسطة، فتحالف عليه أعداؤه، وجروه أمام الحكام، وضغطوا عليهم، فحكمَ عليه بشرب السم في السجن، امتاز بتبتل أخلاقه وشهامته، من الأقوال التي نسبها إليه العرب : «إذا أقبلت الحكمة خدمت الشهوات العقول، وإذا أدبرت خدمت العقول الشهوات».

أشتري بــه قراطيس، فكنت إذا رأيت عظما يَلُـوّح آخـذه فأكتب فيه[18].

وكان الأجر يحدد بالاتفاق بين الطالب والأستاذ.. ذكر الزجاج أن أبا العباس المبردكان لا يعلم النـاس مجانـا، وكان يأخذ على ذلك أجرا، فلما أراد هو أن يتلقى عليه العلم، اتفق معه علىأن يعطيه درهما كل يوم يقتطعـه من عمله في خرط الزجـاج، وظل وفيـا بعهده مدة طويلة من الزمن، كما كان الأجر تختلف قيمته قلة وكثرة بحسب حالـة الطـالب الماليـة، ونوع عمله وصناعته...[19].

وفي العتبية من سماع عيسى عن سحنون عن ابن القاسم عن مالك مرفوعا أن النبي عليـه الـسلام قـدر لمن يعلم الهجـاء ثمانية دراهم، وذكر ما زاد على ذلـك من سور القرآن... وقـال غيره عن مالـك : إذا انتهى الصغير إلى حـد الكتب في اللوح بالقلم، وأحسن الكتب، فللمعلم ثمانية دراهم، وكذلك في التلقين بلا لوح...

وقد ذكر أن عبد الله بن غانم قاضي القيروان، وهو من أصحاب مـالـك (ت 190 هـ) دخل عليـه ولـده من المكتب، فسـألـه عن سـورتـه، فقـال : حـوّلني المعلم من سـورة الحمـد، فقال : إقرأها، فقرأها، فقال له : تهجّها، فتهاجاهـا، فـأعطـاه نحوا من عشرين دينارا، وقال : ارفعها لمعلمك[20].

☆ ☆ ☆

لقد ورد في الحديث : «بجلوا المشايخ، فإن تبجيلهم من تعظيم جلال الله» وفيه : «أكرموا العلماء، فإنهم ورثة الأنبياء» وأنشدوا :

إن المعلـــم والطبيـــب كليهمـــــــــــــا
لا ينصحــــان إذا همـــــا لم يكرمـــــا
فـــاصبر لــدائـــك إن جفــوت طبيبــه
واصبر لجهلـــــك إن جفـــوت معلمـــــا

وقـد حكى الشيخ مـاء العينين أن والـده الشيخ محمـد فاضل بن مامين رضي الله عنه، أنه حكى لـه أنـه كان صغيرا، فرأى رجلا على جمل، وحوله الناس، فدنا منـه الولـد الصغير، وقال له وسأل عنه، فإذا هو سيدي أحمد الولي الشريف الـذي لـه من المزايـا كـذا وكـذا، فجعل يعـدو في أثره حتى وصلـه، فقـال لـه الشيـخ : أريـد أن تـدعـو اللـه لي بخير، فقـال لهم الشريف : من هو هذا الصبي الذي يقول هذا ؟ فقـالوا لـه : ذاك ابن مـامين، فقـال لهم : إرفعوه إلي، فرفعوه لي، فوضعـه على فخذيه بعد أن مسح رأسـه : «تريـد أن أدعو لـك بـالعلم الظاهر، أو بالعلم الباطن ؟ فقال لـه الشيخ محمد فـاضل بن مـامين : أريـد أن تـدعـوا لي بها، فقـال لـه : «إن كنت تريدالعلم الظاهر، فتعلم هذه الأبيات :

واصبر على مُرِّ الجفـــــــــــــا من معلم
فـــإن رســـوم العلم من نفراتـــــه
فمن لم يـــــذق ذل التعلم ســـاعـــة
تجرَّعَ كأس الجهــل طــول حيـــاتـــه
ومن فــاتـــه التعليم وقت شبـــابـــه
فكبر عليـــه أربعـــا لـــو فـــاتـــه

وإن كنت تطلب العلم البــاطني، فتعلم هــذا البيت، وقـدم فتوحـا، إذ عليـه مـدارهـا، فـإن طريق الشيخ. بـذل العطيـة، فتعلم الشيخ البيتين، وعمل بها مـا شـاء اللـه، حتى أعطاه الله ما أعطاه بالتمام...

☆ ☆ ☆

وقـد كان في الكتـاب ضرب وحبس، كما هو معلوم، فيما روى الأغـاني عن إبراهيم الموصلي،وقـد صور أبو نواس الضرب فيه تصويرا لطيفا كعادته، فقال :

إنني أبصرت شخصـــــــــــــــــــــــا
قـــد بـــدا منـــه صـــدود
جـــالـــســـا فـــوق مصلى
وحـــواليـــــه عبيـــــد

(18) «جامع بيان العلم» ص : 1/98.
(19) «معجم الأدباء» ص : 18/191.
(20) «معالم الإيمان» معرفة الصلحاء والعلماء من أهل القيروان، لابن ناجي القيرواني ص : 1/228 ط : العربية بتونس عام 1320.

فرمى بالطرف نحوي
وهو بالطرف يصيد
ذاك في مكتب حَفْصٍ
إن حفصا لسعيد
قال حفص أجلدوه
إنه عندي بليد
لم يزل مذ كان في الدرس
عن الدرس يحيد
كُشِفَت عنه خُزوزٌ
وعن الخز بُرُود
ثم هالوه بسير
لَيِّن ما فيه عود
عندها صاح حبيبي
يا معلم، لا أعود
قلت : يا حفص اعف عنه
إنه سوف يجيد

وقد رأى ابن رشيق، يوما محمد بن عبد الله الناجحون الضرير[21] في المكتب طافحا وهو يقول للصبيان ويخاطبهم عند الغضب :

يا فراخ المزابل
ونِتَاج الأراذل
إقرأوا، لا قرأتم
غير سحر وباطل
روح اللّه منكم
عاجلا غير آجل

ولقد كان الأندلسيون يقبلون على العلم لذات العلم، فالعالم عندهم معظم من الخاصة والعامة، يشار إليه، ويحال عليه، وينبه قدره وذكره عند الناس، ويكرم في جوار أو ابتياع حاجة، وما أشبه ذلك...

(21) هو من أبناء قفصة، خرج منها صغيرا، كان يسرد جميع ديوان أبي نواس، ويقرأ القرآن بروايات، ولم يكن له صبر على النبيذ.. وكان يعلم الصبيان (ت 414 هـ) «نكت الهميان»، للصفدي ص : 259.

(22) محمد بن إبراهيم التوري : «إزالة الغشاوة، في أجر التلاوة» سوس العالمة ص : 195.

اليس الصبح بقريب ص : 45.

ومع هذا، فليس لأهل الأندلس مدارس تعينهم على طلب العلم، بل يقرأون جميع العلوم في المساجد بأجرة، منهم يقرأون، لأن يعلموا، لا لأن يأخذوا جاريا.. فالعالم فهم بارع، لأنه يطلب ذلك العلم بباعث من نفسه، وحافز من شعوره، يحمله على أن يترك الشغل الذي يستفيد منه، وينفق من عنده حتى يعلم، وكل العلوم لها عندهم حظ واعتناء...

☆ ☆ ☆

لقد تنازع أهل العلم في تعليم القرآن والعلم بالإجازة،[22] فقال الحسن البصري، وابن سيرين والشعبي وعطاء ومالك، والشافعي ذلك جائز، وبه مضى العمل عند الشيوخ، فلقد أعطى عمر للناس غير المهاجرين والأنصار وأبنائهم من بيت المال، بمقدار ماعندهم من القرآن.

وفي العتبية من سماع عيسى عن سحنون عن ابن القاسم عن مالك مرفوعا : أن النبي عليه السلام قدر لمن يعلم الهجاء ثمانية دراهم، وذكر ما زاد على ذلك من سور القرآن،[23] وقال غيره عن مالك : إذا انتهى الصغير إلى حد الكتب في اللوح بالقلم وأحسن الكتب، فللمعلم ثمانية دراهم[24]، وكذلك في التلقين بلا لوح...

قال الإمام الصنعاني :[25] «ومن العلماء من رخص في أخذ الأجرة على التحديث، منهم أبو نعيم الفضل بن دكين شيخ البخاري وأحمد وإسحاق بن راهُوية وابن المبارك وخلق.. كان يأخذ العوض على التحديث بحيث إنه كان إذا لم يكن مع الطلبة دراهم صِحاح، بل مكسورة، أخذ صرفها، أي الصرف الذي يكون بين القطع الصغيرة والكبيرة، وكان يقول : «يلومونني على الأخذ، وفي بيتي ثلاثة عشر إنسانا، وما بيتي رغيف !!».

وقال الزهري، وإسحاق، والنعمان يكره أخذ الأجرة على التعليم، وقال ابن ناجي عند قول المدونة : «ولابأس بالإجازة على تعليم القرآن هو مثل قوله، ولابأس في الرسالة والجلاب، وأرادوا به صريح الإباحة، ولا يقال لما

(24) اليس الصبح بقريب ص : 45.

(25) في : «توضيح الأفكار، شرح تنقيح الأنظار» ص : 2/254. للسيد محمد بن المتوكل إسماعيل بن صلاح اليمني الصنعاني(ت 1182 هـ).

غيره خير منه، لأن أبا حنفية يمنع الإجارة على تعليمه، لأن الدليل دل على ضعفه في البخاري عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : «إن أحق ما أخذتم عليه أجرا كتاب الله»[26].

وقال ابن رشد : إجازة ذلك هو المذهب، وأجمع عليه أهل المدينة، وهو الحجة على من سواهم....

وذكر خليل طوطح في كتابه [27]: «أن كبار الأئمة أجازوا أخذ الأجرة على تعليم القرآن، وإن أجازوه على تعليم القرآن، فلا ريب أنهم لم يحرموه على تعليم بقية المواضيع الدراسية».

وقد ذكر أبو علي سيدي الحسين بن علي بن طلحة الرجراجي الشوشاوي في كتاب : «الفوائد الجميلة، على الايات الجليلة»، في الباب السادس[28] منه في حكم التعليم بالأجرة ثلاثة أقوال :

1 - الجواز مطلقا.

2 - المنع كذلك.

3 - والجواز على وجه الإثابة، لا الإجارة، وذكر أدلتها، وأطال، وقال في الأول، منها، هو القول الصحيح، وعليه درج صاحب المختصر وابن الحاجب وغيرهما[29].

وإلى هذا أشار محمد بن قاسم السجلماسي الرباطي بقوله :

وجـاز أخـذ عـامـل القرآن
أجرا على التعليم للـولـدان

وقد لخص هذه الأقوال، ونظمها شيخ الجماعة بالرباط العلامة الفلكي المقرئ أبو عيسى المهدي بن عبد السلام بن المعطي متجنوش الرباطي[30] في منظومته[31]، حيث عقد لها بابا بعنوان : «أجرة المؤدب على التعليم» :

واختلفـوا في أجرة التعليم
على كتـاب اللـه للفهيم

فقـال مـالـك : أجـزهـا مطلقـا
أبـو حنيفـة بمنـع نطقـا

وبعضهم جـوزهـا إثـابـه
لا أجرة وفصلن خطـابـه

وكلهم لـه دليـل قـاطـع
أوضحـه الأخير عنـد السـامـع

وقـول مـالـك هـو المعمـول بـه
دليلـه أقطـع، فـافهم وانتبـه

ولا خـلاف عنـدنـا في المـذهب
جـوازهـا إجـارة بـالمـذهب

من لم يُجـز ذاك من أهـل العلم
فهـو محجـوج بجـل القـوم

لأن من أجـاز ذاك عـالمـون
قـالـه العـلامـة ابن سلمـون

نعم خـلاف، في طريـق الجعـل
لأنهـا مـوصـوفـة بـالجهـل

(26) أسنده البخاري في الطب عن ابن عباس رفعه في قصة اللديغ الذي رقاه أحد النفر من الصحابة، وهو ابن مسعود بفاتحة الكتاب على شاة شرطها، فبرأ. وكره أصحابه ذلك، وقالوا له : أخذت على كتاب الله أجرا، حتى قدموا المدينة، فقالوا : يا رسول الله أخذ على كتاب الله أجرا، فذكره، وعلقه البخاري في الإجازة جازما به.. فقال : وقال ابن عباس عن النبي عليه السلام : أحق ما أخذتم عليه أجرا كتاب الله، لكنه في الطب علقه، أيضا بصيغة التمريض فقال : ويذكر عن ابن عباس عن النبي ﷺ، قيل وإنما علقه في الطب بصيغة التمريض مع إيراده له متصلا في صحيحه لروايته له بالمعنى [كشف الخفا ص : 1/257 و 1/61].

(27) «التربية عند العرب» ص : 43.

(28) الباب السادس، من كتاب الفوائد الجميلة، على الآيات الجليلة ص : 2/132. وكتاب الفوائد الجليلة «رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في العلوم الإسلامية» دراسة وتحقيق الأستاذ عزوزي إدريس، وقد التزمت وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية طبعه.. وهو كتاب ذو قيمة بالغة.

(29) أنظر شرح، «العمل المطلق» ص : 212.

(30) كان عالما مشاركا في كثير من الفنون، متضلعا في علم القراآت مطلعا على وجوهها وأحكامها عارفا بتطبيقها على الآيات والنطق بها، ماهرا في علم الفرائض والحساب والتنجيم والتعديل. له من المؤلفات، «شفاء العليل، على فرائض مختصر خليل» في مجلد جمع بين الفقه والعمل والحساب، «والتبصرة والتذكرة» في علم الحساب، و«نتيجة الأطواد، في الأبعاد»، و «تحفة السلوك» منظومة في التوقيت بالحساب، وشرحها : «الألوك» ومنظومة في معرفة الجيوب بالحساب، و«رعاية الأداء في كيفية الجمع بين السبعة القراء».. إلى ذلك من تآليفه العديدة. معجم الشيوخ ص : 2/51.

(31) «هدية المؤدب، المبينة أحكام المؤدب والصبيان في المكتب» خ.ع.ك 1984، ضمن كناشة. وله، أيضا أرجوزة أخرى في تربية الصبيان بالكتاب بمكتبة المرحوم عبدالله الجراري، وهي تشتمل على 69 بيتا.

جوازها لصاحب الرسالة
وبعضهم منع للجهالة
هل يتحذق الصبي أولا
وأول متى يكون حل
يستصغرون ما الا لاه عظما
وهو كلام لعظيم العظما
ثم إذا علمت ما تقرّرا
في وقتنا، فينبغي أن يُظهرا
مؤدب جلوسه في المكتب
للمال، وهو غاية في الطلب
لكنه نيته في السر
لله خالصا بعكس الجهر

☆ ☆ ☆

لقد كان جلوس العلماء للتدريس والوعظ والتعليم دون أجر مادي ودون رغبة في جاه أو مال دليلا على إخلاصهم لعلمهم، وتفانيهم فيه، إذ لم يكن لهم هناك دافع سوى خدمة العلم والرغبة في الثواب، ومن أجل هذا، اجتمع علماء ما رواء النهر، وأقاموا «مأتم العلم» لما بلغهم خبر بناء المدرسة النظامية ببغداد، وقالوا : كان يشتغل بالعلم أرباب الهمم العلية، والأنفس الزكية الذين يقصدون العلم لشرفه، والكمال به وإذا صار عليه أجرة تدانى إليه الاخساء وأرباب الكسل، فيكون ذلك سببا لمهانته وضعفه...

وذكر شمس الدين بن الجوزي في كتابه : «نهاية النهاية في طبقات القراء أن الحسن البصري مر ذات يوم بأبي عمرو بن العلاء، وحلقته متوافرة، والناس عكوف عليه، فقال : «من هذا ؟... فقالوا :«أبو عمرو بن العلاء، فقال : لا إله إلا الله، كادت العلماء تكون أربابا، وكل عز لم يؤكد بعلم، فإلى ذل يصير. وذكر أبن قتيبة الدينوري في «عيون الأخبار» أن الأحنف بن قيس التابعي الجليل هو الذي قال : «كاد العلماء أن يكونوا أربابا، وكل عز لم يؤكد بعلم، فإلى ذل يصير.

فهذه الجهود التي يبذلها العلماء، هي رؤوس أموال، تقدر قيمتها، ومع كل هذا لم يكن يتقاضى عليها أصحابها مقابلا، لأنهم اعتبروا تلك الجهود وجها من وجوه البر، فكان عملهم خالصا لوجه الله، وخاصة في ميدان الفتوى وتلقين العلم والمعرفة...

وقد قال أبو زيد عبد الرحمان الفاسي في كتاب «الأقنوم في مبادئ العلوم»[32].

وأفضل التعليم ذو التطوع
فذو الإجارة الذي لم يمنع
وما على القرآن من أجور
يعطى، بجائز على المشهور
ثمن شغل بدن الشيخ فقط
كبيع مصحب لرق ولخط

☆ ☆ ☆

هذا، وقد وقع الإيغال في تقاضي الأجر، فنعم المدرسون بمستوى مالي لائق، إذ كان الطلاب يبذلون لهم أقصى ما يطيقون ليحصلوا العلم، فقد أجرى الخليفة المقتدر على ابن دريد خمسين دينارا، في كل شهر حينما قدم بغداد فقيرا[33].

ويحدثنا ياقوت الحموي[34] عن الأساتذة الذين كانوا يلقون محاضرات عليا لطبقة راقية من الطلاب الدارسين، تشتمل على مواد راقية، وثقافات عالية، بيد أنهم كانوا يتقاضون لقاء تلك المحاضرات أجورا من الطلاب أنفسهم، فكانت تلك بمثابة معاهد حرة أنشأها أولئك المعلمون في وجه من له القدرة على الأداء والوفاء... وقد وجد المعلمون في مثل هذا اللون من الدراسة لونا جديدا من الترف والنعيم أعطاهم مستوى ماديا لائقا، إذ كان الطلاب يبذلون

---

(32) نظم رجزي لعبد الرحمن الفاسي (ت 1096 هـ) في نحو السبعة عشر ألف بيت، وفي ترجمة مؤلفه من « نشر المثاني» للقادري : أنه اشتمل على مائة وخمسين علما أو أزيد، وفي «الصفوة» للافراني : اشتمل على أزيد من ثلاثمائة علم، ولكن ناظمه لم يكمله.. أنظر بيان ما في نظم الأقنوم من الفنون مع بيان عدد أبيات كل فنّ إظام الحكومة النبوية] ص : 2/195. وقد اهتمت هذه المنظومة بالمناهج التعليمية حسب الموضوعات التالية : «علم التدريس 8أبيات، على آداب القراءة 81 بيتا، علم التأليف 6 أبيات.

(33) الفهرست ص : 9.

(34) معجم الأدباء ص : 47. 1/48.

أقصى ما يطيقون ليحصلوا على المعارف والعلوم، فقد حدث الزجاج، كما في «معجم الأدباء» قال : كنت أخرط الزجاج، فاشتهيت النحو، فلزمت المبرد لتعلمه، وكان لا يعلم مجانا، فقال لي : ما صناعتك ؟ فقلت : أخرط الزجاج، وكسبي في كل يوم درهم، ودانقان، أو درهم ونصف، وأريد أن تبالغ في تعليمي، وأنا أعطيك كل يوم درهما، وأشرط لك أن أعطيك إياه أبدا... إلى أن يفرق الموت بيننا، استغنيت عن التعليم، أو احتجت إليه، قال : فلزمته، وكنت أخدمه في أموره مع ذلك، وأعطيه الدرهم، فينصحني في العلم، حتى استقللت، فجاءه كتاب بعض بني مازنة من الصراة، يلتمسون معلما نحويا لأولادهم، فقلت له : «أسمني لهم، فأسماني، فخرجت، فكنت أعلمهم، وأنفذ إليه في كل شهر ثلاثين درهما، وأزيده بعد ذلك بما أقدر عليه، ومضت مدة على ذلك، فطلب من عبيد الله بن سليمان مؤدبا لابنه القاسم، فقال له : «لا أعرف لك إلا رجلا زجاجا بالصراة مع بني مازنة، فكتب إليهم عبيد الله، فاستنزلهم عني، فنزلوا له، فأحضرني، وأسلم القاسم إلي، فكان ذلك سبب غنائي، وكنت أعطي المبرد ذلك الدرهم في كل يوم إلى أن مات.. ولا أخليه من التفقد بحسب طاقتي.

☆ ☆ ☆

كما أصبح طلب العلم يتطلب مالا، وكان الطلبة ينفقون ما قدروا عليه في سبيل الحصول على العلم، يقول القاضي عياض[35] «ذكر الصدفي، قال : لما بلغ ابن المبارك، دفع إليه أبوه خمسين ألف درهم يتجر بها، فطلب العلم، حتى انفذها، فلما انصرف لقيه أبوه، فقال : «ما جئت به »؟ فأخرج إليه الدفاتر، فقال : «هذه تجارتي» فدخل أبوه المنزل، فأخرج له، ثلاثين ألف درهم، وقال : «خذ هذه، فابتغ بها تجارتك، فانفقها...».

وفي موضع آخر من المدارك، قال أبو العرب : قال محمد بن معاوية الحضرمي الطرابلسي : «كان بقي على شيء من الموطأ من كتاب الصلاة، فأتيت إلى مالك، وقد دخل الناس، فقال لي : من يقرأ لك ؟ فقلت : حبيب، وكنت قاطعته بخمسة دراهم، ويقرأ من الكتاب خمسا وعشرين ورقة، فقرأها لي حبيب في مجلس واحد، وقال لي حبيب : لم تغتني دراهمك يا مغربي[36]، وقال الشافعي : كنت وأنا في الكتاب، أسمع المعلم يلقن الصبي، فأحفظ ما يقول، ولم يكن عند أمي ما تعطي المعلم، وكنت يتيما، وكان المعلم يرضى مني بأن أخلفه إذا قام، ولقد كانوا يكتبون، وقبل أن يفرغ من الإملاء حفظت جميع ذلك[37]. وكان محمدبن علي ابن إسماعيل الذي عرف بمبرمان مثلا قيما بالنحو، لا يقرى سيبويه إلا بمائة دينار[38] كما كان شمس الدين السيوطي عالما بالعربية، ماهرا فيها، حسن التعليم لها،وكان يقرى كل بيت من ألفية ابن مالك بدرهم[39].

وقد أشار السيوطي إلى امتناع بعض المشايخ من إعطاء الإجازة إلا بالمال.. ولم تقرر هذه العادة إلا في عصر متأخر من عصر القابسي.

وقد ذكر أبو الحسن القابسي[40] : «... إن الأجر ضروري، لأنه لو اعتمد الناس على التطوع لضاع كثير من الصبيان، وما تعلم القرآن كثير من الناس، فتكون هي الضرورة القائدة إلى السقوط في فقد القرآن من الصدور، والداعية التي تثبت أطفال المسلمين على الجهالة».

☆ ☆ ☆

كما كان الأساتذة والطلاب يتقاضون علاوات، وكل ما يحتاجون إليه طوال السنة، ويتمتعون بحق السكنى مجانا، كما

---

(35) المدارك ص : 3/38.

(36) نفس المصدر ص : 3/223.

(37) نفس المصدر ص : 3/175.

(38) بغية الوعاة ص : 74.

(39) البغية ص : 37.

(40) **لأبي الحسن علي بن خلف القابسي القيرواني (ت 403 هـ) رسالة** مفصلة : «لأحوال المعلمين والمتعلمين» تلك الرسالة التي تعتبر وثيقة فريدة من نوعها حيث وضحت المناهج التعليمية، والأساليب التربوية في إفريقية.. وقد أخرج هذه الرسالة ونشرها، وناقش الآراء التربوية فيها الدكتور أحمد فؤاد الأهواني عام 1968 في كتاب ممتع بعنوان : «التربية في الإسلام» الذي يعد كتابا جليل الفائدة، للباحثين في التعليم وتاريخه عند المسلمين، وهو يصور حالة التعليم في عصره من نواح قلما فطن إليها مؤلفوا ذلك الزمان، كما جاء في مقدمة شيخ الأزهر الأسبق المرحوم مصطفى عبد الرزاق للكتاب، كما يعتبر د. الأهواني كتاب القابسي أكمل كتاب في التربية والتعليم جاء بعد كتاب : «آداب المعلمين» لابن سحنون...

ورد عن الحرشاوي[41] فقد روى عنه «دلفار» زيادة على ما ذكر أن الأساتذة كانوا ملزمين بالمكث في فاس... وقد بنى أبو يوسف المريني المدارس والمعاهد، ورتب لها الأوقاف، وأجرى المرتبات على العلماء والطلبة في كل شهر.

لقد درس بالقرويين طلبة موفورون. تواردوا في مختلف العصور من طرابلس وتونس والجزائر والسودان...

وكان عدد طلبة القرويين الآفاقيين (من جزائريين ومغاربة) يبلغ سبعمائة، بينما لم يكن عدد الأساتذة يتجاوز في الغالب الأربعين...

فكانت سوق العلم نافقة في عهدالمرابطين والموحدين والمرينيين.. وفي أيام أبي عنان المريني كانوا أعز الناس، وأكثرهم عددا، وأوسعهم رزقا[42].

وقد انحل المغرب، فكريا، أيام الوطاسيين، ثم عاد إلى الانبعاث في عهد الشرفاء، فتطورت حركة البحث والتأليف وتخرج من القرويين علماء أفذاذ، لا تزال آثارهم الرائعة تشهد بقيمتهم العلمية الفذة.

وقد قسم علماء التربية الأجور التي يتقاضاها الأساتذة والمعلمون إلى قسمين :

1 - قسم يتعلق بالزمن، وهو ذاك الذي يقوم به جميع الأطفال تقريبا، وهو عبارة عن مبلغ من المال يدفع أسبوعيا أو شهريا، أو رغيف من الخبز، يدفع كل أسبوع.. وقد ذكر ابن سحنون قال : حدثونا عن سفيان الثوري عن الصلاء بن السائب قال : قال ابن مسعود : ثلاث لا بد للناس منهم :

أ - من أمير يحكم بينهم، ولولا ذلك لأكل بعضهم بعضا.

ب - ولا بد للناس من شراء المصاحب وبيعها، ولولا ذلك لبطل كتاب الله.

ج - ولا بد للناس من معلم يعلم أولادهم، ويأخذ على ذلك أجرا، ولولا ذلك لكان الناس أميين.. ومبلغ آخر من المال يدفع في مناسبات الأعياد والمواسم، وفي بعض الأحوال كان يدفع مقدار القمح والذرة بدل دفع النقود الأسبوعية أو الشهرية...

2 - قسم يتعلق بذلك القسط الذي كان يدفعه الطفل الذي يصل في حفظه إلى تمام سورة «تبارك» أو «الرحمن»: فكان عليه، عندئذ، أن يقدم للمعلم شيئا يعد من تكريمه وشكره...

☆ ☆ ☆

لقد كان يمسك بحساب نفقات جامع القرويين أيام المرينيين ناظر يدعى ابن الحاج، ويروي أن مجموعها ارتفع إلى أربعمائة وثمانين ألف دينار، ولكل مدارس فاس الأخرى بعض الشبه مع هذه[42 مكرر].

ويوجد في كل معهد أساتذة من مختلف العلوم، فهذا يعطي درس الصباح، وذلك درس المساء، ولجميعهم مرتبات ممتازة أوصى بها واقف ومؤسس المعهد، وكان كل طالب، في الماضي، من طلاب هذه المدارس معفى من مصروفاته وكسائه خلال سبعة أعوام، أما الآن، فليس له سوى السعي،[43] إذ قضي على الكثير من الأملاك والبساتين في خلال حروب سعيد، والتي كانت عائداتها مخصصة لهذا الاستعمال... ولم يبق حاليا سوى دخل بسيط أمكن معه تسديد معاش الأساتذة الذين يتقاضى بعضهم مائتي دينار، والبعض مائة، وآخرون دون ذلك... ولربما كان ذلك أحد الأسباب التي أدت إلى تدهور قيمة فاس الثقافية.. وكذلك كل مدن إفريقية[44].

وهكذا كان الأساتذة يتقاضون مرتبا يتراوح بين مائة ومائتي دينار حسب طبيعة الدروس التي عهد إليهم بأمر

(41) أحد علماء الجزائر الذين درسوا بفاس في القرن التاسع عشر.

(42) نيل الابتهاج، للسوداني ص : 260.

(42 مكرر) إن معظم حمامات فاس تخص المدارس، وتدفع لها، إجازات مرتفعة تصل بعضها إلى مائتي دينار، والآخر مائة وخمسين، أو أكثر من ذلك أو أقل حسب حجم هذه العقارات، وأكثر طواحين مدينة فاس عددها أربعمائة طاحون. أحباس للمعاهد والجوامع، الوزان ص : 238، و 236.

(43) لا يقيم في هذه المعاهد سوى بعض التلامذة الغرباء عن المدينة، والذين يتحقق معاشهم بفضل صدقات أهل فاس والمناطق المجاورة. وصف إفريقيا ص : 143.

(44) «وصف إفريقيا» للحسن بن محمد الوزان الزياتي، تحقيق وتعليق د. عبد الرحمن حميدة ص : 233.

القيام بها، ولا يمكن قبول أحد في هذه المدرسة بدون أن يكون على إطلاع تام بمبادئ العلوم[45].

أما الدروس الصيفية فلا يلقيها إلا أشخاص عاديون، والدروس الأخرى يعهد بها لرجال أكفاء في جل المواد، ويتقاضى كل منهم عن دروسه مرتبا طيبا، وتقدم له الكتب والاضاءة[46].

ولقد كان يوجد في «تمبكتو»[47] العديد من العلماء والأئمة والقضاة، ولجميعهم مرتبات طيبة من الملك[48] الذي كان يكرم العلماء والأدباء كثيرا، ويباع في هذه المدينة الكثير من الكتب المخطوطة التي تأتي من بلاد البربر، ويجني من هذا البيع ربح يفوق كل بقية السلع[49].

☆ ☆ ☆

ولعل من يصور لنا الحالة المادية للمعلمين، وضوابطها بالنسبة للمربين والفقهاء في العصور القديمة أبو زيد عبد الرحمن الفاسي في «الأقنوم» حيث تحدث عن ما يأخذه المعلم من التلميذ مقابل أتعابه، وجهده المبذول في تعليم الصغار، فقال :

فصـــــل، والأجرة على أقســــــام
بـــالشهر، والحـــذاق، أو بـــالعـــام
ومـــــــالـــــــك روى عن النبي
في حــــــد كتب اللــــوح للصبي
بيـــــــده إن أحسن الكتْب أستحـــق
من الــــدراهم ثمــــانيــا بحـق
إن بلــغ «الملـــك» استحـق أربعــة
من الــدنـــانير، ومثلــه معــه
«للفتــــح» ثم للعـــوان ضعّفــا
فـــإن يقـــع بينهما شرط كفى
القـــايسي محلهـــا مـــا قـــد حكم
عُرفٌ بــــه، والمنــع للجـــلاب عم
وان معلمـــون قـــد تـــداولـــو
فهي لمن عليـــــه ختم يحصــل
أو للـــذي تـــال عليـــه الا عظما
وفي التســاوي، بــالتساوي حكما
وجـــاز أن يشـــاب أن تقـع حصل
دون اشتراط مـع ضرب لــلأجــل
قـــال السنـــوسي، وســواه حيث لم
يـــدر مخـــارج الحروف ذا حرَم

☆ ☆ ☆

لقد أجاز الفقهاء، أيضا، العطية في المواسم والأعياد تقدم للمعلم بدون إلزام ولا إكراه.. وقد قال القابسي في رسالته : «عطية العيد لا يقضى بها إلا أن يتطوعوا من شاء منهم فعل ،ومن شاء لم يفعل» ويقول ابن حبيب المالكي : «وفعل ذلك حسن ممن فعله، وتركه من آباء الصبيان لمعلميهم، ولم يزل ذلك مستحسنا في أعياد المسلمين...».

ثم أوجب الفقهاء العطية في العيدين، نزولا على العرف السائد، فالأصل في الحكم عدم القضاء بالعطية في العيد إلا إذا تطوع الآباء، ولكن للعادات حكم آخر، لذلك أوجب القابسي دفين القيروان قرب بركة الأغالبة العطية في الأعياد، أو كما يقول: وكذلك المسلمون عندي في هذه العادات، إذا كانت

(45) المصدر السابق ص : 144، وهذا بمدينة مراكش، وفي أيام الخليفة الموحدي ابن يوسف يعقوب بن عبد المومن الملقب بالمنصور، حيث تقوم في القصبة مدرسة جميلة، ومؤسسة للدراسات ولسكنى طلاب متنوعين...

(46) المصدر السابق ص : 230.

(47) «تمبكتو» إسم مدينة بناها ملك يدعى منسي سليمان في عام 600 للهجرة، وكان ابن بطوطة أول من ذكر «تمبكتو» 1354م. واستقر فيها العديد من العلماء،والتجار المسلمين الذين كانوا في ولاته.

(48) الملك الذي كان موجودا في أثناء مرور الحسن الوزان كان يدعى عمر بن محمد الندى، وقد نصبه «اسكياء الحاج محمد عام 1493، وتوفي عام 1521، وكان هذا المنصب أسمى مناصب الإمبراطورية.

(49) وصف إفريقيا ص : 541.

مستحسنة في الخاصة، فانتشارها على ما وصفنا يوجبها[50].. وقال سحنون[51] : قلت :فعطية العيد يقضى بها ! قال : ولا أعرف ما هي، إلا أن يتطوعوا بها، قال : ولا يحل للمعلم أن يكلف الصبيان فوق أجرته شيئا من هدية وغير ذلك.. ولا يسألهم في ذلك، فإن أهدوا على ذلك، فهو حرام. إلا أن يهدوا من غير مسألة. إلا أن تكون المسألة منه على وجه المعروف، فإن لم يفعلوا فلا يضر بهم في ذلك، وأما إن كان يهددهم في ذلك، فلا يحل ذلك، أو يخليهم إذا أهدوا له، فلا يحل له ذلك، لأن التخلية، داعية إلى الهدية، فهو مكروه...

وقد لخص هذا المعنى أبو زيد عبد الرحمن الفاسي في «الأقنوم» فقال :

وخلف مـــا يعطـــاه في الأعيـــاد
من المكارمــــة فيــــه بـــاد

وفي هدية المؤدب، تحدث ناظمها السيد المهدي متجنوش في باب عقده للحذقة وحكمها وشروطها وما قاله العلماء فيها كسحنون في العتبية، وابن يونس، وابن الحاج في المدخل، والقابسي، وختمه بباب ما يعطى للمعلم في غير الحذقة... فقال :

هـــذا ومـــا يعطى إلى المعلم
في الأربعـــا والعيـــد والمـــواسم

فجـــائـــز يقضى لــــه إذا جرى
عرف بـــه كشرطـــه بـــلا امترا

لكن إذا العطـــا من الكبير
أو كان الأعطـــا من الصغير

فـــإن تحقـــق المعلم العطـــا
من الصغير نفســـه زال الغطـــا

فـــإنـــه سحت إذا الصغير
لا يملـــك الأشيـــاء أو محجـــور

قبـــولـــه في حقـــه تجريـــح
لـــدى الفـــوائـــد، وذا الصحيـــح

فـــلا يـــؤم أحـــدا بـــالمجـــد
ولا يكـــون شـــاهـــدا لأحـــد

وقد نهى سحنون أن يطلب بعض المعلمين هدايا من الصبيان لأنه : «لا يحل للمعلم أن يكلف الصبيان فوق أجرته شيئا من هدية أو غير ذلك، فإن أهدوا إليه علىذلك فهو حرام، إلا أن يهدوا إليه من غير مسألة...».

لقد تحدث «ليون» الإفريقي في كتابه«وصف إفريقيا» عن الأجور الزهيدة التي كان يتقاضاها مدرسوا الخط والنحو الذين يدرسون بمدينة فاس في عهده، لكن حينما يصل الطفل إلى إجادة جزء لابأس به من القرآن يجب على أبيه تقديم هدية معينة للمعلم، وحينما يختم الطفل حفظ القرآن يقوم الأب بصنع وليمة فخمة لكل التلامذة، وفي أثنائها يكسى الطفل، وكأنه ابن أمير.. ثم يذهب إليها على ظهر جواد أصيل مرتفع الثمن، على صاحب قصر فاس أن يعيره إياه، ويعيره اللباس كذلك، ويصطحبه بقية الأطفال على ظهور الجياد، أيضا، حتى قاعة السماط، وهم ينشدون ألحانا في تمجيد الله والرسول ﷺ، ثم تكون الوليمة التي يحضرها أصدقاء الوالد، ويقدم كل واحد منهم شيئا للمعلم، كما يقدم الطفل المحتفى به كسوة جديدة لأستاذه.. تلك هي العادة المألوفة...

(50) «التربية الإسلامية» للأهواني ص : 207.

(51) «آداب المعلمين» لابن سحنون ص : 308. لقد حاز كتاب : «آداب المعلمين» على شهرة واسعة بين المشتغلين في التعليم، خاصة وأنه من أوائل الكتب العربية الإسلامية في موضوع التربية والتعليم، وبالرغم من صغر حجم الكتاب، فإنه عالج باختصار بعض المواضيع المهمة،مثل : «ما جاء في تعليم القرآن الكريم»، وما «جاء في الأدب»، و «ما يجوز من ذلك وما لا يجوز»، و «ما جاء في الختم، وما يجب في ذلك للمعلم»، و «ما يجب على المعلم من لزوم الصبيان»، و «ما جاء في إجارة المعلم»، وقد تأثر بعض المؤلفين الذين كتبوا في التربية والتعليم فيما بعد، بما جاء في كتاب : آداب المعلمين» ويمكن أن نذكر منهم بصفة خاصة : القابسي، والزرنوجي صاحب «تعليم المتعلم» قال التقي في طبقات الحنيفة : برهان الدين من تلامذة صاحب الهداية مصنف كتاب تعليم المتعلم طريق التعلم، وهو نفيس جدا، أنظر كشف الظنون ص : 425، وص : 42/1. لقد ترجم كتاب «آداب المعلمين» إلى اللغة الفرنسية، وذلك نظرا لمكانته المرموقة في الفكر التربوي العربي الإسلامي، **وقد حقق النص للكتاب الأستاذ حسن حسنين عبد الوهاب** ونقله عنه الدكتور أحمد فؤاد الأهواني، وألحقه بكتابه : «التربية في الإسلام» توفي ابن سحنون في منطقة الساحل عام 256 هـ - 870 م.

ولهؤلاء الأولاد عيدهم في يوم المولد، وعندها يلتزم الآباء بإهداء شمعة للمدرسة، وكذلك يأتي كل طفل بشمعة، ويأتي بعض الأولاد بشموع زنتها ثلاثون رطلا، والبعض أكثر من ذلك، والبعض الآخر أقل.. وتزدان هذه الشموع الجميلة والكثيرة التنميق بفواكه من شمع من أطرافها، وتوقد في بداية الفجر، وتطفأ مع بزوغ الشمس...

ومن عادة المعلم أن يستخدم بعض المطربين الذين ينشدون مدائح الرسول الكريم، وما أن تشرق الشمس حتى ينتهي الاحتفال، وفي هذا موارد لمعلمي المدرسة، وفي بعض الأحيان يبيعون فعلا ما قيمته مائة دينار من الشمع،وأحيانا أكثر من ذلك وذلك حسب عدد التلامذة... ولا يدفع هؤلاء أجرا عن هذه المدارس، لأنها مؤسسة بالهبات التي أعطاها أصحاب الوصايا زكاة عن أرواحهم.. أما فوائد هذه الشموع وأزهارها فتقدم هدايا لأولاد المنشدين[52].

ومن اعتناء المولى إسماعيل بالمدارس ومجازاة المحصلين من طلبة العلم بعد الاختبار والامتحان بإعطاء المناصب الشرعية وغيرها، وحسبكم دليلا ما شهد به الرحالة الإنجليزي «ستيوارت الكومندان» في رحلته لمكناس حيث قال : توجد مدارس عديدة يتعلم فيها الصبيان الكتابة والقراءة والحساب يحفظون القرآن عن ظهر قلب، فإذا ما حفظوه اشترى لهم آباؤهم أفراسا هدية، ويتناول المصحف بيده، ويركب الفرس يتفسح عليه، وتأتي إليهم أجواق الطرب. وسائر صبيان المكتب تذهب للتفسح مع المحتفل به حافظ القرآن، وبعد ذلك من أراد قراءة الفقه يتوجه للمساجد[53].

☆ ☆ ☆

لقد كانت الأوقاف دائما في رحاب العلم، ترصد للعلماءمبالغ هائلة كانت تدفع لهم حيث كانوا مرتبين في أربع طبقات... فالإحسانات إسم للمرتبات في عهد الموحدين، كان للأشياخ الكبار عشرون ألف مثقال، لكل واحد في السنة، يأخذها من قبائل وقرى وضياع وقلاع، ويتحصل له من القمح والشعير والحبوب في تلك البلاد نحو عشرين ألف وسق، ولكل واحد من الاقطاع الاحسان في رأس كل سنة، وهو حصان بسرجه ولجامه، وسيف ورمح محليان، وسبنية، وهي بقجة قماش فيها ثوب طرد وحش مذهب إسكندري، ويسمى «الزردخانة»، وثوبان أبيضان من الكتان عمل إفريقية، وللشيوخ الصغار نصف ما للكبار[54].

لقد كان المغاربة دائما يحسنون إلى العلماء، ويكرمون طلبة العلم، ويمدونهم بالعون، ويرفدونهم بالمؤازة، ويبذلون لهم كل ما يضفي عليهم من الراحة والاستقرار ما يشجعهم على ممارسة مهامهم الدراسية، كما درج ملوك المغرب، في مختلف العصور، إلى أن يحسنوا إلى العلماء،ومن يمت إلى العلم بصلة أو قربى ولا سيما دولة ملوك الدولة العلوية، فمنذ بزوغ شمسها، وإشراقها على ربوع هذه البلاد السعيدة كان العلماء يتفيأون ظلال الخفض والسعة، والراحة والدعة...

لقد كان العرش المغربي يشجع العلم، ويعمل على بثه ونشره في أرجاء المملكة، ويمد القائم على تعليمه بضروب من التشجيع ماديا وأدبيا من خزينة الدولة تارة، ومن الأحباس والأوقاف تارة أخرى، وقد تكون هذه المساعدة، مشاهرة، وقد تكون مسانهة، ومنه ما هو عند كل رأس على ستة أشهر...

فمقدار ما ينوب العلماء من المسانهة ثور وثلاث قلل زيتا قيمتها ليترات ستون، ووسق من جيد القمح، وكسوة تحتوي على كساء وبرنس وقميص وقفطان ملفا، وزجيته وعمامة،ونصف قيمة ما ذكر عند رأس كل ستة أشهر، ويكون تنفيذ السنوي من القمح والشور غالبا في إبان الحصاد، والكسوى في زمن الشتاء، فإن وقع تراخ في دفع ذلك كلا أو بعضا يكتب العلماء للجلالة السلطانية بطلب الموخر، ولا يكون جوابهم إلاالتنفيذ المعجل...[55].

---

(52) وصف إفريقيا ص :264.

(53) الدرر الفاخرة ص : 33.

(54) الموسوعة المغربية، نقلا عن ابن فضل الله العمري، الباب الثالث عشر ورقة 10.

(55) عز وصولة ص :2/163.

وهكذا كانت المرتبات في القديم تعطى على شكل مواد غذائية أو ألبسة أو مال.. فالمرتبات لموظفي المدرسة المستنصرية كانت محددة على الوضع التالي : مخازن الكتب في كل يوم عشرة أرطال خبزا، وأربعة لحما.. وفي كل شهر عشرة دنانير، وللمشرف في كل يوم خمسة أرطال خبزا، ورطلان لحما، وفي كل شهر ثلاثة دنانير، وللمناول في كل يوم أربعة أرطال خبزا، وفي كل شهر ديناران[56].

وينعم الملك، أيضا،على العلماء زيادة على رواتبهم بصلة الأعياد، وما يعطاهم من الإعانات على نحو الزواج والختان والحج، وما يوصلون به كلما قدم السلطان من سفر، وينقص مرتب أهل المرتبة الثانية عن مرتب الأولى بنحو الثلث، وهكذا في سائر الطبقات، ولم يكن ما ذكر من المرتبات بسائر أنواعها عدا شطر السنوي خاصا بعلماء فاس، بل هو شامل لغيرهم وإن نقص المقدر، في الجملة، ولما أسست وزارة الأوقاف المغربية، وأحدثت الضوابط الجاري عليها عملها، أسقط السنوي عن علماء فاس جملة، وعوض لهم عنه مائة فرنك في الشهر، وعوض لأهل مكناس عن السنوي المذكور 490 فرنك عند رأس كل سنة، ولأهل المرتبة الأولى مشاهرة 97 فرنكا وخمسون سنتيما 97.50[57].

☆ ☆ ☆

لقد اعتمد أولئك الأقيال من ملوك الدولة المغربية منذ تأسيسها في تأثيل ملكهم، وإنهاض شعبهم على الحرص الموصول، والجد النزيه، والإخلاص لله، والعمل على إعلان مجده بإعزاز دينه، وبث فنون العلم والمعرفة والثقافة في ربوع المملكة السعيدة بما يوائم فطرة الله، ويلائم طبيعة التقدم، ويساير مقتضى الحياة... فسطروا بذلك صفحات مشرقة خالدة في تاريخ هذه البلاد العزيزة...

لقد وجه ملوك هذه الدولة المغربية قافلة الحياة في طريقها القاصد، وجمعوا حولهم القلوب النافرة الشاردة على هوى واحد، ومهدوا لهذا البلد المسلم، منذ قيضهم الله ملوكا على هذه الأمة، سبيل الاستقلال الخالص الصريح الذي حفظ الكرامة، وأعان على النهوض، فعاشت بلادهم حرة كريمة غنية، عالية الرأس بين الأمم والشعوب في ظلال عرش مغربي منيف، ثابت الأسّ، رفيع الذرى، وطيد الأركان...

ومما يدعو إلى الاعتزاز والفخر، ويبقى مخلدا في جبين الدهر، أن دولة ملوكنا العلويين غنيت بملوك كانوا غرة المجد، وهامة الشرف، وعنوان النجابة والشهامة والنجدة، فقد عملوا، في وقت جمدت فيه القرائح، وخارت العزائم، على إنشاء حضارة مغربية أصيلة، ونهضة فكرية رشيدة، متحررة من ربقة التقاليد، وإسار العادات، بلغت في عهد جلالة الحسن الثاني غايتها المرجوة، وشأوها البعيد، وأمدها المرسوم...

لقد أدى ملوك هذه الدولة المجيدة واجبهم، وخدموا كتاب الله وسنة رسوله في تفان وإخلاص، وقاموا بما عهد إليهم نحو رسالة المغرب الحضارية والثقافية والاجتماعية والسياسية..

فبعد ما قضى المولى الرشيد على الخصم العنيد، والعدو الكاشح، بالعلاج النافع الحاسم الصواب، وحل النزعات الإقليمية، ورد على المغرب وحدته، وجمع كلمته، وأهاب بشوارد الأنفس إلى سواء السبيل، اختط الخطة «الرشيدة» لرفع قواعد العمل المثمر، ونشر العلوم، وتنوير الأفكار، وبث روح المعرفة بين أبناء شعبه، ضاربا المثل بنفسه حتى كان يحضر رحمه الله، مجالس العلماء، ويغشى رحاب القرويين، ولا سيما مجلس العلامة أبي الحسن اليوسي تحفيا له، وإكبارا للعلم، حتى قال فيه هذا الأخير في رسالته للمولى إسماعيل : «ثم جاء المولى الرشيد بن الرشيد، فأعلى للعلم مناره، وأوضح نهاره، وأكرم العلماء إكراما لم يعهد، وأعطاهم ما لم يعد، ولا سيما بمدينة فاس، ففضح من قبله، وأتعب من بعده، ولو طالت مدته، لجاءته علماء كل بلد...».

وقد وجه المولى إسماعيل، الذي امتاز عهده بالمضاء والعدل، عنايته إلى التربية والتوجيه، وبسط رعايته على كل

(56) كوركيس عواد : خزائن الكتب القديمة في العراق ص : 165.

(57) العز والصولة ص : 2/179.

عمل من أعمال الفكر، وإلى كل فن من فنون الثقافة، فسلك سبيل أخيه في إحياء المعاهد، وإعلان شأن المدارس والمساجد، وجعل امتحان الطلبة أساسا لنيل أسمى المراتب، وتبوّئ أسنى المناصب، حتى عم العلم، وانتشرت الثقافة، وخر الجهل الفاضح، في عهده، صريعا لليدين وللفم...

وكان رحمة الله عليه يأمر العلامة المجاطي بختم التفسير في قصره، ثم يقوم بخدمة العلماء الحضور لذلك، ويصب الماء على أيديهم، إجلالا للعلم، وتكريما للعلماء...

وقد بلغ من تمسكه وخدمته للقرآن والسنة أن جمع ذات يوم جنوده، وأحضر نسخة من صحيح الإمام البخاري، وقال قولته الشهيرة في قوة المؤمن الملهم، المخلص الملتزم : «أنا، وأنتم عبيد لسنة رسول الله ﷺ، وشرعه المجموع في هذا الكتاب، فكل ما أمر به تفعله، وكل ما نهى عنه نتركه، وعليه نقاتل»، «وفي أيامه كانت أسواق العلم عامرة، ونجوم أفلاكه نيرة زاهرة»[57].

وهذا محمد بن عبد الله الذي انفسح مدى نظره، واتسع أفق تفكيره، فترك أثرا ضخما، وتاريخا حافلا في ميدان الفكر والثقافة، فقد كان إماما من أئمة الدين، وعلما هاديا من أعلام المسلمين، ترك تصانيف عديدة، وكتبا شهيرة، تشهد لعقليته العملية الفريدة، تقرأ في المشرق والمغرب، فهو الإمام الموهوب لهذه الأمة على رأس المائة، كما قال في حقه عبد السلام بن الخياط القادري رحمه الله...

وقد بلغت الثقافة في عهد المولى محمد بن عبد الله غاية الازدهار، مادام هو أيضا، عالما كبيرا يشجع العلماء على تحصيل المعارف وتأليف الكتب.. فقد أمر ثلاثة من كبار الفقهاء بشرح مشارق الأنوار للإمام أبي الفضل الحسن الصغاني (ت 650 هـ)، الثلث لكل واحد منهم، فكان الثلث الأول من نصيب الشيخ التاودي بن سودة، والثاني للشيخ عبد القادر بوخريص، والثالث للشيخ إدريس العراقي.

والمولى محمد بن عبد الله هو أول من وضع برنامجا دراسيا لجامعة القرويين بمنشوره المؤرخ بعام 1203 هـ 1788 م، والذي جاء فيه : «أمرنا المدرسين في مساجد فاس

(57 مكرر) تاريخ الضعيف.

ألا يدرسوا إلا كتاب الله تعالى بتفسيره، وكتاب دلائل الخيرات، والصلاة على رسول الله ﷺ، ومن كتب الحديث المسانيد والكتب المستخرجة منها، والبخاري ومسلما وغيرهما من الكتب الصحاح، ومن كتب الفقه المدونة، والبيان والتحصيل، ومقدمة ابن رشد، والجواهر لابن شاس، والنوادر والرسالة لابن أبي زيد القيرواني، وغير ذلك من كتب الأقدمين.. ومن أراد تدريس مختصر خليل، فإنه يدرسه بشرح بهرام الكبير، والمواق والحطاب، والشيخ علي الأجهوري، والخرشي الكبير.. لا غير[58].

وكان للمولى سليمان ولوع بزيارة القرويين، وتفقد علمائها، وحضور مجالسهم،والايعاز إليهم بالتصنيف والتأليف في مختلف الفنون والعلوم، وضروب الفكر والمعرفة والثقافة...

ويعد المولى عبد الرحمن ثاني مصلح للتعليم بجامعة القرويين بعد جده محمد بن عبد الله، فقد اهتم بشأن العلم اهتماما زائدا، فألزم جميع قواد إيالته أن يؤسس كل واحد منهم بناحيته كتابا لتعلم الأطفال أمور دينهم، وعد من خالف ذلك، أو تهاون به مجرما يعاقب أشد العقاب.

ومن إصلاحاته التعليمية إصداره ظهيرا يمتاز بالفعالية، ويدل على إدراك عميق سليم، وحكم رائع.. جاء في هذا الظهير الموجه لقاضي فاس : «بلغنا توافر طلبة العلم على العادة، وجدهم في الطلب، غيرأنه قل التحصيل والإفادة، وذلك لمخالفة الفقهاء في إقرائهم الشيوخ، وإعراضهم عما ينتج التحصيل والرسوخ فإن الفقيه يبقى في سلكة سيدي خليل نحو عشرين سنة، وفي الألفية العامين والثلاثة، وكثرة ما يجلب من الأقوال الشاذة، والمعاني الغريبة الفاذة، وكثير التشعيب بالاعتراضات، وعرضها في مناقشة الألفاظ، وردها، ويخلط على المتعلم، حتى لا يدري الصحيح من السقيم، ولا المنتج من العقيم، وفي ذلك تضييع للأعمار، التي هي أنفس المتاجر بلا فائدة، وتعمير الأوقات التي يرجى نفعها بلا عائدة... وما هكذا يفعل أهل الإفادة والتحريم، الذين يحرصون على نفع طلبة العلم، رغبة فيما عند الله من الأجر الكبير، فقد كانوا

(58) محمد الأخضر ص : 272.

يسهلون لهم طرق العلم واستفادته، ويرتكبون ما يقرب تحصيل العلم وزيادته، إذا المقصود هو حصول الفهم والإفادة، والمناقشة في الألفاظ إنما هو لغو وزيادة، وليست بأهل التحريم بعادة، وما تقدم قراءة النحو والبيان والمعقول، إلا لتحصيل الملكة التي يتوصل بها إلى فهم المنقول، فلا ينبغي في الفقه مناقشة الألفاظ، ولا نقل كل ما سوّده الحفاظ، فلا يجاوز الفقيه في سلكة خليل العام، وإن طال ففي عامين، ولا يجاوز في الألفية الشهر والشهرين، كما كان يفعل جهابذة العلم من نقاده، بل كانوا يسردون خليلا في أربعين يوما، والألفية في أقل من ذلك،ويحصل الطلبة في ذلك على علوم جمة، وسائل مهمة، لا يحصلونها في هذا التاطل والتطويل، وعمارة الأوقات بما ليس عليه تعويل، ففي الحديث : مَنْهُومَان لا يشبعان : طالب علم، وطالب دنيا... وحرر في 12/محرم الحرام 1261...[59].

كما ربط المولى محمد بن عبد الرحمن أوثق الصلات بين المشرق والمغرب، فأوفد بعثته المشهورة إلى مصر لتعلم فن الطباعة وعلوم الطب والفلك والجغرافية، وكان له باع طويل، وقدم فارعة من العلوم العقلية كالحساب والتوقيت والتنجيم والموسيقى حيث درس تلك العلوم بالنقد والتحريم، وختم كتاب إقليدس في الهندسة...

وقد راع المولى الحسن الأول رحمه الله حال المسلمين من قناعتهم بالدّون، وقعودهم عن مسايرة التطور والتقدم والتمدن، فجرد من نفسه عزيمة ماضية، وهمة شماء، وأضاء دياجير الجهالة بوميض روحه، وجمع كلمة الأمة حول رأيه، ووحد وجهتها وراء خطاه، وانطلق بها نحو العز المرصود، والكمال المنشود، فبعث البعثات إلى الخارج، إلى ما وراء البحار،وخلف السهوب، بعد أن رد سهام الأعداء الجارحة التي كانت تنوش البلادمن أطرافها...

فلا غرابة إذا اعتبرنا المولى الحسن الأول رحمه الله أبا للنهضة العلمة المغربية الحديثة...

وقد واصل المولى يوسف، رحمه الله، رسالة آبائه الكرام، وأجداده المنعمين، فاستيقظت في عهده روح الوطنية الصادقة لمحاربة المستعمر الذي شن على البلاد حربا في صراحة ووقاحة، وانبعثت في أيامه ثورات ملهبة للحماس للقضاء على الواغل المقتحم الكافر الذي سخره الشيطان الرجيم لإفساد العقول بمدنيته الملحدة، وعليه الشاك!!

والحق، أن المغرب مسح عن أجفانه في عهده فتور الوسن. ونفض عن كاهله غبار الكسل والخمول!!

ففي عهد هذا الملك شيدت مدارس، وأنشئت مؤسسات ومعاهد، في مختلف مدن المغرب وقراه على النمط العصري الحديث، منها مثلا المدرسة اليوسفية بالرباط التي تخرج منها الجم الغفير من شباب المغرب وعيونه وعلمائه كما هو معروف...

وقد امتاز عصر محمد الخامس طيب الله ثراه بالطموح والكفاح، والجلاد والنضال، والعمل على حفز الهمم الوانية، وإيقاظ الضمائر الغافية، وإعزاز القومية المغربية، وتحقيق الأماني الوطنية حتى نالت بلاده في عهده الزاهر استقلالا مطلقا ناجزا، وحرية مهذبة الأطراف...

وقد عانى رحمه الله في سبيل ذلك رهقا شديدا، وكابد برحاء الهموم مع المستعمر الذي أراد للشعب المغربي أن يعيش، أبد الدهر، بين الحفر، متأخرا جاهلا مريضا. لكن همته القعساء، وعزيمته الماضية، أبت عليه إلا أن يأخذ بيد شعبه ليكنه بني الساكين، فعلمه، وفتح بصره وبصيرته. وقاده نحو رابية المجد، ورحاب السعادة الرضية والأمل المطمئن، فنشطت الحركة الفكرية في أيامه، وانتعشت النهضة الثقافية في عهده، وحظيت منه بعناية خاصة، واهتمام بالغ..

وكان رحمه الله يجعل من كتاب الله مصباحا يستضيء به إذا ادلهمت الخطوب، واحلولكت الأحداث، واستبهمت السبل، فيجد فيه الدواء الناجع، والبلسم النافع لمعضلات الحياة...

تلك لمسات خفيفة عن ملوك هذه الدولة الأمجاد، أتينا بها للتدليل على أن هذه الدولة قامت برسالتها الثقافية والاجتماعية والحضارية...

(59) عبد الرحمن بن زيدان : «إحياء العلوم»، مجلة المغرب س : 11/5 ـ 12 ـ 1936 ص : 10 ـ 11.

وتلك نماذج من القادرين الذين أعطوا من أموالهم للعلم والثقافة بقدر ما يستطيعون، وكان من ثمار جهودهم وحماسهم أن تقدمت الثقافة العربية خطوة أو خطوات إلى الأمام في عصور هؤلاء القادرين من أصحاب الهمة، وأصحاب الرؤية الحضارية العالية، وبالطبع، فإن موقف القادرين الذين يهتمون بالثقافة ليس هو الشرط الوحيد للنهضة، ولكنه أحد الشروط المهمة..

ومن بين الشروط الأساسية لأي نهضة ثقافية أن يكون أصحاب القدرة المادية في المجتمع محبين للثقافة، مومنين بها، عاملين بصدق وإخلاص على تشجيعها، مستعدين للتضحية ببعض ما يملكون من أجل النهضة الثقافية دون انتظار عائد مادي من أي نوع...

وفي تاريخنا العربي القديم والحديث نماذج عديدة تؤكد هذه الظاهرة في النهضة الثقافية.. فعندما وصل المامون إلى السلطة، وتولى الخلافة، ازدهرت الثقافة العربية.. لأن المامون كان عالما ومفكرا، وكان محبا للثقافة، مومنا بأن العرب لن ينهضوا إلا إذا نهضت ثقافتهم...

ونذكر من تلك النماذج في تاريخنا الحديث الأمير المصري، «يوسف كمال»، ففي 1909، كما يقول الناقد والمؤرخ الفني صبحي الشاروني : «أوقف الأمير «يوسف كمال» عشرة آلاف جنيه بالقيمة الذهبية لبناء مدرسة الفنون الجميلة، وفي عام 1911، وقف عمارة كبيرة بشارع «توفيق» بالإسكندرية، وأرضا زراعية تقدر قيمتها بأكثر من تسعة وخمسين ألف جنيه ذهبي للصرف منها على مدرسة الفنون الجميلة...

ويسجل التاريخ أن مدرسة الفنون الجميلة التي أنشأها الأمير «كمال» بأمواله كانت أول مدرسة من نوعها في الوطن العربي كله...

وكان طلاب الدفعة الأولى من هذه المدرسة، والذين تعلموا جميعا في مصر وأوروبا على نفقة «يوسف كمال» هم عمالقة الجيل الأول من الفنانين التشكيليين العرب، ومن بينهم : محمود مختار، ومحمد حسن، وراغب عياد، وأحمد صبري وغيرهم...

كما أن في أيام المولى عبدالرحمن العلوي تأسست مدرسة للفنون بالمغرب، وبفاس الجديد، تخرج منها فئة توجه بعضهم لإتمام دروسهم بأوروبا، محمد الجباص بإنجلترا، وعبد السلام العلمي بإيطاليا، وذلك في حدود 1300 هـ[60].

وتختلف الأقطار والديار في قبولها وتلقيها للمعرفة والعلم والثقافة، باختلاف القادة الذين ينهضون بالعبء كما رأينا نموذجين لهم في المثالين السابقين، أو تبعا لأمزجة الأمم والشعوب، أو خضوعا لطبيعة المواقع الجغرافية..

ولقد شهد الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده حين حل بتونس عام 1331، بأن التونسيين أشد قبولا للرقي من المصريين، لو قيض لهم رجال ينهضون بهم، ودارت بينه وبين الأستاذ العالم سالم بوحاجب[61] محاورة بحضور فضيلة الأستاذ **محمد الطاهر بن عاشور بتونس بسبب كسل التونسيين.. فالشيخ يرى سبب ذلك طبيعة الموقع، بينما الشيخ محمد عبده يراه التقاعس عن العمل...**

لقد كانت زيارة الأستاذ الشيخ محمد عبده إلى تونس عام 1905، والجزائر عام 1321 هـ ـ 1903 في الصيف.. وقد

---

(60) الاتحاف، ص : 3/367. وانظر أيضا : «النهضة العلمية على عهد الدولة العلوية «مخطوط م.ح رقم : 11772.

(61) كان للعلامة التونسي «سالم بوحاجب» خادم يقال له : فرجي، فكلما رآه، إلا وينشد :

كلُّ الأمــور إذا ضـاقت لهـا فرجٌ
إلاّ أمُـوري فـإن ضـاقت فمن «فرجي»

فسبحان الله

وتحت إشراف سالم بوحاجب تأسست جريدة الحاضرة للسيد علي بوشوشة. وهي أول جريدة عربية غير رسمية بتونس. [أركان النهضة الأدبية بتونس، الأستاذ الفاضل بن عاشور ص : 36]. كان هذا الفقيه من العلماء العصريين، إلا أنه يختلف عن الأستاذ الإمام في أنه كان رجل دولة، قليل الاتصال بالشعب، ولم تكن له نزعة وطنية شديدة في كهولته، وإن كان قد بدأ أول أمره، ثائرا، مثل الإمام، فقد ألف، مع نفر من زملائه الشباب، جمعية سرية أحدثت أول انقلاب دستوري في تونس... وقد التقى بالشيخ محمد عبده فوجد من آرائه وأفكاره ما ربطها بأواصر ود متين، وفي هذه النقطة التقت تونس بمصر على أيدي زعيمين من زعماء الدين فيها...

نظم الأستاذ عبد الحليم بن سماية[61] بمناسبة زيارة محمد عبده للجزائر قصيدة منها :

وتلـوي إلى تلـــك المجـــالس فكرتي
فتترك قلبي بـــالخيـــال ممتعـــا

محـــافـل كان العلم فيهـــا مجـــالس
أســامر بـــدرا بـــالجلال تقنعـــا

فــأسمـع فصـلا من «حكيم» وحكمـــة
إذا مـا بـدت، خرّت ذرى الـزور رُكّعـا

والواقع أن الشيخ محمد عبده قد التقى لدى زيارته لتونس محاضرة في التربية والتعليم كان لها أثرها البالغ... وقد زارهـا مرتين، الأولى عـام 1300 هـ ودامت أربعين يومـا، والثانية كانت 1321 هـ[63].

لماذا لم يزر الشيخ محمد عبده بلاد المغرب ؟

لقد أخبر السيد رشيد رضا أستاذه الشيخ محمد عبده بأن المغاربة يكتبون إليه، طالبين منه أن يرسل إليهم رجلا مصلحا يجمع بين الشريعة والسياسة، ويعرف شؤون الإدارة، فمال إلى السفر بنفسه، ولكنه عرف الصعوبات التي تحول بينه وبين الاتصال بالسلطان المولى عبد العزيز، لأن الأنجليز والفرنسيين والأروبيين بصفة عامة يعارضون ذلك، ويتربصون الدوائر بالمغرب الأقصى، وهم قد شرطوا أن يكون الأمر سرا، فقرر السيد رشيد رضا إرسال السيد عبد الحميد الزهراوي، ولكن لم ينفذ شيء من ذلك[64]، وكان الشيخ محمد عبده يتوق، في هذا الوقت، إلى زيارة المغرب إلا أن الفوضى التي كانت تسوده حالت دون ذهابه إليه[65].

الرباط : محمد بنعبد الله



(62) عبد الحليم بن سماية ولد بالجزائر عام 1242 ـ 1866، هاجر أبوه مع جده لأمه الشيخ الكبابطي إلى مصر في عهد محمد علي... ولما زار ملك المغرب المولى عبد العزيز الجزائر 1319 هـ استدعى الشيخ عبد الحليم بن سماية للغناء مع الوفد، فبعث بقصيدة إلى السلطان مادحا يقول :

أمـــولاي شمس الفضـــل والعلم والنهى
وأجـــدر من يجري اللبيب ثنـــاءه
علمت بـــأن المثي عن جفني واجب
إليكم، ولكن لي اعتـــذار وراءه

أنظر : «عقود الجواهر، في حلول الوفد المغربي بالجزائر التي طبعت عام 1319 هـ ـ 1902 م. نشر هذه الرسالة وقرظها عبد القادر المجاوي وحمو بن أحمد الدراجي قاضي الحنيفة بالجزائر بتاريخ 17/1319 شوال. وللشيخ «عبد القادر المجاوي» إرشاد المتعلمين» الذي طبع بمصر.. وقد ولد المجاوي بتلمسان وهو من الفقهاء والقضاة، وقد ارتحل أبوه محمد بن عبد الكريم إلى طنجة وتطوان ثم فاس حيث أكمل دراسته بالقرويين. أنظر الحفناوي : «تعريف الخلف برجال السلف» ص : 2/449].

(63) ابن باديس : حياته وآثاره، للأستاذ عمار الطالبي.

(64) تاريخ الأستاذ الإمام ص : 870.

(65) الرابطة العربية ـ أمين سعيد، س : 1/ع : 15 القاهرة ـ الأربعاء 1936/9/2 في حديث للزعيم الكبير السيد عبد العزيز الثعالبي.



للأستاذ عبد القادر زمامة

965 ـ والو المفسر القرطبي..!

وجدت في كتاب «الجامع لأحكام القرآن» وهو المعروف بتفسير القرطبي، المتوفى (671 هـ = 1272م) ج 4 ص 272.

«عند تفسير قوله تعالى : ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً...﴾.

«أغار العدو = قصمه الله = صبيحة الثالث من رمضان المعظم، سنة سبع وعشرين وستمائة، والناس في أجرانهم على غفلة، فقتل، وأسر...! وكان من جملة من قتل والدي ـ رحمه الله ـ فسألت شيخنا : المقرئ الأستاذ أبا جعفر المعروف بأبي حجة، فقال :

ـ غسّله، وصلّ عليه، فإن أباك لم يقتل في المعترك... بين الصفين...!!

ثم سألت شيخنا : ربيع بن عبد الرحمن بن أحمد بن ربيع بن أبي، فقال :

ـ إن حكمه حكم القتلى في المعترك..!

ثم سألت : قاضي الجماعة، أبا الحسن علي بن قطرال، وحوله جماعة من الفقهاء، فقالوا :

ـ غسله، وكفنه، وصل عليه..!

ففعلت..!

ثم بعد ذلك، وقفت على المسألة في «التبصرة» لأبي الحسن اللخمي، وغيرها... ولو كان ذلك قبل ذلك، ما غسلته.. وكنت دفنته بدمه في ثيابه..!!

966 ـ وكان ابن ست وعشرين سنة...!

وجدت في كتاب «تذكرة الحفاظ» لشمس الدين الذهبي، في ترجمة : ابن حزم الظاهري المتوفى سنة (456 هـ = 1063م).

«... قال أبو محمد عبد الله بن محمد بن العربي :

ـ أخبرني ابن حزم : أن سبب تعلمه الفقه، أنه شهد جنازة، فدخل المسجد فجلس ولم يركع..! فقال له رجل :

قم فصل تحية المسجد...!

وكان ابن ست وعشرين سنة..!

قال : فقمت، وركعت...! فلما رجعنا من الجنازة، جئت المسجد، فبادرت بالتحية..!

فقال لي :

ـ اجلس، ليس هذا وقت صلاة..!

يعني بعد العصر..! فانصرفت حزيناً..! وقلت للأستاذ الذي رباني :

دلني على دار الفقيه أبي عبد الله بن دحون، فقصدته، وأعلمته بما جرى علي..! فدلني على «الموطأ»

فبدأت عليه قراءة. ثم تتابعت قراءتي عليه. وعلى غيره، ثلاثة أعوام... وبدأت بالمناظرة..!».

967 ـ النشر بعد الطي...!

وجدت في كتاب : المنهج الفائق : لأبي العباس الونشريسي (تـ 914 = 1508م). ط.حجرية ص.3.الملزمة.7.

«... وقد نزلت بشيخ شيوخنا الشيخ الإمام أبي الفضل بن الإمام... شهد بموت رجل ببلاد المشرق. عند قضاة تلمسان... فقسمت تركته..!!

ثم قدم. وأملى في المسألة رحمه الله مقالة. سماها : النشر بعد الطي. فيمن أقبر وهو حي...!!!

968 ـ خشخاش يقطع المحيط..!

وجدت في كتاب «مروج الذهب» لأبي الحسن المسعودي المتوفى (346 هـ = 957م) أثناء حديثه عن بحر الظلمات «المحيط الأطلنتكي» ج 1 ص 138. تحقيق : شارل پلا.

«.... وقد ذهب قوم إلى أن هذا البحر أصل ماء سائر البحار. وله أخبار عجيبة. وقد أتينا عليها في كتابنا «أخبار الزمان» في أخبار من غرر وخاطر بنفسه في ركوبه. ومن نجا منهم، ومن تلف. وما شاهدوه منه. وما رأوا... وإن منهم رجلاً من أهل الأندلس يقال له : خشخاش. وكان من فتيان قرطبة. وأحداثها. فجمع جماعة من أحداثها. وركب بهم في مراكب. استعدها في هذا البحر المحيط. فغاب فيه مدة. ثم انثنى بغنائم واسعة..! وخبره مشهور عند أهل الأندلس..!!».

969 ـ طنجة... في شعر البحتري..!

وجدت في ديوان أبي عبادة البحتري المتوفى (284 هـ = 898م) ج 2 ص 792. دار المعارف القاهرة 1977م.

«إن شعري سار في بلد
واشتهى رقته كل أحد
قلت شعرا في الغواني حسنا
ترك الشعر سواه. قد كسد
أهل فرغانة قد غنوا به
وقرى السوس. وألطا. وسند
وقرى طنجة والبلد الذي
بمغيب الشمس. شعري قد ورد»

970 ـ الأُصول متقاربة...!

وجدت في الرحلة العياشية ج 2 ص 311 عند الحديث عن مدينة «الرملة» وشيخها خير الدين الرملي :

«... ومما أخبرني به أن عند علماء الحنفية. إذا لم يوجد حكم «الفرع» منصوص عندهم. ووجد حكم ذلك الفرع في مذهب مالك. فإنه يجب العمل به عندهم لأن أصول الإمامين متقاربة..!!».

971 ـ يتيممون على الآبار..!

وجدت في كتاب «الفصل» تأليف الإمام ابن حزم. ج 5 ص 51. ط.بيروت 1985م.

«وشاهدنا «الإباضية» عندنا بالأندلس يحرمون طعام أهل الكتاب. ويحرمون أكل قضيب التيس. والثور. والكبش..!.

ويوجبون القضاء على من نام نهارا في رمضان. فاحتلم... ويتيممون على الآبار التي يشربون منها... إلا قليلاً منهم..!!».

972 ـ خوارج الأندلس..!

وجدت في كتاب «الفصل» تأليف الإمام ابن حزم ج 5 ص 55.

«والعجاردة. هم الغالبون على خوارج خراسان، كما أن النكار من الإباضية هم الغالبون على خوارج الأندلس..!».

793 ـ ورد مراكش..!

وجدت في كتاب «حلبة الكميت» تأليف الشيخ محمد بن الحسن النواجي المتوفى (859 هـ = 1455م) ص 237. ط. القاهرة سنة 1298 هـ.

«... وذكر ابن [illegible] لما عاد من المغرب وكان قد توجه إليه رسولاً. من صلاح الدين أن في مراكش ورداً. كل وردة ما بين الثمانين ورقة... إلى المائة.!».

974 ـ الحاحي... والحيحي..!

وجدت في كتاب «مرآة المحاسن» للشيخ محمد العربي الفاسي ص 12 ط حجرية.

«الحيحي : نسبة إلى حاحة. يستعملها أهل المغرب. على غير قياس..!».

975 ـ ضبط كلمة «انماي»...!

وجدت في كتاب «منهاج الارتحال» لمؤلفه السيد محمد بن العربي بن البهلول الرحالي ص 7. ط. الرباط 1955م.

«... الولي الصالح سيدي : رحال البدالي. نزيل «أنمّايْ» أي بفتح الهمزة والميم المشددة. آخره ياء ساكنة بعد ألف. من حوز مراكش..!».

976 ـ التشْحير...!

وجدت عند الشيخ ابن عربي الحاتمي في كتابه : «الفتوحات المكية» ج 4 ص 112. ط القاهرة 1306 هـ تفسير هذه الكلمة المستعملة في المغرب. حيث يقول : «التشحير : يزيل ما في الذهب من تراب المعدن..!!».

977 ـ وفره، وقلبه...!

وجدت في كتاب = المنهج الفائق. والمنهل الرائق. والمغني اللائق. بآداب الموثق وأحكام الوثائق. = لأبي العباس. أحمد بن يحيى الونشريسي = 914 ـ 1508م. ط. حجرية ص 2. من الملزمة 2.

«... ومن هذا المعنى ما اتفق لأبي العباس أحمد بن علي بن ثابت اللخمي الإشبيلي. قال أبو العباس بن هارون :

اتفق له مع جدي أبي محمد بن جمهور. أن كتب في رسم يتضمن بيع قارب... وفره. وقلبه..!! وجيء بالعقد إلى جدي ليشهد فيه. فوقف عليه. وقال لصاحبه :

ـ وهم الشيخ فيما كتب..! لايقال في القارب. فره. وإنما يقال فيه : ونظر إليه... وقلبه... واختبر عيدانه. وما أشبه هذا...

ثم إن جدي كتب رسم بيع حمار في يوم شات. وذهب بالعقد صاحبه إلى أبي العباس هذا ليشهد فيه. فلما قرأه. وجد فيه. وفره. وقلبه..!!!

فلم يتمالك. أن هبط من دكانه في الشتاء. والعقد في يده. حتى انتهى به إلى جدي... وقال له :

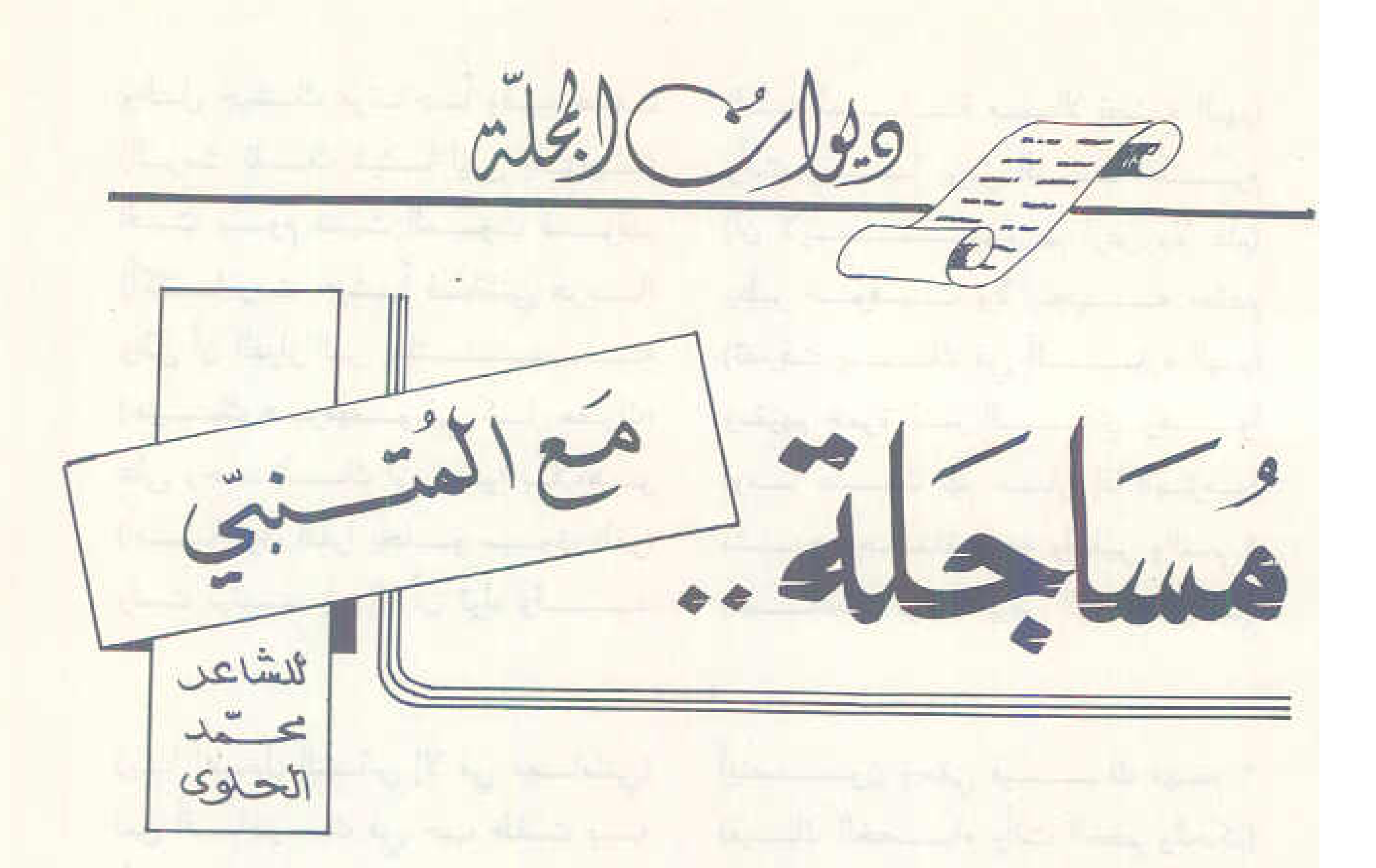
ـ بالأمس رددت علي في رسم بيع القارب... وفره..!!!

وها أنت اليوم قد كتبته في بيع هذا الحمار...!!!

فضحك جدي من غفلته وقلة تحصيله...

رحمهم الله أجمعين...».

فاس : عبد القادر زمامة



(واحر قلباه ممن قلبه شبم) ومن بقربي منه مثقل برم !

من أشتهي طيفه كيما يؤنسني (ومن بجسمي وروحي عنده سقم)

(مالي أكتم حبا قد برى جسدي) ولاعج الشوق باد ليس ينكتم

وكيف أخفي أنا حبا أكابده (وتدعي حب سيف الدولة الأمم)

(إن كان يجمعنا حب لغرته) وذكريات عهود ليس تنفصم

وكان حظي منه دون حظهم (فليت أنا بقدر الحب نقتسم)

(قد زرته وسيوف الهند مغمدة) وشوقها وهي في الأغماد مضطرم

فكان ملء عيوني في ملاحمه (وقد نظرت إليه والسيوف دم)

(وكان أحسن خلق الله كلهمو) بأس وحزم تلاشت عنده الحزم !

وحسن رأي يجلي كل مظلمة (وكان أحسن ما في الأحسن الشيم)

* * *

(فوت العدو الذي يممته ظفر) والفوت موت لمن فرت به قدم !

إدباره عنك ياليث الوغى قدر (في طيه أسف في طيه نعم)

(قد ناب عنك شديد الخوف واصطنعت) بهم جحافله موتا به انفصموا

وظل جيشك مرتاحاً وقد صنعت … (له المهابة مالا تصنع البهم)

(ألزمت نفسك شيئا ليس يلزمها) … وأنت فيما يرضي الله ملتزم

أقسمت يوم صببت الموت فوقهم … (أن لا يواريهم أرض ولا علم)

(أكلما رمت جيشاً فانثنى هربا) … يطير خوفا ولا ينجيه معتصم

وظن أن الفرار المر يفلته … (تصرفت بك في آثاره الهمم)

(عليك هزمهمو في كل معترك) … وسقيهم خمرة النصر الذي وهموا

على رجالك أن يبلوا بلاءهمو … (وما عليك بهم عار إذا انهزموا)

(أما ترى ظفرا يحلو سوى ظفر) … تشدو الحداة به والطير والنسم ؟

ولست ترتاح إلا أن تراه وقد … (تصافحت فيه بيض الهند واللمم)

* * *

(يا أعدل الناس إلا في معاملتي) … أينصفون وحقي فيك مهتضم ؟

لمن أقاضيك في حب ظلمت به … (فيك الخصام وأنت الخصم والحكم)

(أعيذها نظرات منك صادقة) … وكيف تخطئ في رأي وتتهم ؟

وأنت صنو إياس في حصافته … (أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم)

(وما انتفاع أخي الدنيا بناظره) … فيما يراه حواليه ويزدحم !

وما ستجديه عينان ازدهى بهما … (إذا استوت عنده الأنوار والظلم ؟)

* * *

(أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي) … ولقن الشعر من قد عاقه البكم

وردد الكون أصدائي مرتلة … (واسمعت كلماتي من به صمم)

(أنام ملء عيوني عن شواردها) … أذود أشتاتها عني فتنتظم

تضيء كالومض في قلبي روائعها … (ويسهر الخلق جراها وتختصم)

(وجاهل مده في جهله ضحكي) … وغض طرفي كأني سادر وجم

(ما زال يمعن في شتمي ومنقصتي) … ويستفز حليماً ليس يحتدم

ولم يزل يتمادى في حماقته … (حتى أتته يد فراسة وفم)

(إذا نظرت نيوب الليث بارزة) … يمشي الهوينى وتخفي ظله الأجم

كأنه حمل تغري وداعته … (فلا تظنن أن الليث يبتسم)

(ومهجة مهجتي من هم صاحبها) أنا شجاه الذي في حلقه يرم

هبت تطاردني حتى إذا انبهرت (أدركتها بجواد ظهره حرم)

(رجلاه في الركض رجل واليدان يد) كأنه هرم يعدو به هرم !

عنانه رائد يهدي قوائمه (وفعله ما تريد الكف والقدم)

(إذا ترحلت عن قوم نزلت بهم) وكان للضيف في أعراقهم حرم

ففارقوك على طوع وقد قدروا (أن لا تفارقهم فالراحلون همو !)

* * *

(شر البلاد بلاد لا صديق بها) صحراء مجدبة أحياؤها رمم

وخير من تصطفي للود مؤتمن (وشر ما يكسب الإنسان ما يصم)

(وشرقا قنصته راحتي قنص) كأنه في يدي بعد العنا عدم !

لا فضل للمرء في خير ينوله (شهب البزاة سواء فيه والرخم)

(بأي لفظ تقول الشعر زعنفة) أقوى عمالقها في بحره قزم !؟

أبعد ما عافت الدنيا رطانتها (تجوز عندك لا عرب ولا عجم ؟)

(هذا عتابك إلا أنه مقة) وزفرة من فؤاد شجوه نغم

وتاج شعر تناهي في أصالته (قد ضمن الدر إلا أنه كلم !)

تطوان : محمد الحلوي

بمناسبة ما كتبه الدكتور بنشريفة في آداب المغاربة.

ثورة الملك والشعب

للشاعر المدني الحمراوي

يـاغشت ! يـاشهراً تعزز بـالفـدى ... ذكراك لن تمحـا وإن طـال المـدى
شهر التحـدي ! لا يـزال يهزنـا ... يـوم جعلتـه في المغـارب أسـودا
أنهيت في العشرين عهـدا هـادئـاً ... وبـدأت عهـدا بـالكفـاح تـوقـدا
العرش أقـدس مـا لـدينـا؛ فليكن ... مـامسـه حربـا تشن على العـدى
كيف استحـل الغـاصبـون كرامـة ... للشعب إذ مـدوا إلى العرش اليـدا
وتحيفـوا رمـز السيـادة عنـوة ... فجنـو عليهم غضبـة وتمردا
غـاب المليـك؛ فكيف تسكت أُمـة ... أولتـه حبـا بـالـولاء تـأبـدا
بـل هـز أقطـار المغـارب ثـورة ... صـار الفضـاء بنفعهـا متربـدا
وتملـك المحتـل هـول مرعب ... وأقض مضجعـه الفـداء وسهـدا
فـإذا مطـامعـه هبـاء طـائر ... والحـق أوجب مـا تقـول وأيـدا
ويعـود بـالنصر المؤيـد عـاهـل ... وفّى وجـاوز فـوزه مـا حـدّدا
وتبـاشر الشعب الأبي بعـودة ... جعلتْـه في الأوطـان حرا سيـدا
هي ثـورة الملـك الهمام وشعبـه ... قـد حطمت قيـدا ثقيـلا مجهـدا
فتنفس الصعـداء شعب مرهف ... وشـدا هـزار الشعب فيـه وغردا
فلقـد مضى عهـد الحمـايـة بـائـداً ... وتحقـق استقـلالنـا وتـأكـدا

☆ ☆ ☆

يـامحصي الأمجـاد خلـد عـاهـلا ... فـاق الملـوك شهـامـة وتجلـدا
واهـاً لـه من صـالـح ومجـاهـد ... أبلى، وكافـح صـابرا متزهـدا
لم يلهـه الملـك الهني وعرشـه ... عمـا أراد، ولا وهى وترددا

يارب قدس روحه وضريحه ... واجعل رضاك له جزاء سرمدا

بطل تحمل في جهاده محنةً ... حتى تحقق ما أراد وأكدا

ضحى بعرشه في سبيل بلاده ... وتحمل النفي السحيق مشردا

وتحملت معه النكاية أسرة ... ضحت كما ضحى الهمام وأُبعدا

أعظم بمنزلة المليك محمد ... إذ سل سيفان كان قبله مغمدا

هو خامس طبع اللواء بنجمة ... عذراء بالمهج الغوالي تفتدى

بل هو قطب الصالحين وشمسهم ... طلعت على جيش العدى فتبرَّدا

قهر الطغاة بصبره وثباته ... حتى استغل بعرشه وتفردا

وأعاد للوطن الأبي كرامة ... فتحررت أقطاره وتمهدا

ويد من الحسن الأبر تعينه ... ياحبذا مادبَّراه وعبدا

☆ ☆ ☆

يا أسرة العرش المجيد تحية ... ياخير بيت للفداء تكبدا

ضحى فخلد في الكفاح صحيفة ... سيظل سر سطورها متجددا

ومكانة الحسن العظيم جليلة ... ياحسن ما أسدى وحاط وشيدا

ورث الجلالة والولاية يافعا ... برهانه منذ الطفولة قد بدا

قد وحد الوطن الكبير وصانه ... وبنى قواعده الصحاح ونضدا

نفديه من ريب الزمان، ونفتدي ... عرشا له بين الضلوع توطدا

يارب بارك عرشه وجهوده ... وأدمه للإسلام غوثا مسعدا

واجعل عنايتك العزيزة جنده ... وحجابه، يامن أقامه سيدا

حرس الإلاه حياته، وأمده ... بالعون مبتهج - الفؤاد مؤيدا

وأراه في أبنائه ما يرتجي ... وأطال عمره رائدا ومسددا

صان الإله ولي عهده راضيا ... ورعى الرشيد - كما يروم وأرشدا

يارب حط باللطف أسرة عرشنا ... وأدم مفاخرها، وزدها سؤددا

وانصر أمير المؤمنين المرتضى ... آمين، قولاً لا يزال مرددا

الرباط - المدني الحمراوي

مسجد الحسن الثاني

بالدار البيضاء

للشاعر محمد بن محمد العلمي

- أعتقد أن مسجدا يذكر فيه اسم الله، من أكبر المساجد في العالم الإسلامي، يعتبر كذلك جوهرة جديرة بأن يعطيها سكان الدار البيضاء، والمغاربة جميعهم، الأهمية والقيمة اللائقتين بها...

- فأملي شعبي العزيز أن تساهموا في بناء هذا المسجد، ولو بدرهم لكل واحد. وحتى من ساهم بدرهم فقط لكونه غير ميسور، يمكنه أن يسأل الفقيه الذي هو بجواره، ليبين له أن كونه ساهم بهذا المبلغ البسيط، كأنه بنى المسجد، وكأن ثواب بناء المسجد راجع إليه.

من خطاب جلالة الملك الحسن الثاني، بمناسبة أعياد الشباب المجيدة (9 يوليوز 1988م)

ضمت (البيضاء) أبهى مسجد.   إذ به يفخر أهل البلد :

قد بناه (الحسن الثاني) الذي   كتبت آثاره بالعسجد

مسجد منفرد من نوعه،   رائع الصنع، عظيم المشهد

هو بعد الحرمين، المنتهى   في جلال مثله لم يوجد[1]

فيه للذاكر، والراكع، والسا   جد زاد... كوثر لم ينفد

وله مئذنة شاهقة،   نورها ملء الفضاء الأبعد

فوقها التهليل والتكبير قد   غمرا الكون بصوت غرد

فمنار الحق يعلو ناشرا   حوله فضل الإله الأحد !

مسجد يغني تراثا راهيا،   واعيا، أكرم به من معبد !

---

1) المقصود بالحرمين، بيت الله الحرام بمكة المكرمة، والمسجد النبوي الشريف، بالمدينة المنورة.

قد أقمناه على أس التقى ... بتفانينا، فيا دنيا اشهدي !
أدب، في عزة، في هيبة، ... حبذا المسجد، أزكى معهد !
أيها المؤمن أقبل واقترب، ... وإلى الله تبتل، واستجد !
أيها المسلم، لا تشرك به ... أحدا، واصبر، وصابر، واعبد !
فبيوت الله فيها صحوة. ... واهتداء نحو حل العقد
لن يخيب المسلم المؤمن إن ... رام عونا للمغيث المنجد
ليس غير الله من رب لنا، ... محسن، بر، رحيم، معتمد[2]
إنما رحمته في بيته، ... كم محت من نكد أو كمد !
فله الحمد مع الشكر، فقد ... أذهب الحزن عن المستنجد
إنه يأتي بلطف سابغ، ... لم يدر إتيانه في خلدي
وعلى الله توكلت، فما ... غيره حضني ولا معتمدي !
وعلى الماء تجلى عرشه، ... ليس في الحق هنا من فند[3]
من بنى لله بيتا، فله ... في جنان الخلد أسمى مقعد[4]
وكذا الإحسان يبقى بعدما ... يبعث الله الورى من مرقد
(إنما المرء حديث بعده) ... فلنكن عطرا لأجيال الغد !

- ☆ -

إن أعياد الشباب ابتسمت ... بكرامات المليك الأمجد
فسمعنا وأطعنا، وانجلت ... بيعة الرضوان طول الأمد
نحن شعب نقتدي عاهلنا، ... فلنعم المقتدى والمقتدي !
قد تجلى العشق في أعيننا ... شعلة من قلبنا المتقد
ولقد فاحت بعود طيب ... في مغانينا جمار الموقد !
ما لكيون، وفي مذهبنا، ... حصننا من كل طاغ مفسد
نحن ضد الجهل والكفر، فما ... كان منا أي غاو ملحد !
ملكيون، ففي مغربنا ... عهدنا متصل، لم يجحد !
فأمير المؤمنين المرتضى، ... هو رمز للهدى والرشد
ورث الأمجاد من أجداده، ... وأتانا بالمزايا الجدد،
وبه يزهو الرسول المصطفى، ... مصدر النور، ونبع السؤدد
يبتني معلمة خالدة، ... حين يدعونا لأسمى مقصد

2) إشارة إلى ما قاله العاهل الكريم في كلمته السامية : (علينا أن نعلم دائما، أنه حينما تشتد الأزمات، وتظلم جميع النواحي والجهات، لا نجد عونا، ولا نجد راحة واطمئنانا، إلا في الرجوع إلى الله سبحانه وتعالى، والتوسل إليه.

3) الفند (بفتح الفاء والنون) : الكذب، والبهتان، والافتراء... ثم إشارة إلى الآية 7 من سورة (هود) : ﴿وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام، وكان عرشه على الماء، ليبلوكم أيكم أحسن عملا ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت، ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين﴾.

4) إشارة إلى ما جاء في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : (من بنى مسجدا يذكر فيه اسم الله، بنى الله له بيتا في الجنة).

يستوي العرش على الماء، وفي ... صولة العرش البقاء الأبدي

إن بين البحر والأرض لنا ... عبرة في سمتنا المتئد

إنما التوحيد في أوطاننا ... ميزة التفكير والمعتقد

فيه حصن وملاذ للحمى، ... ضد كفر، ودخيل يعتدي

كلمات الله علينا كلها، ... فبها نحو المزايا نهتدي

وهنا، في المغرب الأقصى، لنا ... في ظلال العرش مجد سرمدي

قدوة تلك لنا في سعينا، ... وبها نحن دواما نقتدي

منذ (إدريس)، وهذي أمة ... تعجل الإسلام أقوى سند[5]

كلما اشتدت بها حادثة، ... لجأت في بأسها للصمد

فإذا بالعون مضمون لها، ... في اليقين المستجد الأوكد

وإلى الله رجعنا كلنا، ... نرتجي منه عظيم المدد

إنه باركنا من فضله، ... دولة في عدها والعدد

فوجدنا راحة في روحنا، ... واتجهنا للطريق الأرشد

واعتصمنا كلنا بالله في ... جوهر الذكرى بأقوى عضد

إن حبل الله فيه انتظمت ... أمة تزهو بدين أحمدي

حيث ترضي ربها في ثقة، ... ويقين، مثله لم يعهد

صوتها من أعمق الأعماق، قد ... كان صوت المؤمن المسترشد

تلك في أجيالها من طبعها، ... جذوة ساطعة لم تخمد

والرصيد الحق في أمتنا، ... ماثل في صفها المتحد

نبذل الجهد بحزم وتقى، ... وهدى في طبعنا المجتهد

وضمير (الحسن الباني) لقد ... كان عنوان الرصيد الأوحد

سره من جده خير الورى ... قد تحدى كل باب موصد

تلكم الشمس تجلى نورها ... دون شك، في شعاع الفرقد !

حين أعطانا مثالا رائعا، ... في العطاء المستفيض الأجود[6]

عهده الزاهر نلقى عنده، ... طفرة الروح، وصون الجسد

فيه من كل نهوض مشهد، ... من بقاء، لصفاء المورد

جهده لا ينتهي إلا وقد ... كان في السبق شجاعا يبتدي !

ومن التوحيد، والفتح له ... صولة وأتت عرين الأسد

لم يخب في سعيه إذ ما دعا : ... يا إلهي المرتجى خذ بيدي !

5) المقصود المولى إدريس الفاتح الأكبر، دفين مدينة زرهون، والذي إليه يرجع الفضل الأكبر في تأسيس الدولة المغربية، منذ اثني عشر قرنا.

6) إشارة إلى أن صاحب الجلالة، قدم هبة مالية لبناء مسجد الحسن الثاني بالدار البيضاء، بلغت أربعة ملايين درهم، كما وقع جلالة الملك شيكات أخرى باسم صاحب السمو الملكي ولي العهد الأمير سيدي محمد، بمبلغ مليون درهم، وصاحب السمو الملكي مولاي رشيد، بمبلغ 800 ألف درهم، وصاحبات السمو الملكي الأميرات الجليلات للا مريم، وللا أسماء، وللا حسناء، بمبلغ 300 ألف درهم لكل واحدة منهن. وللا سكينة 200 ألف درهم.

وبقاء الحق في دولته ... مستمر، مشرق، لم يبد

ولنا فيه ولاء دائم، ... عنه في أوطاننا لم نجد

كيف لا، وهو من (الخامس) ؟! قد ... سكن القلب، وعمق الكبد ؟!

تلكم الدوحة تعتز به، ... فهو للوالد أزكى ولد !

نعمة الله، وفضل دافق : ... قد سعدنا بالمليك الأسعد

وحد الشمل على دين الهدى ... والتقى، في شعبه المحتشد

- ☆ -

يا مليكي، يا إماما عادلا، ... للرعايا أنت أهدى مرشد

فلتدم للدين والدنيا معا، ... قدوة صالحة، يا سيدي !

أنا حسانك أشدو مخلصا، ... بمزاياك، كأوفى منشد.

بولاء، ووفاء، إنني ... لك أسلست دواما مقودي،

يا ربيع الوطن الغالي، ويا ... نفحة من روضه الغض الندي !

- ☆ -

يا بلادي، في حمى العرش اسعدي ! ... وارتقي فوق الثريا، واصعدي !

واجعلي الإسلام في الحاضر كالما ... ضي، رصيدا، وادخارا للغد !

واحفظي منك جذورا حسنت: ... وليكن سيرك نحو الأفيد

قيمة الإنسان في وجدانه : ... حبذا الوجدان من منتقد !

وجنود الله في النصر لهم ... موعد، أعظم به من موعد !

فهنيئا لأهالينا، وقد ... ضمت (البيضاء) أبهى مسجد !

الرباط : ... محمد بن محمد العلمي



الوزارة والوزراء عبر التاريخ

«نموذج من الوزراء وكتاب الدولة بالمغرب الأقصى»

للأستاذ عبد العزيز بنعبد الله
عضو أكاديمية المملكة المغربية والمجامع العربية

استعمل عمر بن الخطاب كلمة وزير عندما عين عبد الله بن مسعود وزيرا في البصرة وعمار بن ياسر أميرا عليها[1].

وقد قال علي : «سمعت رسول الله ﷺ يقول : ليس من نبي من كان قبلي، إلا إذا أعطى سبعة نقباء وزراء نجباء وإني أعطيت أربعة عشر وزيرا نقيبا نجيبا، سبعة من قريش وسبعة من المهاجرين[2].

وهي تتلو منصب الإمارة في (إفريقية) وقد أسسها الأغالبة ولقبوا متوليها «بالبديل» أي نائب الأمير ثم عادت وزارة كبرى على عهد العبيديين وصنهاجة[3]. وينظر الوزير في دواوين الجيش والجباية والرسائل ومن لوازم الجيش الحرس والشرطة[4] والبريد وقيادة البحر[5] وولاية الثغور.

على أن بعض الأنظمة - وإن لم تكن - كانت تستغني أحيانا عن خطة الوزراء كلا أو بعضا فقد قال عبد الله بن بلقين بن باديس في كتابه[6] وهو آخر ملوك بني زيري (469 هـ / 483 م) لغرناطة : «وأن لا وزير لي إلا نفسي»[7].

والصدر الأعظم كناية عن الوزير الأول وهو منصب أنشئ منذ عهد جلالة السلطان الحسن الأول، وكان السلطان قبل ذلك يباشر بنفسه كل أعمال الدولة وربما منح لقب وزير أحد كتابه إذا وثق بمهارته. وهو مصطلح عثماني معناه الوزير الأول وقد شغل هذا المنصب السيد إدريس بوعشرين ثم الحاجب أبو عمران موسى بن أحماد ثم السيد محمد بن العربي الجامعي[8] ثم الحاج المعطي الجامعي ومحمد المقري قبيل الحماية وإبانها.

أما لقب كبير الوزراء فقد أطلق على ابن جامع عثمان بن عبد الله في عهد المستنصر الموحدي[9] (نفح الطيب للمقري).

1) طبقات ابن سعد، ج 6 ص 7، طبقات الفقهاء للشيرازي ص 43.
2) مساند على مسند الإمام الأحمد، ج 2 ص 667.
3) بساط العقيق، لحسن حسني عبد الوهاب ص 28.
4) 300 عون خاضعين لصاحب البلد.
5) أنشئت أول دار للصناعة في الإسلام بمرسى قرطاج، قرب تونس عام 78 هـ.
6) التبيان عن الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة.
7) ص : 86.
8) وكان ينوب عنه محمد الصنهاجي.
9) توفي سنة (620 هـ / 1223 م) نفح الطيب للمقري ج 2 ص 155.

وبالنسبة لجميع الوزراء كان السلطان يأذن بواسطة أصحاب الوضوء للوزراء بالدخول عليه في (ردهة العرش) صباحا فيبدأ باستقبال وزير الحرب ثم العدلية ثم المالية ثم وزير الخارجية واستمر هذا الترتيب في العهد الحسني وينتهي الاستقبال في الحادية عشرة قبل الزوال حيث يدخل السلطان إلى قصره للغداء إلى أن يستأنف استقبال بعد صلاة العصر[10].

أما أجور الموظفين من مختلف المستويات فقد اختلفت قيمتها تبعا للأعصار والأمصار : فكان الوزير يتقاضى أيام المكتفي سبعة آلاف دينار في الشهر.

وقد بلغ مرتب الحاجب وذي الوزارتين بالأندلس ثمانين قطعة ذهبية في الشهر[11].

كما وصل مرتب وزراء عبد الله بن الحكم إلى ثلاثمائة دينار للواحد[12].

ولم يكن يطلق إسم وزير على مساعدي الملك حيث كان هناك رئيس كتاب يجلس عن يمينه كاتبان أحدهما يختص بالشؤون الخارجية والثاني (الجالس على الشمال) يهتم بالأمور الداخلية ومشاكل الرعية بأمر من الرئيس الذي يتلقى الأمر عن السلطان مباشرة ويقوم الكتاب الآخرون بنسخ المكاتيب المخزنية وكانت الكتابات السلطانية السرية يعهد بها إلى نساء القصر مثل خناثة بنت بكار زوجة المولى إسماعيل مما يدل على مدى صيانة السرية في القصر وتعتبر رياسة الكتاب كمنصب الصدارة العظمى[13].

وكان كبار كتاب المخزن يطلق عليهم (كتاب الدولة) أمثال أبي فارس عبد العزيز الفشتالي في عهد المنصور السعدي[14].

وكان يسمى أيضا (كاتب الإنشاء).

والكتاب هم الوزراء بالأندلس أيضا فقد كانوا يلون (الحاجب) في الرتبة ويسمون كتابا، أهمهم (كاتب الرسائل) المكلف بالخطابات الرسمية و (كاتب الزمام) المكلف بالموارد الجبائية) وكانت كتابة الزمام تستند غالبا إلى أهل الذمة.

وكانت تساعد الكتاب مكاتب مثل (المكاتب الأربعة) التابعة لكتابة الرسائل وهي (أهل الخدمة) (التفتيش مراسلات الخليفة) (والأطراف لمراقبة الواردات من الأقاليم) و (العهود) (أي المعاهدات) و (الرسوم والشكاوي).

وكانت الكتابة على ضربين أعلاهما كتابة الرسائل وكتابة الزمام (الكتابة الجهبذة) ولا يكون الكاتب بالأندلس وبر العدوة لا نصرانيا ولا يهوديا البتة لنباهة هذا الثقل[15].

أما (كتابة الإنشاء) فقد كان يرأسها بفاس أحمد بن محمد الغرديس المتوفى عا (1020 هـ 1611 م). وكان كاتبا لمحمد الشيخ المامون ومن أهل الإجادة والتبريز في صناعة الإنشاء أشار إليه أبو زيد الفاسي في (شرح دلائل الخيرات) فوصفه بشيخ كتاب الإنشاء بحضرة فاس[16].

وكان ابن أبي مدين أبو الفضل بن محمد (كاتب الجباية والعسكر) في دولة أبي الحسن المريني[17].

وكاتب الزمام بالأندلس كان مكلفا بالحسبان (أي الحسابات) ومراقبة الدخل ومستفاد الديوانة[18]. وكذلك (الكتابة الخاصة) أيام عبد الرحمن الثالث[19].

أما في المغرب فإن الكتابة الخاصة لصاحب الجلالة تشرف منذ عهد جلالة المرحوم محمد الخامس على الأملاك الخاصة للجلالة الشريفة وكان للسلطان قبل ذلك بيت مال بفاس ومكناس ومراكش وغيرها وكان كتاب المنصور السعدي يعملون باستمرار لا يغادرون مراكزهم إلا في أوقات مخصوصة لأن المنصور كان لا يقبل التأخير في مجاوبة العمال على رسائلهم[20].

وقد منح لقب وزير لموظفين سامين منهم :

(متولي أشغال البرين) (أي المغرب والأندلس) في العهد الموحدي يوصف اختصاصه بالأعمال العلية والأشغال

10) «العز والصولة» لابن زيدان ج 1 ص 44.
11) دوزي ـ تاريخ مسلمي إسبانيا» ج 2 ص 215.
12) البيان المعرب، لابن عذاري، ج 2 ص 121.
13) العز والصولة لابن زيدان، ج 1 ص 271.
14) الاستقصا، ج 3 ص 51.
15) نفح الطيب ج 1 ص 102.
16) الاستقصا ج 3 ص 106، نشر المثاني ج 1 ص 113.
17) الاستقصا ج 2 ص 75.
18) هو لفظ فارسي حسب ابن خلدون ـ المقدمة ص 230.
19) إسبانيا المسلمة ص 70، البيان لابن عذاري ج 2 ص 165.
20) الاستقصا ج 3 ص 95.

السلطانية وقد أسنده المنصور إلى كبير الوزراء نفسه أبي زيد بن يوجان ويوصف أحيانا بإشراف البرين وضم الأعمال وتفقد الأشغال[21].

ويسند إلى وزير أو أكثر يسمون أصحاب الأشغال[22].

وكان يشمل مجموع العدوتين بما في ذلك الصحراء.

- ديوان العسكر على رأسه وزير يكون في الغالب من الجند يشرف على ما يتعلق بشؤون الجيش ويعمل معه ديوان ثان هو (ديوان التبيين)[23].
- (قائد القواد) كان بمنزلة الوزير مثل محمد بن حدو الدكالي (1176 هـ / 1762 م).
- (قيم خزانة الكتب) بمراكش ابن شلبون علي بن لب المعافري وزير محمد بن يوسف بن هود (توفي بمراكش عام 639 ه / 1251 م).

وقد كان على مدينة وجدة قبل الحماية نائب سلطاني يعينه جلالة الملك من خارج الأسرة المالكة برتبة وزير نظرا لوجود المنطقة في الحدود مع الجزائر سواء في عهد الخلافة العثمانية أم إبان الاحتلال الفرنسي وقد حذفت وظيفة النائب وعوضت بباشوية على غرار باقي نواحي المغرب و (الوزير القاضي) كان يطلق على (قاضي الجماعة).

كما أن المشرف كان يعرف أحيانا بالوزير مثل أبي محمد بن مالك الذي ولاه علي ابن يوسف المرابطي على شرق الأندلس.

وعمر الوزير هو أحد كتاب السلطان سيدي محمد بن عبد الله وجهه السلطان في وفد إلى الحج عام (1199 هـ / 1784 م)* برياسة (شيخ الركب) عبد الكريم بن يحيى حاملا مالا لأشراف الحرمين والحجاز واليمن وقدره 350 ألف ريال[25].

وربما كان الاسم مجرد لقب للعائلة أو لأحد أفرادها فابن وزير علي أخو سيد رأي هو من شيوخ الثوار بالأندلس الذين انضموا إلى الموحدين[26].

21) البيان المغرب 3 ، ص 201 ـ 236.
22) ص 227 283.
23) البيان المغرب، لابن عذاري ص 141.
24) الأحكام الكبرى، لابن سهل، المكتبة العامة بالرباط خم 158 ص 209.

والغسانيون هم أولاد الوزير.

وقد عرف المغرب قبل الحماية وزارات مختلفة منها : الأشغال العمومية.

ذكر (كامبو) أن الرئيس الأكبر للطبجية أو الرماة بالمغرب كان وزيرا للأشغال العمومية.

وزارة البحر :

لم يكن وزيرا للشؤون الخارجية كما ظن البعض وهو منصب استحدث في عهد جلالة الحسن الأول الذي عين على رأسه الفقيه محمد المفضل غريط لمراسلة ممثلي الدول. وقد أورد ابن زيدان[27] اختصاصاته وهي شؤون محميي القناصل والوساطة بين السلطان والسفراء الأجانب ووضع الاتفاقات والمعاهدات مع الدول الأجنبية وتحرير الرسائل الموجهة إليها وتوجيه أوامر السلطان إلى القواد في خصوص قضايا المحميين التي تهم مع القيام بدراسة شؤون كل بعثة أجنبية في المغرب.

كما عرف هذا المنصب في (دار الخلافة العثمانية) حيث كان علي (علوج) وزيرا للبحر في عهد السلطان (مراد سليم).

وزارة التضييف والترجمة :

في أواخر العصر الموحدي تأسس منصب وزير يقوم بالتقديم إلى إرسال ملوك اليوم والأشغال بإنزالهم وتضييفهم والترجمة عنهم وخاصة أيام المأمون الذي عقد حلفا مع (فرناندو الثالث) Fernandc III ملك قشتالة[28].

وزارة الخارجية :

أحدثت في عهد الحسن الأول وكانت بوزارة البحر أو وزارة الأمور البرانية (أي الشؤون الخارجية) وأول من تولاها في العهد الحسني محمد المفضل غريط وبعد وفاة الحسن الأول تولى رياسة الحكومة أحمد بن موسى فأضاف الخارجية إلى إلى وزارته ثم استندت بعد وفاته إلى عبد الكريم بن سليمان وولى

25) الاستقصا ج 4 ص 115.
26) ابن عذراي ص 99 / المه بالإمامة ص 236.
27) الاتحاف ج 2 ص 514.
28) البيان المغرب : د.3 ص 234.

السلطان مولاي عبد الحفيظ عليها قائده عمر بن عيسى العبدي ينوب عنه الفقيه أحمد بن منصور ثم تولاها محمد المقري.

وزارة الداخلية :

ذكر عباس بن إبراهيم في ترجمة أبي محمد بن عبد الله الشيخ.. ابن أبي عسرية المتوفى عام (1295 هـ / 1878 م) أنه كان كاتبا في **وزارة الداخلية**.

وزارة ديوان التمييز :

هو أحد الديوانين المشرفين على الجيش كان يقوم بعمليات تطهير الجيش لاستبعاد الخصوم قبيل كل غزوة أو حرب منذ بداية عهد الموحدين ويعمل بالتمييز زمام ويقرن بالإنعام على الجند الذين فازوا بالتمييز ويشرف على هذا الديوان وزير يسمى (كاتب ديوان التميز أو كاتب العسكرية) كابن حسن أبي عبد الله[29].

وكان الوزير يسمى (العلاف) ثم أطلق عليه الميلالاي أمير آلاي التركية وأول من تقلد هذا المنصب الذي من خصائصه الإشراف على الجيش محمد بن العربي الجامعي المدعو الصغير ثم الحاج المهدي المنبهي[29 مكرر].

ولعل هذه الوزارة أحدثت في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان وأول من تولاها هو الحاج عبد الله بن أحمد أخو الحاجب موسى بن أحمد ثم تولاها في العهد الحسني خاله محمد الكبير بن العربي الجامعي ثم أخوه محمد الصغير الجامعي ثم سعيد بن موسى ثم المنهي.

والعلاف الكبير ليس هو في الحقيقة وزير الحرب لأنه لم يكن يشرف على الجيش ولا على تكوينه وإنما كان مسؤولا عن تموين العسكر المتنقل في «الحركات» بعد أن يحدد السلطان مداه وشكله وذلك بصدد الأسلحة والعدد وتنفيذ قرارات السلطان حول تعيين رؤساء الفرق وتوزيعهم على المناطق وكذلك تدوين الجند في سجل يومي يقدم إلى السلطان بعد التأشير وإمضاء الصدر الأعظم كما يقوم بتأشير على كشوف المصاريف التي يقدمها شهريا وبمناسبة الأعياد العلافون المشرفون على كل «حنطة» من حناطي موظفي القصر الملكي.

وزارة الشكاية :

أنشئت في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان وتقلدها الفقيه علي المسفيوي وهو المنصب الذي كان يطلق عليه في عهد الحماية المحكمة العليا الشريفة وربما على وزارة العدل كلها[30].

وكان وزير الشكايات يسمى (صاحب الرد) في عهد بني أمية بالأندلس ومهمته دراسة ما يرد من شكاوي على السلطان وإبلاغ القرار الملكي إلى أصحابها ولم يكن له اختصاص شرعي ولكن كان له وحده دون باقي الوزراء **حق جمع هيئة العلماء** لتدرس إما نقطة شكلية من أجل توضيح وجهة نظر التاريخ في نشأتها لإحالتها على قاضي أو محتسب آخر ويكون **دور الهيئة في هذه الحالة دور مجلس النقض والإبرام** وإما درس صلب الموضوع للبث فيه ويكون دورها في ذلك **دور مجلس الاستيناف**.

وكان صاحب الشكوى في عهد المرينيين إذا أراد إبلاغ شكواه حال ركوب السلطان وظهوره صاح من بعيد «لا إله إلا الله انصرني نصرك الله» فتوخذ قصته وتعطى لكاتب السر فإذا رجع إلى مقره اجتمع مع كاتب سره وقرأها عليه[31].

وفي العهد العلوي كان كل وزير يتلقى مطالب وشكاوي الناس مباشرة في دائرة اختصاصه ويأمر أحد الكتبة بتقييد ذلك **ليقدم هو جريدة المطالب الشفاهية للسلطان** مباشرة في أوقات الاستقبال وبواسطة صاحب الوضوء في غيرها **فيوقع السلطان على فصول تلك الجريدة** بما يراه بالقلم الرصاصي الأحمر تارة والأزرق أخرى.

---

29) المس بالإمامة ص 436 ـ 453.

29 مكرر) «العز والصولة» لابن زيدان ج 1 ص 273.

30) العز الصولة، لابن زيدان ج 5 ص 272.

31) ابن فضل الله العمري ـ الباب الثالث عشر م المسالك، ورقة 110.

وقد اختير يوما الثلاثاء والأحد مخصصين لسماع السلطان المظالم حيث تقدم لحضرته جريدة بأسماء أصحاب الشكايات وهو يأتيهم واسم العامل المتولي عليهم فيقضي السلطان بما يراه العدل[32].

وذكر ابن زيدان في (الإتحاف) أن السلطان محمدا الرابع عين على رأسها السيد محمد بن الحاج عبد الله الصفار[33]، فهو أول **وزير للشكايات بالمغرب** (1298 هـ / 1880 م).

وكانت وزارة خاصة بالأندلس ومن جملة من تقلدها في عهد الموحدين عبد الرحان بن سعيد الغرناطي وزير المظالم لدى ابن مردنيش وأسرة بني سعد صاحبة قلعة يحصب وقد انضم إلى الموحدين بعد مقتل ابن مردنيش[35].

وزارة العدلية :

أحدثت في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن وأول من تولاها الفقيه السيد علي المسفيوي وكانت تدعى وزارة الشكايات آنذاك.

(تأليف وزارة العدل لمحمد العربي بن أحمد الناصري (1362 هـ / 1943 م).

شرف الدولة :

وإن كان مجردا من سمات الوزارة فهو لقب لبعض كبار الموظفين مثل أبي بكر يحيى بن محمد الذي كان يتعيش من كتب الوثائق بمراكش.

ومن الوزراء من أدرجوا قسرا في إطار المملكة المغربية إبان الحماية فقد كان المقيم العام يمثل فرنسا في المغرب كدولة محمية فكان هو وزير خارجية المغرب وقد عرف المغرب خمسة عشر مقيما منهم المريشال اليوطي الذي ظل في المغرب ثلاث عشرة سنة وشهرين والجنرال نوكيس الذي احتفظ بمنصبه ست سنوات وثمانية أشهر أما الباقون فإن معدل مدة ماموريتهم لم تزد على واحد وعشرين شهرا[36].

مجلس الوزراء :

ذو الوزارتين مثل لسان الدين بن الخطيب وابن شهيد [37] (استمرار هذا اللقب في عهد ملوك الطوائف الذين عرفوا ذا الوزارتين وذا السيادتين وذا الرياستين).

أشعار في مدح الوزارة : نظم ابن خلف الشقري الشاعر قصيدة في مدح أمراء ووزراء الموحدين بالأندلس.

وزراء المغرب في مختلف العصور :

- إبراهيم بن عبد الجليل الينجاسني، وزير السلطان المريني أبي الربيع سليمان بن عبد الله بن يوسف بن يعقوبالمريني.

(إبراهيم بن علي بن راشد يعرف بـ (مالا بران)، وهو إسم أطلقه الأجانب عليه وكان وزيرا لأحمد الوطاسي وزعيما لشفشاون (توفي عام 947 هـ / 1540 م)[38].

- إبراهيم بن عيسى اليرنياني وزير السلطان أبي الربيع سليمان بن عبد الله بن يوسف بن يعقوب المريني[39].
- أبو محمد بن يونس الهنتاني وزير المرتضى الموحدي.
- أحمد بن الحسن الأحمدي نزيل مكناس (1132 هـ / 1719 م) وزير المولى إسماعيل[40].
- أحمد بن عميرة وزير عبد الله بن الشيخ المامون هو الذي فتك عام (1027 م / 1617 م) بعبد الرحمن الخنادقي

---

32) العز والصولة، لابن زيدان ج 1 ص 41 ـ 50.

33) الاتحاف ج 3 ص 569، مجلة البحث العلمي ص 42/ع 9، العام الثالث بحث بعنوانه وزارة الشكايات والمظالم.

34) الأعلام للمراكشي ج 6 ص 71 (خ).

35) إسبانيا المسلمة في القرن العاشر الميلادي ص 96.

36) الإشارة إلى أدب السياسة في الوزارة، لابن الخطيب، مكتبة الكلاوي خع 1092 د، / 1405 د، طبع بولاق 1298 هـ ـ 1872 م مقدمة ابن خلدون م. 1/ص419 ط. بيروت، الوزير : تجاوز الأندلسيون تحلية الناس به. الإحاطة ج 1 ص : 329. أبو المطرف، لابن شريفة ص 52، الوزارة وكتابة الدولة بالأندلس. إسبانيا المسلمة ص 69. الكتابة فيها كتابة الرسائل وكتابة الرسام.

37) إسبانيا المسلمة ص 67، النفح : ج 1 / ص 134، الحلة السيراء ص 127.

38) راجع بحث للأستاذ روبير ريكار **R. Ricard,** في مجلة الأندلس ـ مدريد وكتاب عبد الرحيم جيور في بحثه باللغة الإسبانية بعنوان : أسرة بني راشد ومدلولها التاريخي بشمال المغرب، ط. تطوان 1953 / وثائق دوكاستري ـ السعديون، (س. أ. م 1 ص 3 ـ 135/م 3 المقدمة.

39) روضة النسرين ص 23.

40) ترجمه علي بن أحمد بن مصباح الزروالي اليصلوتي العثماني (ت 1150 هـ ـ 1737 م) في : مني المهتدي إلى مفاخر الوزير أبي العباس اليحمدي» بخزانة مدرسة الصويرة. خع 1747 (120 هـ) خم : 2637/5541/521 تاريخ الضعيف ص 99، مخطوط الرباط. طبع أخيرا بالرباط.

وأصحابه من الزراهنة عندما أمره أهل فاس عليهم بعد مقتل الشريف سليمان بن محمد الزرهوني[41].

- أحمد بن مبارك وزير السلطان المولى سليمان قتله عبيد البخاري عام 1235 هـ / 1819 م[42].
- أحمد بن محمد المراكشي الوزير[43].
- أحمد أو أحماد بن موسى بن أحمد بن مبارك المعروف بيا أحماد (1318 هـ / 1900 م)[44].
- أحمد بن ودة وزير البحر العثماني في عهد السلطان مراد بن سليم وكان يبغض المنصور السعدي ويؤلب عليه الخليفة العثماني لإهمال المنصور الوفد التركي الذي جاء لتهنئته بعد انتصاره في (وقعة وادي المخازن) فاتصل بالمنصور عن طريق بعض قناصل الإنجليز استعداد السلطان مراد لمحاربته فبعث إلى السلطان بهدية حملها القائد أحمد بن ودة العمراني والكاتب أحمد بن يحيى الهوزالي إلى القسطنطينية العظمى فلقي الوفد أسطول الوزير علوج في البحر قاصدا المغرب لمنازلة المنصور وأقنع علوج القائد ابن ودة فعاد وتوجه الهوزالي وحده حاملا الرسالة فحسن موقع خطابه من السلطان وقبل العذر وتقبل الهدية وكتب مع الهوزالي إلى علوج بالرجوع كما بعث رسله إلى المنصور فأكرم وفادتهم وعادوا مع قاضي الجماعة بمراكش أبي القاسم ابن على الشاطبي والقائد عبد الرحمن بن منصور الشيظمي المريدي[45].
- أحمد مول أتاي وزير الحرب في العهد السليماني[46].
- الحسن بن عمر الفودودي وزير أبي عنان (قتل بعد عام 761 هـ / 1359 م) وهو الذي قتل أبا عنان المريني عام (759 هـ / 1357 م) وعمره ثلاثون سنة أصبح على مراكش في عهد أبي سالم ثم ثار مع بني جابر (من عرب جشم) في تادلا ثم برابرة صناكة في الأطلس فأسر ونقل إلى المجلس حضره ابن خلدون وقتل قعصا بالرماح ونصب شلوه بباب المحروق[47].
- الحسن بن يوسف الورتاجني وزير أبي سالم بن أبي الحسن المريني[48].
- حسون بن عبد النور الوزير في الدولة المرينية توفي في حركة الجزائر في عهد أبي الحسن المريني[49].
- الحسن بن علي بن الحسين بن علي بن محمد بن يوسف أبو القاسم المعروف بالوزير المغربي أو ابن الوزير المغربي (418 هـ / 1027 م).

قتل والده وعمه وأخواه من طرف الحاكم بأمر الله الفاطمي عام (400 هـ / 1009 م) ففر هو إلى الرملة بفلسطين واتصل بالوزير البويهي عام 401 هـ أيام خلافة القادر بالله[50].

- حمو أو محمد بن عبد الوهاب الوزير القساني (1119 هـ / 1707 م).
- حمو بن عمر وزير عبد الله بن الشيخ المامون قام بدور في تهدئة فاس وتأمين اللمطيين الذين التفوا من جديد حول الأمير مولاي عبد الله وذلك عام 1027 هـ / 1617 م) حيث عادت دولة عبد الله إلى شبابها[51].

وقد قتله محمد اللمطي المربوع في (أرجن) بجبال الزبيب حيث وجهها عبد الله لقبض الأعشار.

- حمو العسري بن يحياتن الأوربي وزير السلطان المريني علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق[52].
- الزبير بن عمر (538 هـ / 1143 م).

---

41) الاستقصا ج 3 ص 121.
42) الأعلام للمراكشي ج 2 ص 209. ط. (1).
43) الأعلام للمراكشي ج 1 ص 215.
44) الأعلام للمراكشي ج 2 ص 255، فواصل الجمان، لمحمد غريط ص 82 تأليف لبعض الزوار من الشام/الاتحاف ج 1/ص 455، اسم الكتاب : الثغر البسام، في ماثر الوزير أحمد بن موسى الهمام.
45) الاستقصا ج 3/ص 46.
46) الأعلام للمراكشي ج 8 ص 311 (خ).
47) الاستقصا ج 2 ص 101 ـ الأعلام للمراكشي ج 3 ص 145. ط. الرباط.
48) الاستقصا ج 105/2.
49) ذكره ابن مرزوق المسند في الصحيح الحسن، الأعلام للمراكشي ج 3 ص 199 (ط.1975).
50) الأعلام، للزركلي ج 2 ص 366/معجم المؤلفين كحالة، ج 4 ص 20، تاريخ الأدب العربي لفروخ ج 2 ص 78، الوفيات، ج 155/1 له : الإيناس بعلم الأنساب» نسخ عن خطه المؤلف، المتحف البريطاني 3620/نسخة أخرى في التيمورية 2257 تاريخ ولعله الوزير أبو القاسم الحسن بن علي الوارد في لسان الميزان ج 2 ص 301.
51) الاستقصا ص 3/121.
52) روضة النسرين ص 26.

من كبار قواد المرابطين بالأندلس كان وزيرا لتاشفين بن علي بن يوسف أثناء عمله بالأندلس شارك في موقعة (أفراغة) التي هزم فيها المرابطون جيوش (ابن رذمير) وهو القونسو الأول المعروف بالمحارب ملك أرغون عام 528 هـ / 1133 م) وقد خلف تاشفين عندما ولاه والده العهد عام 533 هـ / 1138 م) وضم إليه عمل قرطبة وفتح حصن مورةعام 533 هـ / 1138 م) واستشهد في المعركة التي دارت بينه وبين (مونير النسو) قائد طليطلة المسيحي، ويوجد في قرطبة منتزه يسمى (منية الزبير)[53].

- سعيد بن موسى بن أحمد[54].

- سليمان بن برزيجان وزير السلطان المريني أبي سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحق[55].

- شعيب بن مخلوف الوزير الكاتب ابن أبي مدين الكتامي قتله أبو الربيع سليمان المريني[56].

- صالح بن حمو الياباني وزير المستنصر أبي العباس أحمد بن أبي سالم المريني في دولته الثانية من عام (789 هـ / 1387 م) إلى (796 هـ /1393 م)[57].

- صالح بن صالح بن حمو أبو التقي الياباني وزير السلطان عبد الحق آخر ملوك بني مرين هو الذي قتل القاضي عبد الرحيم بن إبراهيم اليزناسني عام 834 هـ 1430 م)[58].

- الطاهر بن حمو (أوحم الدكالي الصديقي قاضي الجماعة بمراكش ارتقى للوزارة عام 1330 هـ.

- عامر بن فتح الله السدراتي أبو ثابت وزير أبي الحسن المريني توفي في (واقعة طريف)[59].

- العباس بن عبد القادر الفاسي وزير الخليفة بمراكش[60].

- عبد الحق رحو بن يعقوب الوطاسي وزير أبي ثابت عامر بن عبد الله بن يوسف بن يعقوب المريني[61].

- عبد الرحمن بن جعفر ابن الحاج المعافري ذو الوزارتين ربما توفي عام (550 هـ / 1155 م) استدعى عام (528 هـ ـ 1133م) للكتابة بحضرة مراكش واستعفى وانصرف إلى مرسية وجعل يؤذنفي مسجده وفد ولاه المرسيون أمرهم اختلف دولة الملثين[62].

- عبد الرحمن بن القائد الوزير عبد الكريم ابن القائد مومن بن يحيى ابن العلج.

كان أبوه وزير المولى عبد الله السعدي وهو شاعر مجيد من كتاب المولى زيدان أن بن المنصور السعدي[63].

- عبد الرحمن بن محمد الشرفي محتسب فاس (1304 هـ / 1886 م).

عينه الحسن الأول وزيرا لخليفة صنوه مولاي عثمان بمراكش وجهه السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن سفيرا إلى انجلترا لتسوية المسائل القائمة فتم ذلك وله شعر رائق[64].

- عبد الرحمن بن يعقوب الوطاسي الوزير[65].

- عبد الرحمن الزراري ابن الشليح القائد وزير المولى علي صنو الحسن الأول وعامل تازا ثم وجدة[66].

---

53) نظم الجمان، لابن القطان ص 244، تحقيق محمود مكي، الإحاطة ج 1 ص 458 ط. عنان، الكامل : لابن الأثير ج 8 ص 351/ابن سعيد المغربي، المعرب ج 1 ص 102 ـ 242 و ج 2 ص 127، كوديرا، الحلال دولة المرابطين ص 17 ـ 28، نفح الطيب ج 2 ص 18

54) قواصل الجمال، غريط ص 87.

55) روضة النسرين ص 24.

56) الاستقصا 2 ص 48 ـ الجذوة ص 246.

57) الاستقصا ج 2 ص 141.

58) الضوء، اللامع، لأهل القرن التاسع «الشنحاوي» ج 3/ص 331، الجذوة ص 232، الاستقصا ج 2 ص 149/درة الحجال، ج 2 ص 339.

59) المسند الصحيح الحسن، لابي مرزوق، الأعلام للمراكشي ج 8 ص 11 ط. ـ الرباط.

60) فواصل الجمان ص 217 ـ الأعلام للمراكشي ج 8 ص 23 ط ـ الرباط.

61) الاستقصا ج 3 ص 102 ـ روضة التسرين ص 22.

62) معجم أصحاب أبي على الصدفي لابن الأبار ص 244، الأعلام للمراكشي ج 8، ص 58 ط ـ الرباط.

63) روضة الآس ص 110.

64) فواصل الجمان ص 208، الأعلام للمراكشي ج 8 ص 147 ط ـ الرباط.

65) الاستقصا ج 2 ص 49.

66) الاستقصا ج 4 ص 244/الأعلام للمراكشي ج 7 ص 66.

عبد الرحمن المنزري وزير المولى إسماعيل (1089 هـ / 1678 م).

نقم عليه السلطان فقتل أصحابه رميا بالرصاص وأمر بجره من زاوية الشيخ رجالا الكوش إلى فاس ومكناسة وطرح شلوه في المزبلة وكان قد عينه عام 1084 هـ عاملا على فاس الجديد بعدما أخضع فاسا التي انضمت إثر البيعة إلى ابن محرز[67].

ـ د الكومي وزير عبد المومن بن علي الموحدي كان يدعى المقرب لشدة تقريب عبد المومن إياه..

وقد تزوج عبد المومن أمه ثم طلقها (ابن أبي زرع) وقد اتهم بالسيطرة والغلول في غنائم فاس وشكايات الأندلسيين واتهام أولاد عبد المومن بالخمر فنقم عليه الأمير أثناء دخوله تلمسان واحتال في قتله[68].

وقد قتله عبد المومن عام (557 هـ / 1161 م) ووزر له ابنه عمر وكان قتله خنقا أو بالسم (حسب ابن صاحب الصلاة)[69].

الرباط : **عبد العزيز بنعبد الله**

الدم الخفيف

وطبيبٍ رأى صحيفــــة وجهي شاحباً لونها، وعودي نحيفا

قال : لا بد من دمٍ لــك نعطيــه، نقيّاً ملء العروق عنيفا

لَكَ ما شئتَ يا طبيبُ، ولكن، اعطني من دم يكون خفيفا

ابراهيم طوقان

67) الاستقصا ج 4 ص 22 ـ 29.

68) نفح الطيب ج 4 ص 110، الحلة السيراء، ص 216، الاستقصا ج 2 ص 117، البيان، لابن عذاري ص 43، تاريخ الدولة الموحدية ج 1 ص 192.

69) المن بالإمامة ـ ص 180/الاستقصا ج 1 ص 157، المعجب ص 199. ط ـ سلا، الأعلام للمراكشي ج 8 ص 477، ط ـ الرباط

مخطوطة الفاضي زنيبر حول همزية الإمام البوصيري

تقديم: الدكتور عبد الهادي التازي

تزخر دور المخطوطات المغربية بعدد من المؤلفات القيمة التي تعالج سائر الفنون وعلى مر العصور... فهناك كتب النحو واللغة والآداب والتاريخ والأنساب والتراجم والمناقب والجغرافية والرحلات والعلوم البحتة من رياضيات وفلك وطب إلخ...

لكن أكثر الفنون حضوراً في المكتبة المغربية ما يتصل بالسيرة النبوية ويتصل بالفقه المالكي، وهكذا فإن الذين اهتموا بوضع الفهارس للخزائن الخاصة والعامة في المغرب يلاحظون هذه الظاهرة في أول ما يلاحظون. ونقدم اليوم مخطوطة من المخطوطات التي تتناول شمائل النبي ﷺ، ويتعلق الأمر بشرح مهب ألفه أبو عبد الله محمد بن محمد زُنَيْبر، يحمل عنوان :

الفوائد الزكية والدرر البهية
والعوائد السنية على ألفاظ الهمزية

وهو كما نرى شرح للقصيدة الهمزية التي ألفها قبل قرون الإمام محمد بن سعيد الصنهاجي البوصيري المتوفى سنة 696 هـ = 1296م.

والجدير بالذكر أن الصنهاجي هذا ظلت تربطه بالمغرب صلات وثيقة عن طريق القصيدتين الشهيرتين اللتين يمدح بهما النبي الكريم... أولاهما البردة التي تبتدئ هكذا :

أمن تذكر جيران بذي سلم
مزجت دمعا جرى من مقلة بدم !

وهي القصيدة التي رأى فيها المؤرخ المغربي الكبير العلامة ابن خلدون، رأى فيها ما يمكن أن يقدم كهدية مغربية وكتحية إسلامية إلى الأمير المغولي تيمورلنك عند اجتماعه معه في بلاد الشام...



1) طابع السلطان مولاي عبد الملك



2) طابع السلطان سيدي محمد بن عبد الله



3) طابع السلطان سيدي محمد بن عبد الله

ومن الطريف والمهم كذلك أن نعرف أن المملكة المغربية، وخاصة في بداية أيام الدولة العلوية، دأبت على نقش بيت من البردة في أختام الملوك، وقد يأذن العاهل للسفير أو الوزير بأن يقوم بمثل ذلك النقش على طابعه على نحو ما نجده في طابع ابن عثمان المكناسي، وقد رأينا هذه الطوابع تتصدر المعاهدات، وكذا الرسائل الرسمية إلى ملوك ورؤساء الدول من أمثال : ملك إنجلترا وفرنسا وإسبانيا... وأمثال الرئيس جورج واشنطون وملكة الأمبراطورية الروسية كاترينا وحكام البندقية كذلك...

وهذا البيت هو :

ومن تكن برسول الله نصرته
إن تلقه الأسد في آجامها تجم[1]

وهكذا فإن للمغاربة إرتباطا قويا بهذه القصيدة التي نرى لبعض السادة في المشرق رأياً فيها يخالف رأينا...

والشيخ زنبير هذا ينتسب لأسرة شهيرة نابهة ما يزال بعض فروعها معروفاً إلى اليوم، ويتبوأون مناصب قضائية وعلمية ويشرفون على مشاريع اقتصادية ومؤسسات اجتماعية، وقد ألف الشيخ زنبير كتابه هذا قبل أزيد من قرنين ونصف على ما نجده في تقييد آخر المخطوطة يقول : «وافق الفراغ منه يوم الإثنين لست بقين من جمادى الأولى عام خمسة وستين ومائة وألف».

وقد ترجم للشيخ زنبير هذا المؤرخ محمد بن علي الدكالي السلوي في تأليفه : «الاتحاف الوجيز بأخبار العدوتين المهدي لمولانا عبد العزيز[2]»، وفي «إتحاف أشراف الملا ببعض أخبار الرباط وسلا». ونعته بالفقيه الأديب العلامة المحدث المشارك قاضي سلا...

---

1) يلاحظ أن بعض باشاوات الإيالة التونسية أخذوا يقلدون المغرب في هذه القاعدة، وهم يضيفون إلى البيت المذكور البيت الذي يليه :
ولن ترى من ولي غير منتصر به، ولا من عدو غير منقصم !

2) من منشورات الخزانة العلمية الصبيحية بسلا المغرب 1406 ـ 1986 تحقيق مصطفى بوشعراء.

الشيخ ابن جعفر الكتاني ذكره كذلك في «أزهاره» مفيداً أن له قصائد في مدح الإمام إدريس الأكبر دفين مدينة زرهون وابنه الإمام إدريس الأنور دفين مدينة فاس...

قال : ولهذا الرجل الفاضل شرح على همزية البوصيري طارت بها الركبان، واشتهر، في أقاصي البلاد والدان، بجودته وجمعه لما يقل جمعه من الفوائد واللطائف والأبحاث الرائقة...



4) طابع السلطان مولاي عبد الرحمن



5) طابع السلطان مولاي عبد الرحمن



6) طابع السلطان مولاي عبد الرحمن

الفوائد، فإن الذي يوجد الآن بالخزانة العامة للرباط (قسم المخطوطات) مجلدان اثنان...

الأول مسجل تحت رقم 2104/د يحتوي على خمس وستين وخمسمائة صفحة، مسطرتها 24 مقياسها 19/23 مكتوب بخط مغربي مقروء، والكتاب يبتدئ هكذا : الحمد لله.

أرى كل مدح في النبي مقصرا

وإن بلغ المثنى عليه وأكثرا

إذا الله أثنى بالذي أنت أهله

عليه، فما مقدار ما يمدح الورى ؟!

ثم أخذ بعد تقديم طويل في شرح قول البوصيري :

كيف ترقى رقيك الأنبياء

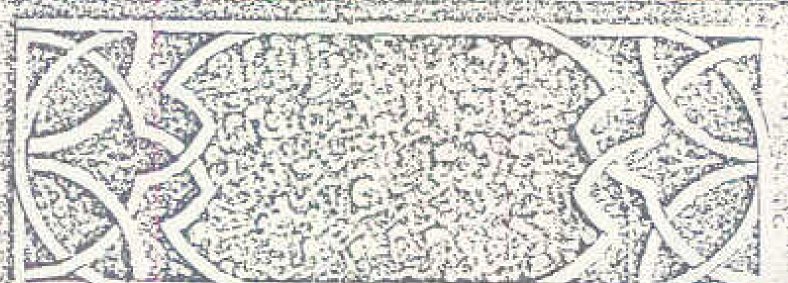
يا سماء ما طاولتها سماء

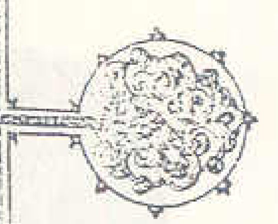
إلى البيت الثمانين بعد المائة.



7) طابع السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم





لما [illegible] على بعض معجزاته الباهرة وشيء من شيمه
ومناقبه الفاخرة التي من ظاهرها وبعضها وأبهر العقول أمر الكفار
واعترافهم وإيمانهم بدعوته وما [illegible] الضلال [illegible]
في ذكر الكفار المجوس [illegible] واللئام [illegible] الذين شاهدوا
المعجزات ودلائل البينات وسبق [illegible] الكذب بالسفهاء المتنوع
وأصلاه [illegible] وعذاب السموم قلت [illegible] الأضداد [illegible] وأسنو
[illegible] فيهم [illegible]

عجبا للكفار زادوا ضلالا ... بالذي للقلوب فيه اهتداء
والذي يسألون منه كتاب ... منزل قد أتاهم وارتقاء
أو لم يكفهم من الله ذكر ... فيه للناس رحمة وشفاء

قوله عجبا العجب [illegible] المستغرب [illegible] عن قياس العقول وهو [illegible]
لعامل محذوف [illegible] أي أعجب عجبا للكفار الكفر [illegible] من الكفر
بمعنى الجحود وهو المراد هنا وبمعنى الزرع والبذر [illegible] الكفار [illegible]

والمجلد الثاني تحت رقم 1914/د يحتوي على اثنتين وعشرين وخمسمائة صفحة مسطرته 21 مقياسه 18/22، ويبتدئ بشرح قوله :

عجبا للكفار زادوا ضلالا
بالذي للقلوب منه اهتداء

إلى البيت الأخير من القصيدة.

ما أقام الصلاة من عبد الله !
وقامت بربها الأشياء !!

وهو البيت الثالث والعشرون بعد الأربعمائة.

وقد عرض الشيخ زنيبر تأليفه على شيخه حافظ العدوتين أبي العباس أحمد الغربي الذي قرظها نثراً ونظماً...

وحسب بعض التقاييد التي تنسب للقاضي زنيبر فإنه مدين لشيخه الغربي فيما حرره من تقاييد، وقد أضاف لذلك شيئا من كلام الإمام ابن حجر على إفاداته الرفيعة.

ويظهر من خلال ترجمته أنه تعرض لمحنة نالته من عامل سلا على ذلك العهد : عبد الحق فنيش، وبسببها هاجر إلى الرباط حيث وجدناه ينظم قصيدةً طويلةً يتشوق لإخوانه الطلبة والعلماء من أهل سلا... وخاصة شيخه الحافي الذي آثره بإرسال القصيدة من رباط الفتح عام تسع وخمسين ومائة وألف...

وكان مطلعها على هذا النحو :

يمينا برب البيت إني لشائق
لتقبيل أقدام الإمام ابن عاشر !

وقد أجاب الشيخ الحافي القاضي زنيبر بخطاب منثور وصله كذلك بكلام منظوم يعبر فيهما عن التجاوب في الود بينه وبين زنيبر..



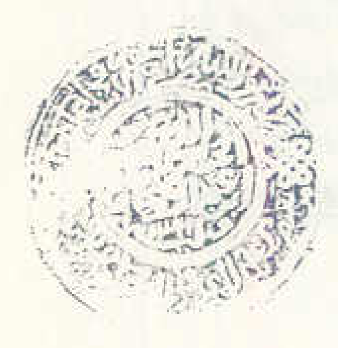
8) طابع السلطان مولاي الحسن الأول



9) طابع السلطان مولاي الحسن الأول



10) طابع السلطان مولاي الحسن الأول



11) طابع السلطان مولاي الحسن الأول

وآله وصحبه

بسم الله الرحمن الرحيم   صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الحمد لله … [illegible]

أرى كل مدح في النبي مقصرا * وإن بالغ المثني عليه وأكثرا

إذا الله أثنى بالذي هو أهله * عليه فما مقدار ما يمدح الورى

قال الإمام الشيخ رحمه الله … [illegible] … الشعراء المتعرضين … والتيجاني

… عليه السلام واعجموا … من اصعب … المعاني

وان جلت … مرتبته … وان كملت … من كل غلو … [illegible]

… على البديع … وما يبلغ الاقلام … معجزة وان من ابلغ النظم الابدع

… الانبياء … المرسلين … الخصوص

بالخلق العظيم والمعراج … افضل الصلاة وازكى السلام … نظام …

… العاطرة القصيدة المسماة بام القرى

في مدح خير الورى … المشهورة بالهمزية … مدح خير البرية … في جميع

اقطار البسيطة … المعاني … الاوضاع البديعية

المعاني … على … الابهاء … جماعة من الاعيان

الذين لهم خبرة بالعربية … ان يحاكيه … الشنب

ولم يظفر … من حلاوة نظمه … ورونق … وبلاغة جمعه

وبراعة صنعه … باقوار … السنة عن … كلامه

… الكثير من المعجزات والجامع للشمائل الكريمة … رحم الله …

وإذا علمنا أن وفاته كانت سنة 1194 هـ = 1780م فإن مكان دفنه معروف وهو قريب من ضريح سيدي ميمون وسط الروضة الكبرى التي يوجد بها قبر سيدي أحمد بن عاشر...

ويعتبر بيت زنيبر من البيوتات المغربية الموموقة التي ما يزال لها ذكر واسع، وقد توزعت اليوم على عدد من القواعد المغربية، وحسب مخطوطة لأبي القاسم بن العربي عشعاش حول تاريخ عائلات سلا، نجد أنهم، أصلاً، من قبيلة غمارة في نواحي تطوان، وقد عبروا إلى الأندلس بنية الجهاد عندما تعرض المسلمون هناك للاضطهاد، حيث كانوا يستقرون في مدينة غرناطة...

وعندما انقرضت دولة الإسلام في الأندلس عام ستة وتسعين وثمانمائة خرج «الزنابرة» من الأندلس واستوطنوا مدينة سلا فما لبثوا إلا قليلا حتى علا صيتهم وصاروا من العائلات الكبرى بالمدينة، وقد نبغ فيهم عدد من العلماء والقضاة والكتاب والديبلوماسيين والرؤساء البحريين... نذكر منهم محمد بن عبد الهادي زنيبر الذي عهد إليه بتدريب الجند المغربي على الرماية حسب رسالة إليه من السلطان مولاي عبد الرحمن بن هشام بتاريخ 28 صفر 1229 هـ، وقد كان أول الأمر ناظراً للأحباس قبل أن يتولى منصب عامل سلا... كما نذكر الحاج علي بن أحمد زنيبر الذي رحل إلى الأسكندرية وأقام بمصر طوال أربع وعشرين سنة، ولما عاد للمغرب عام 1321 هـ = 1904م ظهرت له مواقف وطنية ملحوظة، وكان منهم الأمين عبد الهادي زنيبر الذي اشتغل أمينا بعدد من المراسي المغربية، كما نذكر طالباً كان يدرس بألمانيا حسب رسالة مغربية بتاريخ 15 شوال 1306 = 20 غشت 1888، علاوة على الأمين محمد بن محمد بن عبد الهادي زنيبر الذي كان يكاتبه أمين الأمناء الحاج عبد السلام التازي على ما يوجد في مكتبة آل بن سعيد والخزانة الصبيحية بسلا...[3]

ويذكر عشعاش السابق الذكر أن أصلهم من قبيلة غمارة (بناحية تطوان) وأنهم التحقوا بالأندلس أيام الوجود المغربي هناك، حيث كان لهم ذكر بغرناطة، ولما اضطر المسلمون لمغادرة الأندلس تركها آل زنيبر، واختار بعضهم سلا مكان إقامة، بينما اختار بعضهم مدينة فاس...



12) طابع السلطان مولاي عبد العزيز



13) طابع السلطان مولاي عبد العزيز



14) طابع السلطان مولاي حفيظ

3) د. التازي : رسائل مخزنية، مطبعة أكدال، 1979، ص 66.

وإنهم اليوم - يقول عشعاش - سبع فرق :

أولا ذرية القاضي محمد بن الحاج قاسم زنيبر، نذكر منها هذا العدد الذي اشتهر باسم بلقاسم، كما اشتهر بلقب المحبس، لأنه حبس جميع أملاكه على من يدرس العلم من ذريته وعقبه..!

ثانيا : أولاد زنيبر شارح الهمزية...

ثالثا : أولاد عبد الهادي.

رابعا : أولاد زنيبر خربيش.

خامسا : أولاد اللطام زنيبر، ومنهم الحاج علي سالف الذكر.

سادسا : أولاد بناصر.

سابعا : أولاد بوعبيد...

☆ ☆ ☆



15) طابع السلطان مولاي يوسف بن الحسن



16) طابع السلطان مولاي يوسف بن الحسن الأول

تعتبر هذه المخطوطة موسوعة شاملة في السيرة النبوية، وهي سيرة عيون الصحابة رضي الله عنهم... وفيها علاوة على هذا جملة وافرة من عيون الآداب وفوائد التاريخ وهو ما يحقق صدق مقالتهم عنه بأنه كان مشاركاً... وقد ذيلها بقصيدة للساحلي في مدح النبي ﷺ.

وقد ختمها بتقاريظ لعدد من العلماء الأجلاء من أمثال أحمد بن عبد الله، وقاضي فاس عبد القادر العربي بوخريص ومحمد بن العياشي وأحمد بن محمد بن القاضي التلمساني وعبد الرحمن بن إدريس الحسني المنجرة إمام الروضة الإدريسية، ومحمد الهاشمي بن محمد الشكلنط الأندلسي، ومحمد المكي بن موسى بن محمد بن مَحمد بن ناصر، وعبد السلام بن الخياط ومحمد بن عبد الله المغيلي السلاوي وكل هؤلاء كانوا من نقاد العصر ورجال الفكر بالديار المغربية الأمر الذي يزكي عمل الشيخ زنيبر ويزيد في قيمته.



17) طابع السلطان مولاي يوسف بن الحسن الأول



18) طابع السلطان سيدي محمد بن يوسف
(محمد الخامس)

معطيات مدرسة أبي محمد صالح

نموذج : تأسيس ركب الحاج المغربي

للأستاذ محمد المنوني

مقدمة :

منذ استقر الدين بالغرب الإسلامي، تسير رحلات المومنين إلى الحج في مجراها العادي، وذلك ما طفحت بتبريزه مدونات التراجم، وإلى هذه المصادر : يربط مؤلفون هذه المبادرة باعتبارات جديرة بالوقوف عندها.

فابن حوقل[1] يقدمها كظاهرة تنويه بالمغاربة ويقول عنهم :

«... لم يزالوا تسموهممهم وتشوق نفوسهم إلى ورود المشرق. بسعة أخطارهم، وفاشي مروآتهم...».

بينما صاحب «المرجع الشافي»[2]، يربط حج بعض المغاربة بولايتهم للإمام إدريس الأول، وبيعته لما وصل إلى المغرب : «ولما دعا في المغرب عرفه رجال من أهل المغرب حجوا سنة قتل الفخي[3] عليه السلام، فقالوا : نعم هذا إدريس. رأيناه يقاتل وقد انصبغ قميصه دما. فقلنا من هذا ؟ فقالوا إدريس بن عبد الله...».

أما ابن خلدون[4] : فيجعل من حج المغاربة المبكر، واحدا من حوافز أخذهم بمذهب الإمام مالك. فيذكر أن رحلتهم ـ في غالبيتها ـ كانت إلى الحجاز، ويضيف: «فاقتصروا على الأخذ عن علماء المدينة، وشيخهم ـ يومئذ ـ وإمامهم مالك وشيوخه من قبله، وتليذه من بعده...».

ومن الشواهد المعمارية في هذا الاتجاه، قيام مركز قديم قرب مدينة فاس يحمل إسم «منزل الحجاج» حسب إشارة من المصدر[5] المعني عام 540/45 ـ 1146.

وقبل هذا التاريخ، كتب ملك مرابطي لم يذكر اسمه : إلى الأفضل وزير المستعلي الفاطمي، في التوصية بحاج من كبراء وأعيان الأسرة اللمتونية، جريا على عادة المخاطب بالرسالة. في مساعدة كل من ألم بمصر من الحجاج المغاربة[6].

وعن الموحدين يأتي إسم أبي العباس المريِّي : أحمد بن إبراهيم بن عبد الملك، التميمي القَنْجايْري، فيذكر عنه ابن عبد الملك[7] وهو يشير لملوك بني عبد المومن

---

1) «صورة الأرض»، منشورات مكتبة الحياة ـ بيروت دون تاريخ : ص 95.

2) المرجع الشافي : أحد شروح البسامة المتضمنة مصارع آل البيت في ثوراتهم، مؤلفه الإمام عبد الله بن حمزة، وبالجزء الأول منه وردت الفقرة التي نعلق عليها، وقد جاءت ضمن دراسة عن المولى إدريس الأكبر، نشرها الأستاذ المرحوم علال الفاسي، في مجلة تطوان : العدد 3 : 1974/1393 : ص 149.

3) هو محمد نفس الزكية بن عبد الله الكامل، شهيد وقعة فخ.

4) «المقدمة»، المطبعة البهية بمصر دون تاريخ : ص 392.

5) «أخبار المهدي بن تومرت...» تأليف البيذق : أبي بكر بن علي الصنهاجي، ط. دار المنصور ـ الرباط 1971 : ص 61، حيث تكرر ذكر : منزل الحجاج، مرتين.

6) الرسالة واردة عند المواعيني في «ريحان الألباب...» مخطوط خ. ص 1406 : ورقة 35 ب.

7) «الذيل والتكملة»، دار الثقافة ـ بيروت دون تاريخ : 49/1.

وأمرائهم : «وأصحبه طائفة منهم في بعض رحله المشرقية أموالاجسيمة، ليدفعها إلى من يراه أهلا لها بالحرمين الشريفين، من «ال البيت الكريم وغيرهم».

☆ ☆ ☆

ومن هذه الفقرة وسوابقها : نرى أداء شعيرة الحج بالمنطقة يسير سيرا عاديا، غير أنه حدث - عام 515 هـ - أن عليا المرابطي استفتى ابن رشد الكبير، في شأن المفاضلة بين الحج والجهاد من الأندلسيين وأهل العدوة، فيجيبه فقيه الأندلس بأن الحج ساقط عنهم، اعتبارا بعدم أمن الطريق، وأن الجهاد أفضل في حقهم[8].

وفي خط هذه الفتوى، يأتي موقف الطرطوشي والمازري وسواهما،[9] .ومع مر الزمن ينتقل هذا الاتجاه إلى فقهاء دكالة، فيفتي معظمهم بسقوط الحج عن أهل المغرب[10].

وفي مواجهة هذه الفتاوي، يندد بها أبو بكر بن العربي قائلا : «العجب ممن يقول الحج ساقط عن أهل المغرب، وهو يسافر من قطر إلى قطر، ويقطع المخاوف، ويخترق البحار : في مقاصد دينية ودنيوية، والحال واحد في الخوف والأمن، والحلال والحرام، وإنفاق المال وإعطائه - في الطريق وغيره - لمن لا يرضى»[11].

☆ ☆ ☆

وإلى هنا ينتهي هذا التقديم، لنتبين منه موقع دعوة الشيخ أبي محمد صالح إلى الحج والزيارة، فكان يهدف بمبادرته إلى القضاء على البلبلة التي أثارتها الفتاوي المضادة، وبذلك صار بين أركان طريقته حث المنخرطين فيها على البدار بالمسير لفريضة الحج وسنة الزيارة، دون أن يقبل من أحد عذرا في التأخير وبالأحرى التخلف، عن هذه الشعيرة المكملة لإسلام المريدين، ثم لم يزل ذلك سيرة من جاء بعد الشيخ أبي محمد من مقدمي تلاميذه، حتى انتظم مسار الحج وانتهجت طريقة[12].

وإلى ذلك ربما كانت هذه الدعوة تنظر إلى مزايا أخرى لهذا النسك، علما بأن الحاج ينفتح على العالم الإسلامي، ويستفيد من ذلك في سلوكه : أخلاقيا وروحيا وثقافيا واقتصاديا، وهي ظاهرة علق بها ابن حوقل[13] على فقرته السابقة عن سفر المغاربة للمشرق، وقال : «... فيزدادون ظرفا وأدبا، ومحتدا وفروسية، وعلا في جميع وجوه الفضل وسبل النبل».

ولتنظيم الدعوة الصالحية، سن لها مؤسسها عدة تنظيمات، ومنها : نصب مقدمين للحجاج، موزعين بين الجهات التي بها مريدوه[14].

ثم توصية الحجاج بالتزام السفر على طريق البر، وحظر عليهم ركوب البحر،[15] تفاديا من أخطار القرصنة.

وثالثا : تنظيم مراكز لنزول المسافرين، انطلاقا من رباط أسفي، وانتهاء عند الحرمين الشريفين، حسبما نتبين من بعد.

ورابعا : تجهيز هذه المراكز بالقيمين عليها، قال في «المنهاج المواضح[16]» :.

«ولم تزل جملة من تلاميذه (أبي محمد صالح) - رحمه الله - مقيمين ببلاد مصر والشام، فمتى ورد من المغاربة أحد وأراد الإقامة بها قبل أن يحج، فإن كان ذلك لعدم أعانوه وتسببوا له. وإن كان لغير ذلك هجروه وزجروه وقطعوه حتى يحج، ولم يزل ذلك دأب كل من قعد بعده للتربية».

وبإضافة إلى مصر والشام، تشير المصادر إلى مجموعة أخرى من المراكز : من المغرب إلى الحرمين الشريفين، مع القيمين عليها أو على شؤون الحجاج.

---

8) أجوبة ابن رشد : أوائل كتاب الجهاد : خ.س 6577.

9) «مواهب الجليل...» محمد الحطاب، مطبعة السعادة بمصر 1328هـ : 497/2.
«مختصر حاشية الرهوني على تعاليق لمختصر الخليلي للفقيه محمد كنون، الطبعة الأميرية بمصر 1306 هـ : 416/2.

10) «المنهاج الواضح...» تأليف أحمد بن إبراهيم الماجري، المطبعة المصرية 1933/1352 : ص 351.

11) «مواهب الجليل» : مصدر سابق : 497/2.
«مختصر حاشية الفقيه كنون : مصدر سابق : 416/2.

12) «المنهاج الواضح» : مصدر سابق : ص 352 - 353.

13) «صورة الأرض» : مصدر سابق : ص 95.

14) في «المنهاج الواضح» ص 139 : يأتي ذكر «الحاج أبي عبد الله محمد بن عيسى، وكان هو مقدم الحجاج ببلده». فتلوح هذه الفقرة إلى وجود مقدمين للحجاج في مناطق موازية.

15) «المصدر» ص 342.

16) ص 353.

1- غير أن داخل المغرب لا يعرف فيه - الآن بالتحقيق سوى «رباط أبي محمد صالح» بأسفي وستتحدث عنه من بعد.

2- وقد يكون من هذه المراكز «زاوية بني دغوغ» بدكالة، فيذكرها مولف «المنهاج الواضح»[17]، ويسمى شيخنا بالحاج أبي وكيل : ميمون بن ومالان الدغوغي، وهو من تلاميذ الشيخ أبي محمد صالح.

3- وفيما يشاع عند طلبة زعير، كانت هناك زاوية صالحية» عند المكان المعروف بإسم «عيون ماسي»، وتنسب إلى الشيخ الحاج أحمد الماسي، الذي يقال : إنه كان من أصحاب الشيخ أبي محمد صالح[18].

4- وخارجا عن المغرب : ها هو ما توصلت إليه من المراكز والقيمين عليها أو على شؤون الحجاج، انطلاقا من «زاوية تلمسان»، وكان القيم عليها هو القاسم بن عبد الله الماجري، بعهد من جده أبي محمد صالح[19].

5- «رباط متيجة» (البليدة) في زواوة : بأول هذه المنطقة، شيخه أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الكبير[20].

6- زاوية بجاية، شيخها أبو الربيع سليمان بن عبد الملك بن موسى بن أبي حبوش[21].

وإلى هذا الاسم، كان في بجاية من تلاميذ أمين محمد صالح : محمد بن أبي القاسم السجلماسي، فيذكره الغبريني[22]، ويصفه بأنه كان قويا في علم التوحيد.

7- وخلال قصة ساقها في «المنهاج الواضح»[23]، ورد ذكر «مسجد الساحل» بالمهدية من تونس، وقد نزل به جماعة من أصحاب أبي محمد صالح في طريقهم للحج.

8- «زاوية الحجاج»، أشار لها محمد بن عبد السلام الناصري[24]، فيذكر أنها منسوبة للشيخ أبي محمد صالح، ويحدد مكانها في جهة بلدة الزّرْكَان، شرقا من مدينة توزر.

9- وبصعيد مصر : منزل ابن الفحام المراكشي، فترد ب «المنهاج الواضح»[25] رواية عنه فيها : «سمعنا الفقيه الفاضل أبا الحسن عليا المراكشي الشهير بابن الفحام، يقول وهو بموضعه بسفط الرشيد، من أرض الصعيد من وادي مصر...».

10- وإلى القاهرة انتقل - للسكنى بها - أبو فارس عبد العزيز بن الشيخ أبي محمد صالح، ألى أن توفي بها ودفن بالمحلة الكبيرة : عام 646/«1248»[26].

وكان والده عهد إليه بالقيام بالرباطات التي على طريق الحج[27].

11- زاوية الإسكندرية، وقد استمرت إلى عام 1663/1074، حيث وقف عليها أبو سالم العياشي، وسجل عنها هذه الارتسامة : «ومن المزارات بالإسكندرية زاوية لأبي محمد صالح، ينزلها المغاربة، ولهم فيها أوقاف، وبها سلاح معلق...»[28].

واستوطن الإسكندرية من أسرة أبي محمد صالح : حفيده إبراهيم بن أحمد، وبها ولد له ولده أحمد، مؤلف «المنهاج الواضح»[29].

12- زاوية الكلاسة بدمشق، شيخها عبد الصمد الدكالي، من أصحاب الشيخ أبي محمد صالح[30].

---

17) ص 329.
18) الفقرة الأخيرة من تعبير محمد بن أحمد الكانوني في «جواهر الكمال...» المطبعة العربية بالدار البيضاء 1356 هـ : 22/1.
19) «جواهر الكمال» : القسم المخطوط.
20) «المنهاج الواضح» ص 325.
21) المصدر ص 133.
22) «عنوان الدراية...» الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر 1970/1389 : ص 132 - 133.

23) ص 343.
24) «الرحلة الناصرية الكبرى» مخطوطة خ.س 5658.
25) ص 322 - 344.
26) «المنهاج الواضح» ص 145.
27) «جواهر الكمال» : القسم المخطوط.
28) «الرحلة العياشية» ط.ف 1316 هـ : 367/2.
29) «المنهاج الواضح» ص 143.
30) المصدر ص 327.

13ـ وبالمدينة ذاتها يسكن من يذكره المصدر المعني[31] في هذه الصيغة : «الفقيه العالم أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الدكالي رحمه الله، بموضع تعبده من بلدة دمشق...».

14ـ وفي بيت المقدس قرأ أحد المغاربة على الفقيه المغربي : عبد الله الوسياني[32].

15ـ وبالخليل : أقام الحاج بيدار بن سعيد الهنتاتي مدة من سنين[33].

16ـ حتى إذا انتهى المطاف إلى الحجاز، نجد التقي الفاسي[34] يذكر عن عبد الله بن عبد الحق السوسي وهو يترجمه : أنه أدرك جماعة من دكالة من أصحاب الشيخ أبي (محمد) صالح المقيمين في الحجاز وصحبهم.

17ـ وكان بمكة المكرمة من أصحاب نفس الشيخ : أبو لكوط : عبد الله بن عبد السلام بن عبد الرحمان الدكالي، ت 629/«1231»[35].

18ـ وبالمدينة المنورة اشتهر رباط دكالة، ولا يبعد أن يكون مؤسسوه من أصحاب محمد صالح أو تلاميذهم، نوه به ابن مرزوق الخطيب، وأشار له كل من التقي الفاسي[36] والسخاوي[37]، وكان المصدر الأول هو الذي استوعب وصفه، فيقول عنه ابن مرزوق[38] : «ورباط دكالة هذا، يقال : إن جماعة من أهل دكالة المغرب وردوا المدينة وكانوا من الأولياء، اشتروا هذا الموضع بأموال من أعمال أيديهم، وبنوا فيه هذا الرباط، وهو من أكبر الربط، يشتمل على بيوت وغرف، يسكنه المجاورون وغالبهم المغاربة الخيار الفضلاء... كان إذا جن الليل في هذا الرباط، لا يسمع إلا كدوي النحل ذكرا وتلاوة».

وقبل هذا يبرز نفس المصدر بين مساكن الرباط : دويرة بنيت بدار عثمان بن عفان، وفيها مسجد هو موضع استشهاده، ويضيف : «وكانت دويرة معظمة يسكنها الأكابر».

والغالب إن هذا الرباط هو الذي ينسبه السخاوي[39] للمغاربة، ويسميه ـ أيضا ـ برباط النخلة، ويضيف : «وهو إثنان : للرجال والنساء».

وسيكمل رباط دكالة، ثمانية عشر بين رباطات ومشرفين عليها أو على شؤون الحجاج، وبقي أن نعود لرباط أسفي، وقد كان في تصميم بنائه ونظام أصحابه يتميز عن الرباطات المغربية، ويقلد، نمط رباطات المشرق، وهي ظاهرة لاحظها ابن مرزوق،[40]، فيسجل أن الربط على ما هو المصطلح عليه في المشرق، لم ير في المغرب على سبيلها ونمطها إلا رباط أبي محمد صالح، وزاوية أبي زكريا بسلا، ويضيف : «ولم أر لهما ثالثا على نحوهما، في ملازمة السكان وصفاتهم وشبههم بمن ذكر».

وابن مرزوق يلوح بهذه الفقرة إلى شارات أصحاب الرباط، وهي مشروحة في «المنهاج الواضح»[41].

---

(31) ص 137.

(32) «المصدر» ص 335.

(33) «المصدر» ص 141، مع تكميل أخذ من ص 143.

(34) «العقد الثمين...» مطبعة السنة المحمدية بالقاهرة : 199/5.

(35) «المصدر» 201/5 ـ 202.

(36) «المصدر» : 503/4 ـ 504 عند ترجمة القاضي أبي العز : السائب بن عبد الله بن السائب الأنصاري الخزرجي الطنجي نزيل المدينة المنورة، فيقول عنه : وسكن بالحجرة التي هي مسكن الأولياء والأخيار، برباط دكالة.

(37) «التحفة اللطيفة...» مطبعة السنة المحمدية بالقاهرة 1399، 1400 ـ 1979، 1980 : عند تراجم ثلاثة من المقيمين برباط دكالة : إسماعيل الصنهاجي المغربي : 323/1.

ثم عند ترجمة أبي علي الحاحاني : الحسن بن عيسى، قائلا عنه : «وكان ساكنا برباط دكالة في حجرة الأولياء»، قال السخاوي : «مات في سنة تسع وأربعين وسبعمائة، أو التي بعدها» : 494/1 ـ 495.

وثالثا : عند ترجمة عبد الواحد الجزولي، وكان قد جاور مع شيخه عبد الله البكري في رباطه : رباط دكالة، مكبا على نسخ العلم : 104/3.

(38) «مجموع في سيرة أسرة الخطيب ابن مرزوق، من تأليفه : من مصورات خزانة الحسن الثاني.

(39) «التحفة اللطيفة» 65/1.

(40) «المسند الصحيح الحسن...»، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر 1981/1401 : ص 413.

(41) ابتداء من ص 158.

أما تصميم بناء الرباط في عهد تأسيسه فلا يزال غير واضح، وبقيت لدينا إلمامة بوصفه خلال المائة الهجرية الثامنة، فيصفه ابن الخطيب[42] بأنه من المشاهد الحافلة، والمثالف الجامعة، إلى سعة فنائه، وتجهيز بنيته بالمرافق، فضلا عن المسجد والمدافن.... أما قرى ضيوفه فهو جار عليه من بيت المال لنظر شيخه.

وتعبير المرافق، في هذا المصدر، من دلالاته تجهيز الرباط بالحُجَر لسكنى المريدين الملازمين، ولنزول الضيوف الواردين، وذلك ما يبرزه الأزدي[43] ناقلا عن أستاذه الشيخ أبي مروان، فيذكر هذا الأخير أصحاب شيخه أبي محمد صالح، وبنوه بسيرتهم في هذه الملاحظة : «...ثم إني تفطنت لأصحابه، فرأيت كل واحد منهم يخرج من بيته في الرباط، ويمشي على بيوت الرباط يسأل الدعاء من أصحابه...».

ونستخلص الآن أن دعوة أبي محمد صالح للحج والزيارة حققت هدفها، واستمرت معطياتها خلال حياته وبعدها، ثم أخذت تتراجع من أواخر ق 7 هـ[44]، ومع ذلك عاشت عن طريق ترسيم ركب الحاج المغربي من بداية ق 8 هـ.

الرباط : محمد المنوني

ملحق 1

فقرات عن وفرة الحجاج المغاربة صدر ق 5 هـ، اقتباسا من المصدر آتي الذكر

وفيه (شوال 415 هـ) قطع على حجاج المغاربة الخارجين في البر عند تعذر أمر الحج في هذه السنة ووقوفه، فتقدمت قوافل خرجت لجماعة من المغاربة الواردين من المغرب، والمصامدة، بغير وال عليهم ولا حافظ لهم، فلما جاوزوا بركة الجب قُطِع عليهم، وأُخذت أموالهم، وخرجوا[45]، ورجع من رجع منهم، وهلك من هلك[46].

وفيه (ذي القعدة 415 هـ) سار حاج المغاربة والمصامدة من مصر إلى مكة في البر بغير أحد يصحبهم ولا يخفرهم، وهي القافلة الثانية من حاج المغاربة، وسار الجمع ولم يسر أحد من حاج المصريين، والتمس الوفد الوارد من الحجاز إلى مصر من الحسنيين وغيرهم المسير معهم فمنعوا، وأشير بمقامهم بمصر إلى أن يفوتهم الحج في هذه السنة، لرأي رآه من أشار به، فلما تجاوز حاج المغاربة بركة الجب خرج عليهم جماعة من القيصرية والعبيد قد استعدوا للقطع عليهم، وكان مع المصامدة مؤن وسلاح كثير قد ابتاعوه واستمدوه من مصر، فوقف لهم المصامدة، وهزموهم، وخرج[47] من العبيد والقيصرية طائفة، وانصرفوا عن القافلة مفلولين مجرحين، وكثر البكاء والصراخ في حاراتهم بالقاهرة[48].

☆ ☆ ☆

وفي يوم السبت لتسع بقين منه (ذي القعدة 415 هـ)، ورد جميع من كان خرج للحج من المغاربة والمصامدة إلى مصر بعد أن انتهوا في خروجهم إلى بحر ؟ واستقبلهم الحاج

42) «نفاضة الجراب»، دار الكتاب العربي بالقاهرة دون تاريخ : ص 71.

43) «تحفة المغترب ببلاد المغرب»، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد : العدد 17 ـ 72 ـ 1973، حيث نشرت تحفة الأزدي كاملة، ووردت الفقرة المعنية بالتعليق عند ص 65.

44) «المنهاج الواضح» ص 353.

45) قد يكون أصل الكلمة «وجرحوا» بالجيم أولها.

46) «أخبار مصر في سنتين : 414 ـ 515 هـ»، تأليف محمد بن عبيد الله المسبحي، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1980 : ص 189.

47) قد يكون أصل الكلمة «وجرحوا» بالجيم أولها.

48) «أخبار مصر...» مصدر سابق ص 194.

الذين خرجوا قبلهم في الدفعة، وهم مجرجون عراة، فذكروا لهم ما لقوه من العرب المجمعة من الطماع قبل وصولهم إلى أيلة، وأنهم جرجوهم وعروهم، وأنهم مقيمون ينتظرون موافاة من بقى إليهم من الحاج ليصنعوا به نظير ذلك، فعاد جميعهم إلى مصر على أقبح صورة، وبطل حجهم وحج غيرهم من مصر في هذه السنة[49].

ملحق 2

مذكرات حاج تبرز مبرات معمارية بالاسكندرية والحجاز من وقف محسن مغربي وأكثرها برسم الحجاج المغاربة، وهكذا يقول المصدر المعني :

... وسرنا لدار هنالك في جدة ينزل فيها الحجاج المغاربة، حبسها عليهم السيد الحاج عبد الله بن بيهي مولود المغربي الحيحي، لما كان هنالك في فضاء مناسك الحج.

وحبس محلا آخر في اسكندرية بجوار سيدي عبد الله المغاوري، لتنزول حجاج المغاربة مجانا بلا كراء، احتسابا لله تقبل الله عمله، فقد ترك في المشرق أثرات لم يزل يذكر بها.

وبنى في جدة مسجدا وصومعة، وحبس عليه ما يكفيه لدوام عمارته، كما حبس على الإمام الذي يصلي فيه حبسا خاصا به، وحبسا على ماء الوضوء ومحله، وحبسا على المؤذن، ويسمى مسجد الغربي...

وخرجنا لمحل يسمى المعلا (بمكة المكرمة)، حبسه الرجل المذكور الحيحي، على حجاج المغاربة ينزلون فيه أيام الموسم احتسابا لله، وهو واسع جدا، يسع جميع حجاج المغاربة الذين لا يجدون قوة للكراء في بيوت مكة، وبنينا فيه الخباء الذي كنا ننزل فيه قبل، وكنا سبقنا للمحل المذكور نحو 15 قيطونا، ولما قربت الوقت توالت جماعات حجاج المغاربة، فملكوا فضاء المعلا كأنهم جيش السلطان، وأغناهم المحل المذكور عن البحث على أمكنة الكراء للنزول...[50].

ملحق 3

صاحب هذه المبرات هو الحاج عبد الله بن عبد الملك بن بيهي بن مولود الحاحي، قائدها هو وأبوه وجده، وانتهى إلى شفوف كبير صدرا من أيام السلطان العلوي محمد الرابع، ثم كانت وفاته بمراكش عام 1287.

واشتهرت مبراته حتى نوه بها مؤرخان من القرن 19، فيذكر عنه أكنسوس أنه صاحب خيرات ومبرات، وصير في حجه أموالا طائلة في أبواب الخير، وفي تعبير الناصري :[51] «...وكان من كبار قواد المغرب، وأهل البذل والإيثار والمعروف، له في ذلك أخبار مذكورة، رحمه الله».

ثم ترجمه ابن ابراهيم في الأعلام[52]، ورابعا محمد المختار السوسي في «إيليغ قديما وحديثا»[53] وتعاليقه لمحمد بن عبد الله الروداني.

49) «المصدر» ص 195 ـ 196.

50) «التسلي عن الآفات، بذكر الأحوال وما فات»، اسم مذكرة الفجدامي : محمد بن أحمد بن محمد الحنناوي التفرشتي ثم المراكشي؛ مخطوطة في حوزه أستاذ فاضل بمراكش : ص 104 ـ 105.

51) «الاستقصا» دار الكتاب ـ الدار البيضاء : 119/9.

52) المطبعة الملكية بالرباط : 336/8 ـ 337.

53) نفس المطبعة، 1966/1386 : ص 272 ـ 276.

الشروح المغربية على صحيح مسلم

للدكتور عمر الجيدي

تقديم :

منذ خمس سنوات خلت، جاءني طالب يرجوني أن أختار له موضوعا لرسالته، فاقترحت عليه أن يخصص بحثه لصحيح مسلم، ولم أكتف بمجرد الاقتراح، بل طلبت أن تكون صياغة الموضوع هكذا : «عناية المغاربة بصحيح مسلم»، نظير ما فعل بشقيقه صحيح البخاري، غير أنه لم يفعل، ثم عاودت الاقتراح نفسه على طالب آخر جاءني مسترشدا، فتردد أيضا، متذرعا بقلة المصادر، وصعوبة الموضوع.

وأمام إعراض الأول، وتخوف الثاني، ألزمت طلبة شعبة علوم القرآن والحديث أن يخصصوا أبحاثهم التكميلية لسنة 1985 لصحيح مسلم، فاستجابوا للأمر، وهيأوا بحثا اشترك فيه خمسة طلاب، وتحت العنوان المقترح أعلاه، إلا أنهم لم يفصلوا القول في ذلك ولم يستوعبوا ولا تطرقوا لجزئيات الموضوع وتفاصيله، وتتبع مراحل الخطوات التي مر بها صحيح مسلم في هذه الربوع، ومنذ دخوله إليها إلى يومنا هذا، بالقدر الذي كنت أرغب فيه، وإن كانوا قد بذلوا في ذلك جهدا يستحقون عليه كل تنويه وتقدير ولعل من غريب الصدف أن تلتقي رغبتنا في الاهتمام بصحيح مسلم، باهتمامات بعض الجهات، إذ بدأنا نسمع في هذه الأيام أحاديث تعنى بالإمام مسلم وصيحه، وتعقد له الندوات هنا وهناك.

وها هي ذي المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة - إيسيسكو - جاءت لتعزز هذا الجهد، وتعمق البحث، وتجمع شتات ما قيل، بعد أن وفقت إلى اختيار هذه الشخصية الإسلامية الفذة، التي تستحق التكريم والاحتفاء، وبعد أن أفلحت في جلب علماء أجلاء، ومحدثين أكفاء، ليضعوا الرجل في مستواه، ويبينوا للناس فضله وعلمه، ويبرزوا لهم منزلته وقدره.

ولما دعيت إلى المشاركة في هذا الملتقى، لم يكن لي من خيار وأنا الذي طالبت غيري بالبحث في هذا الموضوع أن أتخلف، رغم أن الدعوة لم تصلني إلا في وقت متأخر جدا.

وهكذا اخترت لموضوع تدخلي البسيط والسريع : «الأوضاع المغربية على صحيح مسلم» وقصدي بهذه المساهمة،

أن أتأكد من صحة تلك القولة الشائعة التي تفيد أن المغاربة اهتموا بصحيح مسلم أكثر مما اهتموا بغيره من كتب السنة، وأنهم كانوا يفضلونه حتى على صحيح الإمام البخاري، الأصل الأول الذي حاز ثقة المحدثين جميعا، لا يختلف في ذلك محدثو مغرب العالم الإسلامي عن مشرقه.

فهل كان المغاربة حقا مهتمين بصحيح مسلم أكثر من غيره ؟

واذا كان الأمر كذلك، فأين تظهر هذه العناية، وهذاالاهتمام ؟

بهذين السؤالين رحت أنطلق في البحث، وأغذ السير فيه، وأقلب صفحات بعض المراجع المهمة بالموضوع، أو التي لها به علاقة. ورغم أن البحث ما يزال في بدايته، إلا أنه هداني إلى العثور على طائفة مهمة من المؤلفات حول صحيح مسلم، ما بين شروح وحواش وتعليقات واختصارات، فأيقنت أن المغاربة كانوا فعلا مهتمين بهذا الأثر الحديثي الخالد، ولكن ليس بالقدر الذي تصورهم به هذه القولة الشائعة، وإنما الصواب أن يقال : إن المغاربة كانوا يتعاملون مع صحيح مسلم بالقدر الذي كانوا يتعاملون به مع غيره من كتب الحديث، سواء تعلق الأمر بالصحاح، أم بالمسانيد، أم بالسنن، بل رأينا الكثير منهم يفضلون غيره عليه. ولو أردنا الاقتراب من الحقيقة أكثر لقلنا : إن المغاربة في تعاملهم مع كتب السنة، كانوا طوائف : طائفة منهم وهم الفقهاء الخلص آثروا التعامل مع سنن أبي داود، وهذا شيء طبيعي، مادام الفقهاء يهمهم استنباط الأحكام الفقهية[1]. وطائفة ثانية حصرت اهتمامها في كتاب الموطأ، على اعتبار أنه أصل المذهب وأساسه، وهي طائفة المنظرين للمذهب المالكي، المهتمين بتأصيل قواعده وبناء الفروع على الأصول. وطائفة آثرت التعامل مع كتب السنة عموما، وهي طائفة المحدثين وهذا التقسيم لا يعني أنه لم يكن هناك تداخل بين الطوائف الثلاث كما لا يعني أن هناك انفصاما بينها، وإنما هذا بحسب الغالب، وإلا فكل طائفة كانت تكمل الأخرى.

ولئن تفاوتت عناية المغاربة في الاهتمام بالمصنفات الحديثية، فإن المؤكد أنهم كانوا يهتمون بها جميعا، وإن المتصفح لكتب الفهارس والأثبات المغربية يجد سيلا من الكتب الحديثية الأولى التي كان الشيوخ يدرسونها، ويجيزون بها طلابهم، ومن هذه المصنفات ما يذكره ابن خير في فهرسه مثل : مسند حديث الأوزاعي، ومسند حديث ابن جريج، ومسند حديث الزهري وعلله، ومسند حديث سفيان الثوري، ومسند حديث سفيان بن عيينة، ومسند حديث شعبة بن الحجاج، ومسند حديث يحي بن سعيد الأنصاري، ومصنف سفيان بن عيينة، ومصنف عبد الرزاق، ومصنف وكيع بن الجراح، وكلها كانت رائجة في الأندلس في وقت متقدم، فما الظن بكتب الصحاح والسنن والمسانيد التي جاءت في وقت أصبح فيه المغرب بلد حديث ورواية. ؟

لقد بدأت كتب الحديث تعرف طريقها نحو المغرب أواخر القرن الثاني الهجري، وازداد انتشارها في القرن الثالث. ويستفاد من بعض الروايات الموثوقة، أن موطأ مالك - وهو كتاب حديث وفقه - دخل الأندلس أواخر القرن الثاني الهجري على يد الغاز بن قيس المتوفى سنة 199 هـ ، كما دخل إلى تونس على يد علي بن زياد التونسي المتوفى عام 183 هـ في التاريخ نفسه، ثم تبعته كتب أخرى مثل مصنف ابن أبي شيبة الذي دخل على يد بقي بن مخلد المتوفى عام 276 هـ.

وفي القرن الثالث الهجري دخل مصنف أبي داود السجستاني المتوفى عام 275 هـ وجامع الترمذي المتوفى عام 279 هـ وسنن النسائي المتوفى عام 303 هـ، ومسند الإمام أحمد ابن حنبل المتوفى عام 241 هـ، وسنن البيهقي المتوفى عام 458 هـ، وسنن الدارقطني المتوفى عام 385 هـ، وسنن البزاز وغيرها، كما دخل صحيح البخاري على يد الإمام أبي عبد الله الأصيلي المتوفى عام 392 هـ، بعدما رواه عن أبي زيد المروزي عن محمد بن يوسف الفربري، في الوقت الذي أدخله إلى تونس أبو الحسن القابسي المتوفى عام 403 هـ.

---

1) لا يفهم من هذا أن سنن أبي دواد انفرد بهذه المزية فصحيح البخاري وصحيح مسلم وغيرهما تضمنا الكثير من أحاديث الأحكام، وإنما الأمر يرجع إلى سهولة التناول، فالفقهاء كثيرا ما يتعاملون مع هذا المصنف أكثر من غيره ويكفي أن تلقي نظرة خاطفة على بداية المجتهد ليتضح صدق هذا الرأي.

وتفيد بعض الروايات أن صحيح مسلم دخل إلى المغرب قبل صحيح البخاري وأن كتب السنن كانت أسبق دخولا من الصحاح.

دعوى تفضيل المغاربة لصحيح مسلم :

يذكر التجيبي في برامجه في الصفحة الثالثة والتسعين أن طائفة من أهل المغرب فضلت صحيح مسلم على صحيح البخاري، ومن هؤلاء الحافظ ابن حزم الظاهري، ويرجع سبب ذلك إلى حسن سياقته، وجودة وضعه وترتيبه، لا إلى الصحة، لأنهم كغيرهم من المشارقة يعترفون في ذلك بالسبق للإمام البخاري من غير خلاف. فصحيح مسلم يمتاز بجمع طرق الحديث التي أخرجها في مكان واحد، وهذا ما يسر تناوله، وسهل على الناس التعامل معه، على عكس البخاري الذي يقطع الأحاديث، ويفرقها على الأبواب بحسب ما يؤدي المعنى الذي يريده، والغاية التي يحققها.

ليس هذا فحسب، بل إنه كثيرا ما يذكر الأحاديث في مواضع قد لا يخطر بالبال أن تذكر فيها، وذلك لأمور يفهمها البخاري، وهذا ما يجعل التعامل معه لغير المتمرسين أمرا في غاية الصعوبة والعسر، حتى لقد أوقع صنيعه هذا بعض الباحثين في أن ينفوا كون البخاري أخرج بعض الأحاديث، وهي موجودة فعلا في صحيحه[2] ومع هذا الاختيار لصحيح مسلم، فإن هذا لا يعني أن المغاربة كلهم فضلوه على البخاري، بل إن غالبيتهم سارت مع جمهور المحدثين الذين اعتبروا الأفضلية لصحيح البخاري، وهذا يظهر من كثرة الشروح والتعليقات التي علقوا بها على صحيح البخاري.

وإذا اعتبرنا ما ذكره ابن خير في فهرسه، علمنا أن من المغاربة من كان يفضل سنن أبي دواد على صحيح البخاري ومسلم كليهما، وهذه النقطة تحتاج إلى مزيد تمحيص وتحقيق وليس يتسع المجال لبسطها هنا.

كيفما كان الأمر، فإن صحيح مسلم منذ أن دخل إلى المغرب والمغاربة يعتنون به، وتتجلى مظاهر هذه العناية في هذه الأعمال التي وضعوها عليه من شروح وتعليقات واختصارات وتعريفات بروايته وعلله ونكته الفقهية، كما تظهر أهمية هذه الأعمال، في كونها صدرت من قبل علماء كبار أمثال : المازري، وعياض، وقاسم بن أصبغ، وأبي علي الغساني بحيث إن هذه الأعمال تعتبر في مجملها، قمة الإبداع المغربي في الشرح والتعليق، وتعطي الدليل على تفوق المغاربة في صناعة فن التحديث، كما تتميز بجودة مضمونها، وانفرادها بأشياء امتازت بها، فإذا أضفنا إلى ذلك أن معظم هذه الأعمال متقدمة في الزمان، وأن كبر علماء الحديث من المشارقة اعتمدوها فيما كتبوه حول صحيح مسلم، اتضحت لنا جودة هذه الأعمال وقيمتها ونحن إذ نستعرض في هذا العجالة بعض هذه الأعمال للمغاربة حول صحيح مسلم، لا نزعم أننا أحطنا بكل ما عمل في هذا الصدد، إذ البحث ـ كما أسلفت القول ـ ما يزال في بدايته، ومن المؤكد أنه فاتنا الشيء الكثير قصرت يدنا عن الوصول إليه، لكن ما وقفنا عليه يعطي صورة واضحة على أهمية هذه الأعمال من جهة، وعلى كثرتها ـ نسبيا ـ من جهة ثانية.

لقد تجمعت لدينا قائمة من هذه الأعمال تصل إلى ثلاث وخمسين عملا توضيحها كالآتي :

واحد وعشرون شرحا.

خمسة مختصرات.

حاشيتان.

ختمتان.

تهذيب.

خمسة أعمال اهتمت بتوضيح غريب ألفاظه.

أربعة عشر عملا اهتمت بالتنظير والمقارنة.

ثلاثة اهتمت برجاله.

وتسهيلا على الباحث ارتأينا أن نثبت هذه القائمة على حروف المعجم وحسب الطريقة المغربية مراعين في ذلك الحرف الأول فقط، وإن كان المنطق يقتضينا أن نرتبها حسب التسلسل الزماني لكل عمل، لكن الفائدة حاصلة على كل حال إن شاء الله.

2) أنظر مقدمة شرح النووي لصحيح مسلم 15/1.

وهذه الأعمال هي :

1) أنوار الصباح في الجمع بين السنة الصحاح، لمحمد بن عتيق بن علي بن عبد الله بن محمد التجيبي الشقوري اللاردي المتوفى بغرناطة لثلاث بقيت من رجب سنة سبع وثلاثين وستمائة[3].
2) إكمال المعلم في شرح مسلم للقاضي أبي الفضل عياض بن موسى اليحصبي السبتي المتوفى عام 544 هـ أكمل به شرح شيخه المازري[4].
3) الإيجاز والبيان لشرح خطبة كتاب مسلم رحمه الله تعالى للقاضي الشهيد أبي عبد الله محمد بن أحمد الشهير بابن الحاج التجيبي المقتول ظلما بالمسجد الجامع وهو ساجد في صلاة الجمعة سنة 529 هـ، يذكر ابن خير في فهرسه ص 296 أنه قرأه عليه في منزله في شهر صفر سنة 529 هـ[5].
4) اقتباس السراج في شرح مسلم بن الحجاج، لعلي بن أحمد بن يوسف بن مروان بن عمر الغساني الوادي آشي المتوفى سنة 609 هـ[6].
5) إكمال للقاضي عياض لأبي عبد الله محمد بن إبراهيم به محمد الليثي البقوري الأندلسي دفين مراكش المتوفى عام 707 هـ[7].
6) إكمال الإكمال للشريف أبي القاسم السلاوي الإدريسي من أكابر تلاميذ ابن عرفة اقتصر فيه غالبا على أبحاث بن عرفة وأصحابه وجعله على إكمال عياض على معلم المازري، قال فيه ابن مخلوف في شجرة النور الزكية : نفيس للغاية[8].
7) إكمال الإكمال أو إكمال إكمال المعلم للإمام أبي عبد الله محمد بن خليفة الوشتاتي الأبي التونسي المتوفى عام 827 هـ ذكر مؤلفه أنه ضمنه كتب شارحه الأربعة المازري وعياض والقرطبي والنووي مع زيادات مكملة، وتنبيه، ونقل كلمة عن شيخه ابن عرفة يقول فيها: ما يشق على فهم شيء كما يشق على كلام عياض في بعض مواضع من الإكمال وهو مطبوع متداول طبع في القاهرة سنة 1328 هـ في سبعة مجلدات، وتوجد منه نسخ مخطوطة في عديد من الخزائن[9].
8) بغية كل مسلم من صحيح مسلم لمحمد بن عبد الله المعروف بالموقت المراكشي مطبوع متداول صغير الحجم جمع فيه مؤلفه بعض الأحاديث المختارة من صحيح مسلم.
9) تعليق على صحيح مسلم لأبي عبد الله محمد التاودي ابن الطالب بن علي بن سودة المري الفاسي المتوفى عام 1209 هـ[10].
10) تقييد المهمل وتمييز المشكل لأبي علي حسين بن محمد بن أحمد الجياني الغساني القرطبي الأصل المتوفى عام 498 هـ، ويسمى ما ائتلف خطه، واختلف لفظه، استوعب فيه أكثر رجال اللصحيحين، فقيد وضبط كل اسم يقع فيه اللبس، وصنفه في ثلاثة أقسام :
الأول : نبه فيه على الأوهام الواقعة في رجال الصحيحين سوى الصحابة، وهو موضوع الجزء الأول.
الثاني : نبه فيه على الأوهام الواقعة في أسماء الصحابة.
الثالث : عرف فيه بشيوخ البخاري ومسلم[11].
11) تجريد الصحاح أو كتاب الجامع لما في كتاب الموطأ والبخاري ومسلم والنسائي وأبي داود والترمذي من الحديث، لأبي الحسن رزين بن معاوية بن عمار العبدري الأندلسي من مرويات ابن خير الإشبيلي[12].

3) أنظر الذيل والتكملة السفر 6 ص 429، والتكملة ص 661 وبرنامج شيوخ الرعيني ص 151.
4) يوجد في ستة عشر جزءا مخطوط خزانة القرويين بفاس وابن يوسف بمراكش والخزانة الحسنية بالرباط والمكتبة العامة بالرباط تحت رقم 2073 د وقد كانت نية وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية متجهة إلى طبعه ولست أدري أين وصل المشروع ؟
5) أنظر فهرس ابن خير ص 196 وشجرة الزكية ص 132 وبغية الملتمس ص 31.
6) أنظر تكلة ابن الأبار ص 675 والذخيرة السنية 49.
7) أنظر الأعلام للمراكشي 335/4 والنفح 353/1 وشجرة النور 211.
8) أنظر شجرة النور ص 250 والمعجم للأستاذ عبد العزيز بنعبد الله ص 18.
9) أنظر تاريخ التراث العربي 211/1، ونيل الابتهاج ص 287 ومعجم المؤلفين 287/9، وأعلام الزركلي 349/6.
10) أنظر مدرسة الإمام البخاري بالمغرب 214/2.
11) يوجد الكتاب مخطوطا بالخزانة العامة بالرباط رقم 1216 ق به بتر من أوله، ونسخة أخرى مصورة على شريط رقم 374 ونسخة بخزانة مكناس، ونسخة بالخزانة الحسنية، أنظر بحث الأستاذ محمد المنوني المنشور بمجلة دار الحديث الحسنية عدد : 3 ص 101، والجدير بالملاحظة أن هذا الكتاب عليه اعتمد القاضي عياض في مشارقه، وأشاد به في مقدمة المشارق، وعلمت أنه حقق أخيرا بالرباط وهو جدير بأن يحقق.
12) أنظر فهرس ابن خير ص 123.

12) تلخيص لصحيح مسلم، لأبي العباس أحمد بن عمر الأنصاري القرطبي المتوفى عام 656 هـ، ذكره فؤاد سزكين وأشار إلى أماكن وجوده[13].

13) تعليق على صحيح مسلم لعيسى بن أحمد الهنديسي الهدبي البجائي يعرف بابن الشاط (وليس هو ابن الشاط السبتي) الفقيه الأصولي اللغوي المحدث وهذا الشرح التقطه من شرح لأبي علي مسلم توجد نسخ من الكتاب مخطوطة في المكتبة الحسنية بالرباط تحت الأرقام الآتية : 5456 ـ 5536 ـ 9005 والمكتبة العامة بالرباط رقم 1791 ـ 1824 ك [14].

14) التنبيه عل الأوهام الواردة في الصحيحين، لأبي علي الغساني الجياني، وهو يتناول الرواية والرواة، ذكره فؤاد سيزكين[15].

15) تعليق على مسلم أو ختمة لصحيح مسلم للتهامي بن الحاج المدني بن علي بن عبد الله المتوفى سنة 1331 هـ، وهو مطبوع على الحجر بفاس في 16 صفحة[16].

16) الجمع بين الصحيحين لمحمد بن فتوح بن عبد الله الأزدي الميورقي الحميدي نزيل بغداد المتوفى عام 488 هـ، يوجد الكتاب مخطوطا بالخزانة العامة بالرباط الأول منه تحت رقم 340 ك والثاني تحت رقم 216 ك[17].

17) الجمع بي الصحيحين لأبي عبد الله محمد بن حسين بن أحمد بن محمد الأنصاري المري المعروف بابن أحد عشر شيخ ابن خير الإشبيلي يرويه عنه إجازة[18].

18) الجمع بين الصحيحين لعبد الحق بن عبد الرحمن بن الخراط الإشبيلي المتوفى عام 581 هـ ببجاية[19].

جمع الأحاديث التي زاد مسلم في تخريجها على البخاري لأبي بكر بيبش بن محمد بن علي الصيدري قاضي شاطبة المتوفى سنة 582 هـ[20].

19) جمع الفوائد لجامع الأصول ومجمع الزوائد لمحمد بن محمد بن سليمان الروداني نزيل دمشق والمتوفى بها عام 1054 هـ، جمع فيه بين جامع الأصول لابن الأثير، ومجمع الزائد للهيثمي، يوجد مخطوطا بالمكتبة الحسنية تحت رقم 2584، وذكر أستاذنا عبد العزيز بنعبد الله أنه طبع في الحجاز في مجلدين[21].

20) الجامع الصحيح الأسانيد المستخرج من ستة مسانيد لمحمد بن عبد الله العلوي سلطان المغرب المتوفى عام 1204 هـ يوجد مخطوطا في مكتبة القرويين تحت رقم ل 747/40 والمكتبة الملكية ثلاث نسخ أرقامها : 1708 ـ 5865 ـ 8609.

21) حاشية على صحيح مسلم لأبي العباس بن أبي المحاسن الفاسي المتوفى عام 1021 هـ[22].

22) ختمة لصحيح مسلم لمحمد بن جعفر الكتاني المتوفى سنة 1345 هـ[23].

23) رجال مسلم لأبي العباس أحمد بن طاهر بن شبرين الأنصاري المتوفى عام 532 هـ[24].

24) زاد المسلم فيا اتفق عليه البخاري ومسلم لمحمد بن حبيب الله ين يابي الشنقيطي المتوفى عام 1363 هـ بالقاهرة، والكتاب مطبوع في خمسة مجلدات، والمؤلف لم يكتف بالجمع فقط بل شرح كثيرا من الأحاديث شرحا ضافيا، سمي الشرح بالمنعم ببيان ما احتيج لبيانه من زاد المسلم ملتزما في ذلك بالمذهب المالكي.

25) كتاب في تسمية شيوخ البخاري ومسلم وأبي داود والنسائي والترمذي لعبد الله بن سليمان بن داود بن حوط الله الأنصاري المحدث الحافظ قاضي قرطبة وإشبيلية ومرسية وسبتة وسلا، ومؤدب أبناء المنصور

---

13) أنظر تاريخ التراث العربي 217/1.
14) أنظر المنتقى المقصور لابن القاضي 724/2 ونيل الابتهاج ص 194 ومجلة دار الحديث عدد: 3 ص 100 ومعجم القراء والمحدثين ص 28.
15) أنظر تاريخ التراث 219/1.
16) أنظر الأعلام للمراكشي 95/3 والمعجم ص 18.
17) أنظر ترجمة النفح 381/1 والصلة 502 بغية الملتمس 113 وابن خلكان 485/1.
18) أنظر فهرس ابن خير ص 122 والصلة 581.
19) أنظر التكملة ص 647 ومعجم القراء والمحدثين ص 44.
20) أنظر الصلة 269/1 والمعجم 44.
21) أنظر المعجم ص 36 وكشف الظنون 367/1.
22) أنظر مرآة المحاسن ص 151 والصفوة 45 ونشر المثاني 111/1 والسلوة 321/2 والدرر البهية 276/2.
23) أنظر مدرسة البخاري بالمغرب 464/2.
24) أنظر الغنية 185.

الموحدي توفي بغرناطة سنة 612 هـ ودفن بمالقة، وقد نزع في كتابه هذا منزع الكلاباذي ولم يكمله[25].

26) كتـــاب النيرين على الصحيحين لأبي بكر ابن العربي المعافري[26].

27) المعلم بفوائد مسلم للإمام محمد بن عمر التيمي الصقلي المهدوي المازري رأس المالكية في عصره، وصاحب التآليف الجيدة، قال فيه ابن دقيق العيد : «عجبا لهذا الرجل كيف لم يدع الاجتهاد المطلق وهو أهل له، توفي سنة 536 هـ.

وفي شأن كتاب المعلم هذا يقول الأستاذ محمد المنوني حفظه الله هو من تعليق بعض الآخذين عنه من إملائه منقولا، بعض ذلك بلفظ المازري وأكثره بمعناه[27].

يوجد الكتاب مخطوطا كاملا في الخزانة الحسنية تحت رقم 4348 ونسخـة اس عـام 543 هـ، يـــذكر ابن خير في الفهرس ص 166 أنه كتاب احتوى على جملة من شيوخه، خرج عن كل واحد منهم حديثا وهو من مقروءات ابن خير عن مؤلفه[29].

29) مشـارق الأنوار على صحـاح الآثـار : وهو في تفسير غريب الحديث الموجود في الصحيحين والموطأ للقاضي عياض اليحصبي السبتي رأس محدثي المغرب المتوفى عام 544 هـ بمراكش وقد طبع الكتاب بفاس عام 1328 هـ في مجلدين ويعاد الآن طبعه بوزارة أوقاف المغرب ظهر منه جزآن، وتوجد منه نسخ خطية، نسختان بالمكتبة العامة بالرباط تحت الرقمين 181 ـ 1972 وأربع نسخ بالخزانة الحسنية إحداها تحت رقم 4037 وثنتاها تحت رقم 8198.

30) مختصر صحيح مسلم لأبي عبد الله محمد بن عبد الله ابن تومرت مؤسس الدولة الموحدية المتوفى سنة 524 هـ منه نسخة بخزانة ابن يوسف بمراكش تحت رقم 403 ونسخة في إيرلاندة رقم [30].

31) مطالع الأنوار على صحاح الآثار، أو فتح ما استغلق من كتاب الموطأ وكتاب مسلم وكتاب البخاري رحمهم الله تعالى، لإبراهيم بن يوسف بن إبراهيم القائدي الحمزي الوهراني عرف بابن قرقول نزيل فاس المتوفى عام 569 هـ، يذكر الباحثون أن عمل ابن قرقول في هذا الكتاب يتمثل في تخريج مشارق الأنوار للقاضي عياض ولــذلـــك سماه سيزكين بشرح مشكلات الصحيحين المستخرج من مشارق الأنوار للقاضي عياض[31]، غير أنه تصرف فيه بالحذف والإضافة وإن لم يكن ينسبه لنفسه توجد منه نسخة في كوبريلي رقم 334 وفي خزانة القرويين رقم 220 سفر أول مبتور من أوله والخزانة العامة بالرباط رقم 369 ك النصف الثاني وخزانة مكناسة رقم 165 النصف الأول[32].

32) مطلع الأنوار لصحيح الآثار لأحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضبي المتوفى عام 599 هـ وهو كتاب يجمع بين صحيحي البخاري ومسلم وهو غير مطالع الأنوار لأبي قرقول السابق الذكر[33].

33) مختصر صحيح مسلم لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن أبي الفضل المرسي المتوفى عام 655 هـ[34].

34) المعلم بأسامي شيوخ البخاري ومسلم لأبي بكر محمد بن إسماعيل بن محمد بن عبـد الرحمن بن مروان الأونبي المعروف بابن خلفون المتوفى عام 636 هـ في مجلدين يوجد الجزء الأول في مكتبة الأزهر[35] ولعل هذا الكتاب هو الذي يقصده الشيخ مخلوف والذي سماه المفهم في شرح البخاري ومسلم إذا لم يكن له كتابان[36].

---

25) أنظر الأعلام للمراكشي 207/8 والتكلة 549 والذهبي 183/4 والمعجم 24.
26) أنظر النفح 25/2.
27) أنظر مجلة دار الحديث الحسنية عدد : 3 ص 98.
28) أنظر تاريخ التراث العربي 210/1 ومجلة دار الحديث الحسنية عدد : 3 ص 98 والغنية ص 186 والمعجم ص 28.
29) أنظر فهرس ابن خير ص 166.
30) أنظر التكلة 247 وتاريخ التراث 220/1 ومجلة دار الحديث عدد : 3 ص 98.
31) تاريخ التراث 220/1.
32) أنظر مقال الأستاذ المنوني في مجلة دار الحديث الحسنية عدد 3 ص 101 وتاريخ التراث 220/1.
33) أنظر بغية الملتمس للضبي ص : ز.
34) طبقات المفسرين 168/2.
35) أنظر المعجم للأستاذ عبد العزيز بنعبد الله ص 45.
36) أنظر شجرة النور الزكية ص : 181.

35) المفصح المفهم والموضح الملهم لمعاني صحيح مسلم لأبي عبد الله يحي بن هشام الأنصاري المتوفي عام 646 هـ[37].

36) المفهم لما أشكل من كتاب مسلم لأبي العباس أحمد بن عمر إبراهيم القرطبي المتوفى بالأسكندرية سنة 656 هـ وهو شرح لما اختصره من صحيح مسلم، إذ لما لخصه ورتبه وبوبه أخذ في شرح غريبه والتنبيه على نكت من أعرابه وعلى وجوه الاستدلال بأحاديثه. يوجد منه بخزانة القرويين الجزآن 2 ـ 4 والمكتبة الظاهرية[38].

37) المنهاج في رجال مسلم بن الحجاج لعبد الله بن أحمد بن سعيد بن يربوع بن سليمان الإشبيلي المتوفى عام 522 هـ[39].

38) مكمل إكمال الإكمال لأبي عبد الله محمد بن يوسف السنوسي الحسني المتوفى عام 895 هـ يوجد مخطوطا بالخزانة العامة رقم 2073 د، وطبع على هامش إكمال الإكمال للأبي.

39) المعرب المفهم في شرح مسلم لابن أبي الأحوص[40].

40) مجموع في رجال مسلم بن الحجاج لأبي العباس بن اشترمي[41].

41) مختصر صحيح مسلم لأبي علي الزبار[42].

42) نظم الدراري فيما تفرد بـه مسلم على البخاري لابن الرومية[43].

43) الصحيح على هيأة صحيح مسلم لقاسم بن أصبغ البياني القرطبي محدث الأندلس ومسندها المتوفى سنة 340 هـ[44].

44) اقتباس السراج في شرح مسلم بن الحجاج لأبي الحسن علي بن أحمد الغساني[45].

45) السنن الأبين والمورد الأمعى في المحاكمة بين الإمامين في السند المعنعن لمحمد بن عمر بن محمد السبتي محب الدين المتوفى بفاس سنة 721 هـ، يوجد مخطوطا بالإسكوريال رقم 1806[46].

46) شرح صحيح مسلم لأحمد بن محمد بن الحسن بن عتيق بن فرج أبي جعفر الذهبي البلنسي المتوفى بتلمسان سنة 601 هـ.

47) شرح مقدمة صحيح مسلم لمحمد بن يحي بن أبي بكر بن خلف بن صاف المراكشي المعروف بابن المواق قاض فاس والمتوفى بها عام 642 هـ[47].

48) شرح مسلم لأبي الفرج عيسى بن مسعود الزواوي المتوفى عام 744 هـ.

49) شرح على الصحيحين والشمائل لعبد الرحمن التفرغرتي[48].

50) شرح صحيح مسلم لابن أبي جمرة[49].

51) وسيلة المسلم في تهذيب صحيح مسلم لمحمد بن محمد بن جزي الكلبي الغرناطي المتوفى شهيدا عام 741 هـ[50].

52) وشي الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج لمحمد بن علي البجمعاوي الدمناتي والكتاب حاشية على شرح السيوطي لصحيح مسلم المسمى بالديباج على صحيح مسلم بن الحجاج، وقد طبع شرح السيوطي مع حاشية الدمناتي في القاهرة عام 1298 هـ ط دار الكتب.

الرباط : عمر الجيدي

---

37) أنظر تكملة الصلة ص 361 وبغية الوعاة 115 ومجلة معهد المخطوطات العربية 1957/3 وتاريخ التراث لسزكين 215/1.

38) أنظر الذيل والتكملة السفر الأول 348/1 وكشف الظنون 558/1 وسزكين 212/1.

39) أنظر الصلة ص 293 وهو فيها ابن يربوع بالموحدة.

40) النفح 536/2.

41) الذيل والتكملة السفر الأول 131/1.

42) الذيل والتكملة السفر 5 ـ 440/2.

43) الذيل والتكملة السفر الأول 513/2.

44) تذكرة الحفاظ 67/3 والمعجم 41.

45) الذيل والتكملة السفر الخامس 177/1.

46) أنظر شجرة النور ص 216 والسلوة 191/2 والمعجم ص 11.

47) التكملة ص 254 والأعلام للمراكشي 141/1 والذيل والتكملة السفر 8، ص 273.

48) سوس العالمة بواسطة مدرسة البخاري 46/4/2.

49) الذيل والتكملة السفر السادس ص 8.

50) نفح الطيب 515/1 وطبقات المفسرين 81/2.

من أعلام التصوف المغربي :

محمد بن سليمان الجزولي

للدكتور حسن جلاب

تقديم :

هناك شخصيات عليمة مغربية بارزة، طبقت شهرتها الآفاق، وذاع صيتها في المغرب والمشرق كالقاضي عياض، والشاذلي، والجزولي... وغيرهم. ومن المقرر المعروف أن كتبا مغربية قد أدركت من الشهرة والذيوع في أرجاء العالم الإسلامي ما لم يدركه غيرها : مثل الشفا، وترتيب المدارك، ودلائل الخيرات...

واعتبارا لمكانة الجزولي في التصوف المغربي والإسلامي، ولأهمية كتابه «الدلائل»، وآرائه ورسائله في التصوف، فإنني آمل تخصيص بعض المقالات لهذه الشخصية العلمية الفذة، للكشف عن هذا المكانة والتعريف به وبخصوصيات طريقته، وكتابته الصوفية، وتحليل بعض أذكاره وتصلياته، وعلى رأسها «دلائل الخيرات».

وسأفتتح هذه المقالات بربط الجزولي وطريقته بشبكات الطرق والطوائف المعروفة قبله، والتي سيتخذها أرضية لتأسيس طريقته الخاصة : أي الطريقة الجزولية.

الطوائف الصوفية وأسانيدها :

حدد ميشوبيلير (Michaux Bellaires) المراحل التي مرت بها الطوائف الصوفية بالمغرب في ثلاث :

1) من الجنيد إلى الشاذلي.

2) ومن الشاذلي إلى الجزولي.

3) وما بعد الجزولي.

وكان أكثر دقة عندما جعل هذا التصوف ممثلا في ثلاث مدارس :

1) مدرسة الجنيد، يتبعها الشعيبيون والأمغاريون.

2) مدرسة الغزالي، يتبعها الماجريون والحاحيون والأغماتيون والحنصاليون.

3) مدرسة الشاذلي، وهي التي سيمثلها الجزولي وزروق واتباعهما[1].

وقد تبع الأستاذ علال الفاسي هذا التقسيم، مع تعديل بسيط عندما جعل المراحل أربعة[2].

1) من الجنيد والبسطامي إلى عهد أبي مدين والجيلاني.

---

1) الطوائف الدينية بالمغرب : Archives marocaines Vol. XXVII : 1927 . confêries religieuses au Maroc

2) التصوف الإسلامي في المغرب، علال الفاسي، المحاضرات الثقافية 1969/1 ص 44، وزارة الثقافة، الرباط.

3) من الشاذلي إلى الجزولي.

4) ما بعد الجزولي.

وتتفق هذه التقسيمات على وجود شخصيات مهمة وجهت التصوف وتركت آثارها عليه. وأهمها : الجنيد، الجيلاني، الغزالي، أبو مدين، ابن مشيش، والشاذلي.

ومع كثرة الطرق وتعددها - فكما قيل الطرق إلى الله عدد أنفاس الخلائق - فإنها متأثرة عموما بتصوف هؤلاء الأعلام. ومع صعوبة تحديد المراحل بدقة، والفصل بينها لما تتميز به مصادر التصوف المغربي من غنى وتداخل وتنوع، سنحاول التعريف بهذه الطرق وأسانيدها التي ستوصلنا إلى الطريقة الجزولية.

الجنيد ومدرسته :

بنيت طريقة أبي القاسم الجنيد بن محمد الزجاج (المتوفى سنة سبع وتسعين ومائتين للهجرة) على متابعة السنة، ومراقبة الباطن، واختيار الصحو دون السكر، ورياضة النفس بالخلوة. وشروطها كما وضعها الجنيد ثمانية : دوام الوضوء / الخلوة - نية الاختلاء - المداومة على الذكر - دوام الصوم - ترك الخاطر - دوام ربط القلب بالشيخ - دوام الرضى بقضاء الله وترك الاعتراض على الله وعلى الشيخ[3].

وهناك عدة أسانيد تربط الجنيد بالرسول ﷺ عن طريق كبار الصحابة : أبي بكر، وعمر، وعلي، وعبد الله بن مسعود... وقد أورد صاحب كتاب «المواهب القدسية» ستة أسانيد، نكتفي بذكر أشهرها وأكثرها تداولا :

- الجنيد.
- عن خاله السري السقطي.
- عن معروف الكرخي.
- عن داوود الطائي.
- عن الحسن البصري.
- عن علي بن أبي طالب.
- عن الرسول ﷺ[4].

وتتجمع أسانيد الطرق الصوفية المغربية عند الجنيد للتفرع بعد ذلك، إذ لا نكاد نجد طريقة لا تتصل بها إلا نادرا. وحتى في هذه الحالة غالبا ما تتوفر هذه الطريقة على سند ثان يوصلها إلى الجنيد[5].

وتفسر هذه الظاهرة بحرص الطرق على أن تكون سائرة على نهج السنة المحمدية لشهرة الجنيد بذلك.

من الجنيد إلى ابن مدين :

من الصعب الإحاطة بأسماء كل الذين أخذوا عن الجنيد وأسانيدهم لذلك نركز الحديث على ما يهمنا من هؤلاء. وهم الذين ترتفع أسانيدهم إلى أبي مدين عبر شخصيات كان لها أكبر الأثر في التصوف، وهي : ابن حرزهم والجيلاني، وأبو يعزى.

أما السند الأول، فقد أخذ علي بن إسماعيل بن حرزهم - رأس المدينة الغزالية بالمغرب :

- عن عمه صالح بن حرزهم (وأبي بكر بن العربي).
- عن الإمام الغزالي.
- عن أبي المعالي إمام الحرمين.
- عن أبي طاهر المكي.
- عن الجنيد[6].

أما السند الثاني، أخذ عبد القادر الجيلاني رائد الطريقة القادرية :

- عن أبي سعيد مبارك المخزومي.
- عن أبي القاسم القرشي.
- عن أبي الفرج محمد التميمي.
- عن أبي بكر الشبلي.

---

3) الطرق الصوفية، مخطوط الخزانة العامة ضمن مجموع رقم 637 ك من ص 90 إلى 135.

4) أنظر باقي الأسانيد في «المواهب القدسية»، لمحمد بن العباس الجزولي السوسي، مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم 97 ج، ص 399 - 400.

5) نموذج طريقة أبي عمرو القسطلي، أنظر السندين معا في «أنس المعرفة في سيرة غوث المتصوفة»، للحلفاوي، مخطوطة خزانة ابن يوسف بمراكش، رقم 171، ص 45 - 46.

6) أنس الفقير، تحقيق محمد الفاسي وأدولف فور، ط. الرباط 1965، ص 93.

ـ عن الجنيد[7].

ويصل صاحب «المواهب القدسية» الجيلاني بالجنيد بالسند التالي :

ـ عن أبي الحسن العكاري.

ـ عن أبي الفرج الطرطوشي.

ـ عن أبي الفضل الهندي.

ـ عن أبي بكر الشبلي.

ـ عن الجنيد[8].

أما السند الثالث، فقد أخذ أبو يعزى يلنور (المتوفى سنة إثنتين وسبعين وخمسمائة هجرية) :

ـ عن أبي شعيب أيوب بن سعيد الصنهاجي (مؤسس الطريقة الشعيبية).

ـ عن أبي ينور عبد الله الدكالي الأغماتي.

ـ عن أبي الفضل عبد الله الجوهري.

ـ عن أبي بكر الدينوري.

ـ عن أبي الحسين بن محمد النوري.

ـ عن الجنيد[9].

ويشبه أبو مدين الجنيد في انتهاء أسانيد عصره إليه لكثرة تنقله واتصاله بالشيوخ، ثم تفرعها عنه بعد ذلك عن طريقة تلامذته ومريديه وأبو مدين الغوث هو شعيب بن حسين الأنصاري التلمساني (المتوفى سنة أربع وتسعين وخمسمائة للهجرة)، تحدث عنه ابن قنفد طويلا، وذكر شيوخه وتلامذته وطريقته، ونسبه إلى إشبيلية[10]، في حين ينسبه آخرون إلى بجاية أو سبتة[11].

أخذ عن عبد القادر الجيلاني بمكة، ودخل المغرب فمر بطنجة وسبتة واستقر بفاس للدراسة. ودرس بها على أبي الحسن علي بن حرزهم «رعاية المحاسبي» وأخذ عنه طريقة الغزالي. وقد كان معجبا به وبمؤلفاته التي قال عنها : (طالعت كتب التذكير فما رأيت كالإحياء للغزالي)[12].

وأخذ بفاس كذلك على أبي عبد الله الدقاق[13]، وأبي الحسن علي بن غالب. وكان بعد انتهاء الدروس يلجأ إلى خلوة خارج المدينة[14]. كما كان كثير الاتصال بأبي يعزى، وأخذ عنه، وله معه أخبار ونوادر[15].

وفي التشوف أن أبا مدين كان معجبا به إلى أقصى الحدود[16]. قيل أنه لم يمت حتى أدرك القطبانية[17].

وقد انتهى به المطاف في بجاية، ومنها استدعاه المنصور الموحدي خلال الفترة التي اهتم فيها بالتصوف وتقريب الصوفية، وتوفي وهو في الطريق إليه، فدفن بالعباد (قرب تلمسان)[18].

وتتفرع الأسانيد عن أبي مدين نظرا لكثرة تلامذته، فقد جاء في التشوف عن محمد بن إبراهيم الأنصاري أن أبا مدين خرج **ألف تلميذ** ظهرت على يد كل واحد منهم كرامة[19]. لذلك يقال له شيخ مشايخ الإسلام، و«أمام العباد والزهاد»[20]. وقد ذكر ابن قنفد طائفة منهم[21]. أسس بعضهم طرقا في الأندلس والمغرب.

من أبي مدين إلى الشاذلي :

يصل أبو مدين طرق : الغزالي / الجيلاني / أبي يعزى / (الجنيدية) بالشاذلي، بواسطة سندين مشهورين :

السند الأول :

عن طريق تليمذه أبي أحمد بن سيد بونة.

ـ عن عبد الرحمان المدني الزيات.

ـ عن عبد السلام بن مشيش.

7) Esquisse d'histoire religieuse du Maroc : Annexe.

8) المواهب القدسية 399 ـ 400.

9) المواهب القدسية و Esquisse d'histoire religieuse : Annexe

10) خصص له ولأصحابه أنس الفقير، ص 11.

11) Les confèries religieuses au Maroc. p. 46.

12) التشوف إلى رجال التصوف لابن الزيات، الطبعة الأولى، 195.

13) أنس الفقير ص 27، ومقاله الفريد بيل (Algred Bel) :

Abou median et son maître Eddaqaq à Fès.

Melange. R. Basset. T.I. Paris 1923 p. 31 - 68.

14) أنس الفقير 16 ـ 26.

15) أنس الفقير 15 ـ 21 ـ 36.

16) التشوف 195.

17) أنس الفقير 16.

18) حكى ابن قنفد تفاصيل رحلته من بجاية إلى العباد حيث دفن. أنظر أنس الفقير 102 ـ 103.

19) التشوف 322، وأنس الفقير 16.

20) أنس الفقير 16.

21) أنس الفقير، 36 وما بعدها.

ـ عن أبي الحسن الشاذلي. (تسمى عند الناصريين بسلسلة العلماء)[22].

السند الثاني :

ـ عن تقي الدين الفقير.
ـ عن عبد الرحمن المدني الزيات.
ـ عن عبد السلام بن مشيش.
ـ عن أبي الحسن الشاذلي[23].

وأهمية هذا السند تأتي من كونه منطلق سند مهم ومشهور بالشرق يصل الشاذلية بالرسول ﷺ، دون الاتصال بالجنيد، ويسمى «بسلسلة الأنوار، وسلسلة الذهب، وسلسلة العارفين، وطريقة الاقطاب». وأخذ به بعض المغاربة كذلك، يبدأ من :

ـ عبد الرحمن المدني الزيات.
ـ عن فخر الدين.
ـ عن تاج الدين.
ـ عن أبي محمد شمس الدين التركي (أو التركماني).
ـ عن زين الدين محمود القزويني.
ـ عن إبراهيم البحري.
ـ عن أحمد المرواني.
ـ عن سعيد بن سعد.
ـ عن فتح السعود.
ـ عن جابر بن عبد الله.
ـ عن الحسن.
ـ عن الرسول ﷺ[24].

كما أنه لا يجب إغفال دور عبد السلام بن مشيش في تطعيم طرق صوفية مغربية. فبعد نشأته في قبائل بن عروس شمال المغرب في أحضان أسرة إدريسية، رحل إلى المشرق حيث قضى زهاء عشرين سنة، وهناك لقي عددا من الشيوخ وعلى رأسهم شيخه عبد الرحمن المدني الزيات، رأس «سلسلة الأنوار» السابقة الذكر. وبعدها عاد إلى موطنه للتدريس والعبادة. وكان مقتله بين سنتي إثنتين وعشرين وستمائة وخمس وعشرين وستمائة للهجرية[25].

وبالإضافة إلى أبي الحسن الشاذلي يعتبر أبو محمد صالح بن سعيد ابن ينصارن الماجري من أخص تلامذة ابن مشيش. وهناك من جعله يأخذ مباشرة عن أبي مدين.

ـ عن علي بن حرزهم.
ـ عن أبي بكر بن العربي.
ـ عن الغزالي...

يرجع نسبه إلى بني ماجر من بني أمية خاصة، وعاش بين خمسين وخمسمائة وواحد وثلاثين وستمائة للهجرة[26].

رحل إلى المشرق وقضى به عشرين سنة، وهناك درس على بعض تلامذة أبي مدين، وهو مؤسس الطائفة الماجرية بآسفي. وتسمى كذلك الطائفة الدكالية، وطائفة الحجاج[27]. وكان لهم اتباع في المشرق والأندلس والمغرب. وطريقته سنية تقوم على محاربة البدع، لها شارات.

دافع عنها حفيده أحمد بن إبراهيم، ردا على منتقديها[28].

وتتخلص هذه الشارات فيما يلي :

ـ الحج ووجوبه للتوبة.
ـ حلق الرأس واللحية رجاء التوبة.
ـ لبس الشاشية.
ـ لزوم العصا.
ـ الركوة.
تلاوة الأذكار[29].

---

22) فهرست ابن ناصر ص 162، والمواهب القدسية 410 ـ 411.

23) الروض الزاهر في التعريف بالشيخ ابن حسين واتباع السادات الأكابر، لمحمد الدرعي ص 231 ـ 232، مخطوط الخزانة الحسنية رقم 3443 ز.

24) المواهب القدسية 408 ـ 409. وسلسلة الأنوار في طريقة السادات الصوفية الأخيار لأحمد بن محمد بن عطية السلاوي، مخطوط الخزانة العامة بالرباط، رقم 2458، ص 31 ـ 32.

25) Les confréries religieuses 52 - 54.

26) المنهاج الواضح، لأحمد بن إبراهيم بن أحمد بن أبي محمد صالح، ط. مصر 1933، ص 123.

27) أنس الفقير 63 ـ 64.

28) أنظر التفاصيل في المنهاج الواضح.

29) المنهاج الواضح ص 158 ـ 188.

وتصدت هذه الطائفة لمواجهة الأجنبي الدخيل، وهي المهمة التي ستتميز بها فيما بعد الطائفة الجزولية[30].

وهنالك طرق تابعة لطائفة أبي محمد صالح آخذة بشاراتها وتعاليمها وهي :

1) الطريقة الحاحية :

أسسها أبو زكريا يحيي بن أبي عمر عبد العزيز ابن عبد الله بن يحيى الحاحي دفين تيغزا (المتوفى في آخر القرن السابع الهجري) تعدى صيته المغرب إلى تونس[31]، وكان له أتباع بسلا[32]، وبتشنباشت حوز مراكش[33]، وبجبل درن.

وأغلب مريديه من أهل البوادي، فبالغوا في تعظيمه وتقليده إلى حد جعل الفقهاء يحملون عليهم وعلى الطريقة، ويعتبرونهم من الفرق الضالة[34].

2) الطريقة الأغماتية الهزميرية :

قال ابن قنفد عن الهزميريين (وهم طائفة الشيخ الولي الشهير أبي زيد عبد الرحمن الهزميري، ولهم أخوة محدثة بطائفة أبي زكرياء وسائر الطوائف لهم أخوة بطائفة أبي محمد صالح[35].

مؤسس الطريقة هو محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الهزميري، نشأ في بيئة أغمات المتدينة، ودرس على علمائها. وكان لها ككل أتباع أبي مدين صالح ولع خاص بكتب الغزالي التي انكب بنفسه على دراستها فشارك والده في تربية النشء وتعليمه، وانتهت إليه بعده الرياسة في علوم الطريق.

بعد وفاته سنة ثمان وسبعين وستمائة للهجرة، حل محله أخوه أبو زيد عبد الرحمان الهزميري، وممن صحبه وتتلمذ عليه :

- أبو عبد الله محمد بن تيجلات المراكشي مؤلف كتاب «إثمد العينين» الذي تحدث فيه عن الهزميريين وطائفتهما واتباعهما،
- أبو العباس أحمد بن البناء المراكشي العددي،
- محمد بن أحمد بن شاطر الجمحي المراكشي.[36]

وتعاليم الهزميري هي مزيج مما في كتب الغزالي، ورائية الشريشي ومذهب الملامتية. ويشترطون الشيخ في طريق التصوف، ولا بد أن يتصف بالعلم والعمل والورع والزهد والتواضع والمعرفة بالله ودوام الذكر.

وعلاماته الورع والإنصاف والتواضع ومداواة نفسه قبل غيره.

أما المريد فيشترط فيه التلطف والتأدب مع شيخه، وعدم إنكاره أحواله والاعتراض عليه، مع دوام الانتباه من الغفلة، والتبري من الخطرات المذمومة والتدرج في أحوال محددة، إلى أن يؤذن بتلاوة الأذكار.

ومن شروطها كذلك الخلوة لمدة معينة، وجواز السماع، وملخص أصول الطريقة :

- اجتناب المحارم.
- أداء الفرائض.
- ترك الدنيا لأهلها مالا وجاها.
- الصدق.
- الإخلاص.[37]

انتشرت هذه الطريقة خارج أغمات فبلغت قبائل هزرجة وهيلانة ودرعة وانتقلت إلى مراكش على يد أحمد بن محمد بن عثمان الأزدي المراكشي المعروف بابن البناء العددي (654 ـ 721 هـ).

---

30) Les confréries religieuses 50 - 51.
كانت هناك فرقة من أصحابه في الأندلس للدفاع عنها ضد المسيحيين أنظر ورقات عن الحضارة المغربية على عهد بني مرين، لمحمد المنوني ص 244.

31) من أتباعه التونسيين : أبو الربيع سليمان بن سالم النفوسي البربري، وصاحبه أبو حفص عمر بن بركات الكتاني. أنظر معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، للدباغ، ط. 1320 هـ ج 4/ 157.

32) من أتباعه السلاويين : أبو العباس أحمد بن عاشر، وأبو البقاء يعيش المصمودي، وأبو الحسن المغيلي. أنظر السلسل العذب للحضرمي ص 158.

33) من أحواز مراكش، أصبح الآن من أملاك الزاوية المصلوحية.
Le Haouz de Marrakech. P. Pascon. T 2 : Annexe.

34) أنس الفقير 64 ـ 65.

35) أنس الفقير 66.

36) ورقات عن الحضارة المغربية، لمحمد المنوني 239.

37) أنظر تفاصيل الطريقة في إثمد العينين، لابن تيجلات المراكشي مخطوطة لخزانة العامة بالرباط رقم 935 د، والحسنية 380.

3) الطريقة الحنصالية :

أسسها سعيد أحنصال تلميذ أبي محمد صالح ودفين دادس، ورغم دورها في نشر العلم واللغة العربية بمناطق القبلة، لم تعطنا المصادر القديمة تفاصيل عنها وعن شاراتها وأتباعها وبعد قرون من الخمول ستعود إلى الظهور في آخر القرن الحادي عشر الهجري على يد أبي عثمان سعيد بن يوسف الحنصالي[39].

من الشاذلي إلى الجزولي :

ليس في نيتنا التعرض إلى الطريقة الشاذلية بتفصيل، فهذا لا يسمح به المجال. ولكن هدفنا تقديم الخطوط الرئيسية لها مع التركيز على الأسانيد الرابطة بين الشاذلي والجزولي.

والشاذلي هو أبو الحسن علي بن جبار المغربي دفين صعيد مصر (المتوفى سنة ست وخمسين وستمائة)، فقد قضى أغلب مراحل حياته في الرحلة بين مصر والحجاز وبلدان المشرق آخذا عن العلماء والصوفية بها إلا أن أشهر شيوخه هما عبد السلام بن مشيش، ومحمد بن علي بن حرزهم. لهذا اشتهرت طريقته أول الأمر بالمشرق والأندلس قبل أن ينقلها تلامذته المغاربة إلى المغرب[40].

واعتنى بها الناس في مختلف العصور، وبالغوا في تقديرها وتعظيمها حتى أننا كثيرا ما نسمع عند المصنفين أمثال محمد المهدي الفاسي مثل هذه الأقوال : (لو حلف حالف أن ما عليه أهل الطريقة الشاذلية هو الذي كانت منطوية عليه صدور الصحابة رضي الله عن جميعهم، لبر في يمينه). وقيل أن الطريقة الشاذلية نسخت سائر الطرق، كما نسخت الملة المحمدية سائر الملل[41].

وبنى الشاذلي طريقته على المواظبة على الذكر والصلاة على النبي، ولم يشترط الشيخ إذ بوسع السالك أن يصل إلى القطبانية بلا وساطة كما أنه لم يشترط اتخاذ رباط أو زاوية.

وعرفت تغييرا على يد تلامذته. ولخص ابن الخطيب مبادئ الشاذلية في عبارة (لا إله إلا الله). وجعل السالكين تسعة أصناف تبدأ من أفراد الكلمة باللسان وتنتهي بمرتبة الفناء أي التوحيد وإسقاط التدبير مع الحق[42].

وقد أحصى جورج دراك (G. DRAGUE) تسع عشرة طريقة متفرعة عن الشاذلية في المغرب العربي[43]. وأشهرها الطريقة الجزولية والطريقة الزروقية. خصص لهما محمد المهدي الفاسي مؤلفه «تحفة أهل الصديقية بأسانيد الطائفة الجزولية الزروقية) تحدث فيه عن مبادئهما وطبقاتهما، واتباع كل طبقة[44].

وتكاد كل كتب الطبقات والسلسلات تتفق على اتصال الطريقة الجزولية بالشاذلي حسب السند التالي :

- فقد أخذ محمد بن سليمان الجزولي.
- عن أبي عبد الله محمد أمغار (من رباط تيط).
- عن سعيد الهرتناني (من رباط هرتنانة)[45].
- عن أبي زيد عبد الرحمن الرجراجي.
- عن أبي الفضل الهندي.
- عن أحمد عنوس البدوي.

38) السعادة الأبدية لابن المؤقت، 71/1.

39) أنظر الدراسة المفصلة لجورج دراك، 182 ـ 163.......Esquisse.

40) التيار الصوفي والمجتمع، د. محمد مفتاح ص 162، مرقونة بخزانة كلية الآداب بالرباط.

41) ممتع الأسماع، ط. حجرية فاسية، ص 4.

42) روضة التعريف 629/2. أنظر بها الإصناف التسعة بتفصيل.

43) Esquisse d'histoire religieuse... 277.

44) مخطوطة الخزانة العامة بالرباط رقم 76 ج.

45) المسالك والممالك للبكري 86 و 153. وانظر كذلك :
Note sur les ribats : G. Marcoirs. Mélanges R. Basset T 2. 1925 p. 410.

- عن أحمد القرافي،
- عن أبي عبد الله محمد المغربي،
- عن أبي الحسن الشاذلي[46].

وقد نظم بعض العلماء هذا السند تسهيلا لحفظه[47].

الجزولي وما بعده :

يعد الجزولي معلمة من معالم التصوف المغربي الإسلامي. فإليه انتهت الطريقة الشاذلية، وعنه تتفرع جملة من الطرق التي يكثر اتباعها في كافة أنحاء العالم الإسلامي : كالطريقة التباعية، والغزوانية، والفلاحية، والبكرية، والعيساوية، والشرقاوية والبوعمرية...

واشتهر الجزولي كذلك بأحزابه وأوراده وأذكاره، وعلى رأسها «دلائل الخيرات» والتي ظلت محل رعاية وعناية في مختلف العصور. هذا بالإضافة إلى إسهامه في المجالات التربوية والاجتماعية والسياسية، وسعيه نحو إصلاح مجتمعه وتوجيهه. هذا ما جعلنا نخصص له هذه المقالات. وسنتناول كل هذه الجوانب إن شاء الله.

مراكش : حسن جلاب

محنة العَبْد...

لقد كنت قبل اليوم بازاً محرراً	أرُوحُ وأغْدُو، حيثما ظهرَ الصيدُ
ولما أراد الله محنة عَبْدِهِ	أتاح له التزويج، فامتحن العبد

46) دوحة الناشر لابن عسكر 3 ـ 4 وسلسلة الأنوار لابن عطية 31 ـ 32، والمواهب القدسية 408 ـ 409، مع خطأ في اسم البدوي.

47) الشرف الصغير للصومعي، مخطوط الخزانة العامة بالرباط 1103 د ص 75 ب.

موقعة وادي المخازن

تحوّل جذري في حياة البرتغاليين

للأستاذ محمد قشتيليو

إن الجميع يعلم ما كان لهذه الموقعة من أثر بالغ في حياة الشعبين المغربي والبرتغالي وكل منها كانت له ظاهرة خاصة وأثر خاص في حياته، فبطبيعة الحال تأثير المعركة في حياة المغاربة كان تأثير الانتصار الذي أدى الحال بتقدم الجيش المغربي نحو الأمام في فتوحاته وتوغله داخل القارة الإفريقية أما تأثيرها على الخصم فكان عكس ذلك، فبحكم المعاشرة والمساكنة مع البرتغاليين أثناء أداء واجبي الدبلوماسي في سفارة بلدي بأشبونة عرفت الكثير عن ذلك البلد. إن معركة وادي المخازن تركت في نفسه بصمات بالغة الأثر يتوارثها جيلا عن جيل، ففي يوم من أيام الله كنت مع صديق محامي من أبناء العاصمة فتطرق بنا الحديث إلى المغرب فسألني عن مسقط رأسي فقلت له إنني من القصر الكبير فرأيت الرجل فجأة فتح فاه وبقي مشدوها أمامي، فقلت له مادهاك ؟ فقال لي : إن لنا أسوأ ذكرى في تاريخنا في تلك المدينة، وقد سجل كتابهم وشعراؤهم الكثير في هذا الباب نظرا للتحول الجذري الذي طرأ على حياة البرتغال بسبب هذه الموقعة في جميع نواحي حياتها ومنها على الخصوص الحياة السياسية التي بدلت البرتغال رأسا على عقب بانصهارها واندماجها في إسبانيا وفقدها لشخصيتها كدولة ذات سيادة، وأتذكر ما قرأته في صحيفة «الجيش» التي تصدر بأشبونة في عدد نوفمبر 1975 عن حياة سيبسطيان من جملة ما قالته عنه : «إن هذا الملك المغرور بشبابه أراد أن يكون إمبراطورية للبرتغال ولكنه عرضها للضياع بفقدها لاستقلالها... هكذا.

أما من الناحية الاجتماعية فقد طرأ تغير عميق في العقلية البرتغالية في عدة مجالات ومنها مجال الأدب والفكر، فقد تكونت وظهرت إيديولوجيات ونظريات وبرزت إلى الوجود مدرسة خاصة في الأدب دعيت بالمدرسة السيبسطيانية التي سيطرت على العقول حقبة من الزمن فتكونت بهذا نهضة ثقافية واسعة النطاق، فبرزت إلى الوجود كتبا ومؤلفات ونبغ كتاب وشعراء وفنانون في هذه المدرسة إذ وجدت العقول خصبة لتقبل ما يمر عليها بسبب النكبة التي أصابتها إذ أصبح الشعب يركن إلى الخرافات والخزعبلات ويمني نفسه بالآمال الفارغة والوعود الكاذبة التي تعطي له من طرف المشعوذين ومستغلي عقول البسطاء ونلمس هذا من خلال ما كتب في تلك الحقبة حول هذا الموضوع، وقد كتب الكثير ومما عثرت عليه في هذا الباب ما كتب من تنبآت وأقوال هي إلى الخيال أقرب منها إلى الحقيقة حول شخصية ضون سيبسطيان بعد المعركة والتي جعلته بمثابة المهدي المنتظر وأنه مختفي وسيظهر فيما بعد، فقد ورد في كتاب

ينقض هذا الإدعاء ويؤكد موته ما كتبه أماضور ريبيلو في كتابه : «لالاثيون ذا بيدا ذي رّبي ضون سيبسطيان» علاقة حياة الملك ضون سيبسطيان ص 81 «أن شخصا يدعى بالشايور ذو أمارال من حاشية الملك الهالك والذي رافقه في حملته على القصر الكبير تعرف على جثة سيبسطيان وقد دفن بحجرة عند قائد القصر الكبير يدعى إبراهيم السفياني، وقام هذا بتسليمه للشخص المذكور»، إذا هذا يؤكد لنفس البرتغاليين أن ملكهم لقي حتفه بوادي المخازن ولكن بعض العناصر من الشعب وخاصة طبقة السياسيين استغلوها فرصة ولم تكن لهم غيرها سانحة حيث رأوا ضياع البرتغال واندماجها في إسبانيا وأن بلادهم قد ضيعت شخصيتها الوطنية ومجدها وكل ما تملك من مستعمرات خارج بلادها فراحوا يصلون ويجولون بين عامة الناس فهم يرون أنهم بالنسبة لإسبانيا ضعفا، أوقد أصبح كل شيء بيد الإسبان وهم المسيطرون وسادات البلاد وحكام شبه الجزيرة الإيبيرية بأكلها ومن ضمنها ممتلكات البرتغال خارجها ومنها مدينة سبتة أعادها الله إلينا.

إن أغلب التنبآت مبتكر ومخترع من رجال الدين الذين دفعهم رجال السياسة للقيام بذلك حتى يكون لعملهم هذا تأثير قوي في النفوس وعملهم فعال لذا الجمهور، إذ أصبح رجال الدين ينسبون أقوالهم وتنبآتهم إلى قديسهم يروون عنهم ما قالوه بشأن ما وقع لملكهم وأن ذلك أشير إليه في أقوالهم قبل مولده أو يوم ميلاده، وقد ألفت كتب ودواوين شعر ونبوغ في هذا الباب كتاب وشعراء في المدرسة السيبطيانية فأصبح عصرها يزخر بآداب له طابعه الخاص، ومن ألمع ما اطلعت عليه في هذا الباب كتاب «سوبري أوسيباسطيانسمو» حول السيباسطيانية لمؤلفه : مونطييرو ذا فونصيكا، دون فيه عشرين تنبأ هذا عدا قصصا وحكايات تعد بالمستقبل الزاهر الذي سيأتي بعد النكبة بامتلاك إفريقيا ونشر المسيحية بها بل وامتلاك القدس أيضا، وهذه التنبآت كلها منسوبة إلى رجال الدين من قديسين وقديسات، ويقول صاحب الكتاب الآنف الذكر أنه عثر على وثيقة نادرة يرجع عهدها إلى القرن الثامن عشر حول هذا الموضوع وقد اعتمد عليها في كتابه هذا، والحقيقة أن البرتغاليين قد ضيعوا ملكهم لمدة ستين سنة باندماجهم في إسبانيا أو أدمجوا مرغين لكنهم استفادوا ثقافيا بسبب موقعة وادي المخازن ذلك إذ أصبح للغتهم شخصية حيث ظهر فيها أدباء وشعراء وكتاب من أشهرهم كامولس صاحب ديوان «لوثيادا» والذي يعد بمثابة ثرفانطيس عند الإسبان المشهور بكتابه «ضون كيخوطي»، وقد قيلت كثير من الأشعار وقصائد معنونة باسم «القصر الكبير» يتحسرون فيها أصحابها مما أصابهم ويعدون أنفسهم بالدخول إلى هذه المدينة من جديد منتصرين ويندون بأعمال سيبسطيان ويصفونه بشتى الأوصاف الدنيئة، ومنهم من يجعله في عداد الأبطال والقديسين إلى غير ذلك حسب ذوق الشاعر أو الكاتب وميوله السياسية أو الدينية. ويقول بعضهم في أشعاره : البرتغال جد ألية ولكنها ستنتصر ـ ملك الرحالة سيلم من النزاع ولكن لا يريد الظهور في مظهر مؤسف. ومثل هذا كثير ومتعدد الأسلوب والروايات، غير أن هذا لا يعني أن جل الشعب كان يعتقد إذ ذاك في موت ملكه يدل على ذلك ما صدر من كتابات وأشعار في هلاكه بمعركة القصر الكبير، فإن التنبآت باختفائه وعودته لم يدم وقتها فاقتصرت على ما يبدو على طبقات معينة من الشعب لمدة محدودة وهي طبقة العوام وخاصة في السنوات الأولى التي أعقبت المعركة ثم أضمحلت وظهرت على أثرها ظاهرة الأدب الذي حمل إسم الأدب السيبسطياني الذي تبنته طبقة الأدباء والمثقفين والكتاب، ومن أهم الكتب في هذا المعنى كتاب بعنوان : « ضون سيبسطيان انكوبيرطو» أي سيبسطيان المقنع لمؤلفه انطونيو ماشا ضربريس الذي يقول إنه في عام 1598 ظهر شخص في مدينة فينيسيا بإيطاليا أي كان إذ ذاك كثير من المهاجرين البرتغاليين يدعى أنه سيبسطيان وارجت هذه الشائعة في أوربا وأحدثت حماسا في أوساط البرتغاليين المهاجرين ولكن سرعان ما انتهى أمره، كما يقول صاحب الكتاب المذكور أن بعض التنبآت غالبا ما كانت تصدر من أشخاص من الحاشية الملكية أو من خدام البلاط فيصدقونهم العوام لقربهم من الملك حيث يكونون مطلعين على دواخل القصر، وما يحكى في هذا المعنى أن شخصا كان مكلفا بخازن الملك سيبسطيان ومعروف في الأوساط بأنه يتنبأ وله قدرة روحية وغالبا ما تصدق تنبآته كانوا يدعونه

بني الأسوار (ولا أدري لماذا فصاحب الكتاب نفسه لم يبين ذلك) وكان هذا الرجل في الأيام المقدسة وخاصة المواسم الدينية يجمع الأطفال ويذهب بهم إلى مكان قديسة ويقص عليهم قصصا وخرافات، وتنبآته منها عودة الملك سيبسطيان، وكان من جملة ما يقول لهم، إن الملك سيختفي في بارْبريَا (أي المغرب) وسيتغيب عن مملكته وعن غيرها أيضا، وسيتسلم ملكه في المستقبل من ملك قشتالة ولكن هذا بعد أعوام كثيرة يعود ويملك ويحتل باربريا (المغرب) والقدس وممالك كثيرة، وأخذت عنه هذه التنبآت ودونت من طرف من يوقف بهم، كما يقول صاحب كتاب «علاقة الملك ضون سيبسطيان» عن هذا الرجل أيضا، كان يتردد إلى الديوان الملك ليؤكد بأن الملك مازال حيا، ومثل هذه الأخبار كانوا ينسبونها إلى رجال الدين وخاصة القابعين في الأديرة والمعابد والمنقطعين عن العالم الخارجي وإن كانت هذه التنبآت المكذوبة تختلف في روايتها ولكنها في الأول كلها كانت تحوم حول الاختفاء وعودته لطمأنة العوام، إن هذه التنبآت المكذوبة لم تصدق بعدما سلمت جثة المالك من طرف مسؤول رسمي بمدينة القصر الكبير يدعى إبراهيم السفياني ورجال من حاشية سيبسطيان المهزوم فقد كتب عن هذا القائد السفياني مؤلف إسباني يدعى امبرطو كورطاثيروهيناريس في كتابه «القصر الكبير» من مطبوعات معهد الجنرال فرانكو للدراسات والأبحاث الإسبانية العربية بتطوان في صفحة 182 أن إبراهيم السفياني كان من القواد المرموقين عند عبد المالك السعدي جند نحو ستة عشر ألفا من المتطوعين المجاهدين للدفاع عن مدينة القصر الكبير ولكن نهايته كانت على يد أعدائه الذين سمموه فقتل، ومن أهم الكتب التي صدرت عن سبسطيان والتي تعد من ألمع المراجع عن حياته ونواياه وما كان يضمره من عداء للإسلام كتاب لمؤلفه الأكادمي خوالين فريسمو سراو من الحجم الكبير يتكون من جزئين الجزء الأول يحتوي على 265 صفحة والثاني من 297 صفحة قامت بطبعه أكادميا البرتغالية للتاريخ، جمع مؤلف هذا الكتاب كل المذكرات التي كان يكتبها أحد حاشية الملك المرافقين له من سنة 1568 إلى 1578 فكان يدون حركات الملك باليوم والشهر والسنة إلى يوم وفاته بالمعركة.

وعلى أية حال فإن الوضع بعد ما تغير وانفصلت البرتغال عن إسبانيا من جديد وكونت لنفسها دولة خاصة بها مرة ثانية أصبحت لها لغة قائمة الذات كجارتها إسبانيا إذ لولا موقعة وادي المخازن لما حصلت على هذه الفائدة ولما أصبحت في العالم لغة تسمى اللغة البرتغالية حتى صارت بعض شعوب الأرض تتكلم بها فأصبحت في مصاف الدول التي لقنت لشعوب خارج قارتها لغتها كالعربية والفرنسية وغيرهما، فإذا نظرنا بعين الواقع نجد أن هذا التحول الجذري في البرتغال أعطاها شخصية في المستقبل والأمة تكون لها شخصيتها أيضا لغتها إذا انتشرت، أقول أن الفضل في هذه المعركة وادي المخازن وكم من نقمة في طيها نعمة، وهكذا نرى المغرب برجاله الأفذاذ يصنع التاريخ ويحول مجراه لنفسه ولغيره من الأمم، وهكذا نرى من حين للآخر يقيض الله للمغرب رجالا مخلصين مؤمنين لينقذوه من العثرات وليسيروا به إلى الأمام وقد شاهدنا هنا بالعين المجردة في وقت حسننا الثاني الهمام ينقذ أرضا للإسلام كانت بحق تعد قطعة مملوكة لغير المسلمين كانت تدعى بالصحراء الإسبانية وذلك بفضل الله قيض لها رجلا حكيما حباه الله الحكمة وفصل الخطاب، ذلك فضل الله يوتيه من يشاء.

الرباط : محمد قشتيليو

قصة العدد



للأستاذ أحمد عبد السلام البقالي

قالت لها أمها :

ـ خذي (مارك)، وفرجيه على (جامع حسان) ريثما يطيب العشاء.

وحاولت (آمنة) التملّص من المهمة الشاقة، فانجليزيتها الضعيفة لا تقوى على حديث طويل. ولكن والدتها لم تمهلها، توجهت إلى (مارك) قائلة :

كفى تلفزيونا ! (آمنة) ستفسحك في (جامع حسان) الأثري القريب من هنا.

(آمنة) في الثالثة عشرة، رشيقة، حَيِيَّة، مرهفة، قليلة الثقة بنفسها، رغم ذكائها، ولكنها متقدمة في دراستها الثانوية، وتتقن العربية والفرنسية، وتتعلم الإنجليزية.

ورافقت (مارك) إلى آثار المسجد القديم... كان مخها يدور بسرعة. لم تكن تفكر فيما ستقوله له عن الجامع، بقدر ما كانت تفكر في كيف ستقوله له بأنجليزيتها المحدودة.

كان (مارك) قد جاء إلى (المغرب)، لأول مرة، لزيارة أخته (أيلين) المتزوجة بخال (آمنة). وعرفت (آمنة) من حديثه مع والدها الدبلوماسي القديم، أن (مارك) مهتم بالإسلام، رغم أنه مسيحي، ولا يمانع في أن تعتنقه أخته، مادامت متزوجة بمسلم.

وكان هو الذي تطرق إلى الموضوع مع والدها أثناء شاي المساء، قال له :

«رأيت (إيلين) مهتمة بقراءة القرآن في ترجمته الإنجليزية، والتمعّن في آياته ومعانيه. وقد قالت لي أنها فوجئت بغنى هذا الكتاب السماوي الذي لم يسبق لها أن قرأته، وثرائه الروحي، والفكري، ودقته وشموليته في تنظيم المجتمع الإسلامي، واحترامه للأديان السماوية الأخرى...».

وعقّب والدها بما معناه أن الإسلام مجهول في الغرب، بل وأسيء فهمه بسبب التنافس بين الأديان، ولأسباب تاريخية يطول شرحها، وخصوصاً بعد قيام (إسرائيل).

وفهمت (آمنة)، وهي تنصت إلى (مارك)، أنه كان يحكي عن مواجهة بين أخته (أيلين) وأبيه حين رآها مستغرقة في قراءة القرآن، فأخذ يمازحها بقوله :

«هل تُعدِّين نفسك للبس الياشماك (الحجاب) ؟ وماذا سيكون موقفك حين تكتشفين أن (لعلي) زوجك ثلاثة زوجات أخريات ؟!».

وحكى (مارك) عن كيف أنها أجابته بلهجة جادة وحازمة : «أعتقد أنه ينبغي لك أن تقرأ هذا الكتاب أولا ! سيصحح كثيراً من مفاهيمك الخاطئة عن الإسلام !

فسأل الوالد مهتما : «مثل ماذا ؟».

فأجابت بثقة العالم : «مثل حكاية (الباشاك) السخيفة هذه، فغطاء الوجه ليس مفروضا على المرأة المسلمة، كما تصور ذلك الأفلام الغربية التافهة، وكذلك تعدد الزوجات، فقد حرمه القرآن بطريقة غير مباشرة واضحة.. إذ اشترط العدل بين الزوجات، وهو شرط تعجيز، فحتى لو عدل الرجل في تقسيم النفقة، فإنه لايستطيع العدل في تقسيم الحب. ولابد له من زوجة مفضلة !».

وقرأت له من المصحف : **﴿فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة﴾** ثم : **﴿ولن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم﴾**.

وكررت الآية الأخيرة مرتين، وأضافت :

«وهذا منع صريح للتعدد !».

ونظرت (إيلين) إلى والدها، وقالت : «هل بقيت لك أفكار مثل هذه تريد مناقشتها ؟»

قال (مارك) : «ومن ثم كف الوالد عن ممازحتها في هذا الباب. واحترمنا جميعاً شعورها. وفي نفس الوقت زاد فضولنا لمعرفة ما في الكتاب الإسلامي المقدس من أسرار».

فعقّب أبو (آمنة) : «أنا الآخر كنت أجد لذة خاصة في محو بعض هذه المفاهيم الخاطئة من أذهان الجمهور الذي كان يأتي للاستماع لمحاضراتي، عبر الولايات المتحدة أيام كنت دبلوماسياً هناك، كان يفاجئهم دائماً قولي أن من شروط اعتناق الإسلام، الإيمان بالأديان السماوية السابقة، كاليهودية والمسيحية، والتصديق بنبوة موسى وعيسى، عليهما السلام، وبالكتابين المقدسين : التوراة والإنجيل. وكانوا يفتحون أفواههم حين أقول : «ان المسيحي واليهودي، حين يدخلان الإسلام، فإنهما لايضحيان بروح عقيدتيهما، بل يضيفان إليها عقيدة أجدّ، وأسمى، وأكثر قرباً من الفطرة البشرية..».

ومن فحوى مافهمته (آمنة) وأخوها (محمد) من نقاش والدهما مع (مارك) أن هذا أصبح من المؤلفة قلوبهم، وأن عليهم جميعاً أن يسلكوا في البيت سلوكاً إسلامياً مثالياً، ما استطاعوا، مادام الشاب معهم، فبإذا هداه الله إلى الإسلام - كما قال أبوهم - فسيكون لهم في ذلك فضل كبير، وأجر من الله كثير.

☆ ☆ ☆

وهذا ما جعل مسؤولية الخروج مع (مارك) ثقيلة على كاهل (آمنة) الفتيّ، ولكنها قبلت التحدي، مدفوعة برغبتها في نيل الأجر والثواب.

وخرجت مع (مارك) إلى ساحة الجامع الفسيحة العارية، وقد اصطفت فيها السواري الأسطوانية العتيقة، وهيمنت عليها من الشمال الغربي (صومعة حسان) الشهيرة التي قوض زلزال (لشبونة) جزأها الأعلى منذ أربعمائة سنة، وانهار سقف المسجد الذي كان يتسع لعشرة آلاف مصل.

وبهرت (مارك) زخارف المسجد الحديث الذي أقيم على جزء من أرض الجامع القديم.

وكانت الشمس تميل إلى المغيب. ومع اقترابها من هوائيات التلفزيون على سطوح مدينة (الاوداية) المطلة من على نهر (أبي رقراق) والمحيط الأطلسي، بدأت (آمنة) تحس بمغص خفيف يزداد اقتراباً وحدّة مع دُنُوّ أذان المغرب.

وحالفها التوفيق في شرح ما كانت تريد شرحه (لمارك) من أن باني الجامع هو الملك (يعقوب المنصور الموحدي) الذي كانت (الأندلس) في عهده تابعة (للمغرب)، وأن (صومعة حسان) واحدة من ثلاث بناها (يعقوب)، إحداها في مدينة (اشبيلية) بالأندلس، والثانية في (مراكش) وتدعى (الكتبية).

وسألها (مارك) عن المدينة الواقعة عبر نهر (أبي رقراق) فقالت : «إنها (سلا) وهي مدينة أقدم من (الرباط) العاصمة».

وشرحت له كيف أن موقع العاصمة يتمتع بجاذبية خاصة لبناء المدن، فهو يجمع خمس مدن كانت في الماضي كاملة الاستقلال، آهلة بالسكان، وهي (الاوداية) و (شالة) و (التواركة) التي تضم القصر الملكي، إلى جانب (سلا) و (الرباط). وكلها تقع داخل دائرة لايتعدى قطرها الثلاثة كيلومترات !

وغابت الشمس، وسمعت (آمنة) قرقعة البوق والمؤذن يعده لأذان المغرب، فزادت حدة مغصها... وعرفت لماذا أحست به في البداية، فقد كانت مشغولة عنه بالكلام مع (مارك)..

كان أحد مؤذني الجامع ذا عاهة صوتية واضحة تجعل صوته كريهاً مزعجاً، إلى جانب انعدام الحاسة الموسيقية عنده بحيث كان يصدر عنه زعيق نشاز ينفر ولا يبشر، وخصوصاً حين يقع على آذان الزوار الأجانب الذين يعجّ بهم المكان.

وأيقنت (آمنة) المرهفة الإحساس أن العالم سينهار من حولها، وأنها ستلوذ بالفرار، ولن تعود إلى بيتها أبداً إذا جاء من حظها ذلك المؤذن الرهيب ! فأغمضت عينيها، ووضعت كفيها الرشيقتين على أذنيها في خشية وتوقع، وأخذت تبتهل إلى الله أن ينقذها من ذلك الحرج الكبير، ومن ذلك الصوت المنكر الذي لابد سينفر (مارك) من الإسلام الذي بدأ قلبه ينشرح له !

وفكرت في أن تفرّ به من هناك. ولكن هيهات ! فصوت المكبر يغطي الحي بأكمله !

واستجاب الله لدعاء (آمنة) البريئة الطاهرة، وهدأ من روع قلبها المؤمن الصغير، فانطلق من أبواق المسجد والصومعة صوت مؤذن رائع بأذان الحرم المكي الشريف، ينعش النفوس، ويرعش الأكباد، ويحبب للمومنين الاستجابة لنداء الله.

وتنفست (آمنة) الصعداء، ونزل العبء الثقيل عن كتفيها الصغيرتين، وابتعد شبح المؤذن البشع، وما كان سيتركه في نفس (مارك) من آثار سيئة باقية.

ونظرت إلى وجهه الوسيم مرتبساً على حمرة الشفق القاني، وهو ينظر إلى مصدر الصوت الشجي العامر بالإيمان والحنان، وقد أحس بخدَرٍ ناعم، ونشوة عارمة تسري في جميع حواسه.

ورأت (آمنة) بعين قلبها الطاهر بستاناً شاسعاً من الزهور البيضاء تتفتح في مكان ما من قلب (مارك).

الرباط - أحمد عبد السلام البقالي



قائمة
بآخر ما طبعته وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية من الكتب
بأمر من مولانا أمير المومنين جلالة الملك الحسن الثاني حفظه الله

1. الدروس الحسنية الرمضانية لعام 1407 باللغات:
العربية والفرنسية والانجليزية والاسبانية.
2. الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم (في جزئين).
3. الأجزاء: العاشر والحادي عشر والثاني عشر من "المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز"
4. الأجزاء: السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر من "التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد".
5. أقرب المسالك إلى موطأ الإمام مالك.
6. أمير المومنين عمر بن الخطاب الخليفة المجتهد.
7. الجزء الثاني من نوازل الفقيه العلمي.
8. علم المواقيت أصوله ومناهجه.
9. الجزء الثالث من "إضاءة الراموس على إضاءة القاموس"
10. خطب الجمعة للشيخ محمد المكي الناصري.

فهرس

دراسات إسلامية :

أبحاث ودراسات :

ديوان المجلة :

دراسات مغربية :

Moulay Ismaïl, la mosquée de Bab Guissa, une des portes de Fès El Bali, est de date plus récente.

Tous les oratoires alaouites comportent invariablement des nerfs, en petit nombre, dirigées dans le sens transversal, selon le type qui, s'affirment dès la première heure se maintient (sauf interruption à l'époque mérinide) dans la ville d'Idriss, depuis un millénaire.

A Rabat, Jama-Es-Sounna qui s'élève en dehors de l'enceinte des Touargas, est l'œuvre de Sidi Mohammed Ben Abdellah achevée en 1785; elle fut restaurée dans la seconde moitié du XIX[eme] siècle, puis tout récemment. Au fond d'une cour, la plus vaste avec celle de l'oratoire de Salé, de tous les sanctuaires du Maroc, s'alignaient seize cellules occupées par des étudiants. L'ensemble architectural d'un type particulier, était similaire à la mosquée de Lalla'Ouda, à Meknès. Mais, une refonte partielle de la structure externe, à cette mosquée en fait un champ d'expérimentation où l'artisanat marocain rénové, s'est donné libre cours, pour recréer une synthèse artistique qui dotait ce temple célèbre d'un ensemble architectural équilibré et plein d'attrait. Tout l'attirail classique y figure mais harmonieusement marqué d'une teinte moderne. Le Mausolée Mohammed V, est un creuset admirable où le Mauresque prime l'andalous et le domine, cette réalisation grandiose est digne de son promoteur le Roi Hassan II. Musée où une archéologie séculairo-religieuse constitue une exposition permanente où les touristes du monde entier viennent, à toutes les heures, adminrer une symbiose si magnifiquement marocaine.

C'est surtout, par la moulure particulière de ses points d'appui que l'architecture maghrébine prend une allure originale. La structure des colonnes, des arcs et des divers supports a évolué, au cour des siècles pour prendre une forme finale sous les Chérifs. De la colonne de marbre sobre des premiers Almohades à la colonne fine et élégante des Mérinides, la sculpture est passée par toute une gamme de formes d'une vitesse incomparable. Le chapiteau cordouan, importé à la Koutoubiya de Marrakech et à la mosquée de Tinmel, a insufflé une implusion nouvelle à cette forme de l'art.

Le type du chapiteau mauresque est fixé au temps des Mérinides et il accuse des tendances propres à tout l'art de l'Islam : l'applatissement des reliefs et la substitution des panneaux faiblement défoncés aux formes de saillie vigoureuse.

L'arc a connu la même évolution qui aboutit à l'arc brisé outrepassé qui, « par sa stabilité, sa facilité d'exécution, par la liberté et la variété des courbes qu'il autorise, par sa fréquence à toutes les époques, est un des éléments caractéristiques de l'architecture maghrébine ».

Au XI[eme] siècle, la sculpture sur marbre et sur ivoire a été moins florissante que la sculpture sur bois, pratiquée par les mêmes artisans. Les chaires à prêcher de la Qaraouyène de Fès, de la Koutoubiya et de la Qaçba de Marrakech, surpassant par la finesse de leur sculpture, leur richesse décorative, « l'Art oriental du bois sculpté ».

Le coloris (dont les motifs remontent déjà à l'époque Almohade, comme en font foi les récentes découvertes faites au-dessus du Mihrâb de la Qaraouyène), donne une place importante à la polychromie.

Le « Habous » ou le « Waqf » a joué un rôle considérable dans la vie culturelle, artistique, sociale et économique de la communauté musulmane.

Les édifices du culte dont un grand nombre constitue de véritables œuvres d'art, ont toujours été l'objet d'une attention particulière. Des crédits, sans cesse croissante, étaient affectés à leur entretien ou à leur restauration. De nouvelles mosquées s'érigeaient çà et là, revivifiant l'art andalous, dans sa splendeur pittoresque. Des chefs-d'œuvres dignes des glorieuses époques assuraient ainsi la pérennité de l'art maghrébin ouhispano-mauresque.

élégante et la plus riche comme ornementation », le prince n'aurait pas osé la laïciser complètement et aurait sincèrement cru devoir couvrir la richesse de décor, par un signe de religiosité. La médersa de Salé présente cette originalité : les quatre galeries qui l'encadrent ne comportent aucune cellule d'étudiant, la médersa Bou Inania de Meknès « établit la transition entre deux types de collège », créés par Abou El Hassan et son fils Abou'Inân (oratoire carré et galeries sur les trois côtés).

Quant à la Bou'Nania de la ville Idrisside, elle est « de toutes les médersas de Fès, la plus monumentale » ; c'est une jamaâ, sorte de mosquée cathédrale, avec minaret et chaire pour le prône du vendredi.

L'avènement des Saâdiens est la réaction contre l'impuissance mérinide à endiguer la poussée victorieuse des chrétiens, dont la « Reconquista » se prolongea sur la terre du Maghreb, par la prise de Ceuta en 1415. L'Islam en danger trouva chez les « missionnaires », fanatisés par des menaces qui se précisaient et s'aggravaient; une force populaire vive entreprit, spontanément, une campagne de propagande dans les tribus et organisa une résistance acharnée, autour des centres régionaux de ralliement : les Zawiyas, les Chérifs Saâdiens, descendants du Prophète, étaient tout indiqués pour s'ériger en champions de ce mouvement contre l'invasion étrangère ; ils dirigèrent la révolution. Mais déjà le territoire national était profondément entamé, les principales villes de la côte étant sous l'emprise des Portugais qui les dotaient de remparts, de citernes, de bastions et d'églises.

Comme édifices religieux Saâdiens, on peut citer la mosquée de Bab Doukkala à Marrakech, construite par Mas-Ouda El Mazguitia, mère d'El Mansour, où le style mérinide (cour carrée), s'allie harmonieusement à certains aspects du thème almohade (coupoles). Cinq ans plus tard (1562), fut édifiée la mosquée-cathédrale du quartier Mouassîn, avec sa salle d'ablution, le Hammam qui lui était contigû, la petite « médersa », le « msid » la fontaine et un abreuvoir pour les bêtes. Ainsi, la tradition des dynasties précédentes s'est-elle maintenue dans cette répartition.

La mosquée de la Qaraouyène de Fès doit aux Saâdiens deux pavillons qui se font face aux extrémités de la cour. Chacun de ces pavillons abrite une vasque d'ablution en marbre. Le plan architectural semble procéder de celui de la cour des Lions en Andalousie.

Des Médersas furent adjointes aux mosquées ou aux Zawiyas; Marrakech, capitale des Saâdiens, doit à l'un d'eux, Moulay Abdellah, de posséder la plus grande médersa du Maghreb : celle de Ben Youssef qui semble tirer son nom de l'Almorabide Ali Ben Youssef dont la mosquée était voisine, mais qui fut d'après El Ifrani-précédée d'une médersa du Mérinide Abou El Hassan. Elle comporte une centaine de celules et sept courettes. Les tombeaux des Chérifs saâdiens, funéraires remarquables, constituent une dépendance de la mosquée de la Qasba à Marrakech, une nécropole où comme la nécropole mérinide de Chellah, les membres de la famille saâdienne régnante furent enterrés.

Moulay Er-Rachid manifesta le souci de rénover, à la fois, les traditions mérinides et saâdiennes, en renforçant les défenses et en relançant la politique des médersas ». Malgré la brièveté de son règne tout rempli de batailles, il réussit à élever quelques monuments ».

Comme oratoire dû à la dynastie alaouite, figure la mosquée de Lalla'Ouda, construite à Meknès, à l'intérieur dela résidence impériale. Une porte, percée près du Mihrâb, donne sur un passage par où le Souverain accède à son palais dont la Settiniya est occupée actuellement par la famille d'Ibn Zaidan, ancien nakib de la dynastie régnante. A proximité, s'élevaient une médersa et une « Mîda ».

Meknès doit à Sidi Mohammed Ben Abdellah sa mosquée la plus vaste, dite d'Er-Roua ; « remarquable par les proportions de son oratoire et de sa cour ; elle l'est, non moins, par son plan où les éléments traditionnels sont traités, dans un esprit étranger à l'art musulman... ; l'absence de toute allée principale, l'ordonnace de la cour, que n'encadre aucune galerie et la distribution des portes latérales, laissant supposer – dit-on – l'intervention d'un architecte andalous ».

A Fès Ej-jdid, existe une autre mosquée impériale ; due à Moulay Abdellah, fils de

enceinte, en embellissant le sanctuaire et en élevant une seconde mosquée ».

Les dévôts qui devaient jouer, du temps d'Abou Youssef, un rôle capital, dans la société marocaine, sont à l'origine de la recrudescence du mysticisme qui provoqua la création de Zawiyas dont le développement marquera d'autant plus profondément l'ère des Saâdiens et des Alaouites, que certains Sultans accédèrent au pouvoir, grâce au concours bienveillant des Soufis. Souvent, les Zawiyas sont à la fois des maisons de prières, et surtout, des maisons de science ; le rayonnement intellectuel de la Zawiya de Dilâ (Atlas) et de la Zawiya En-Naciria (Le Draâ) attesteront, plus tard, le rôle éminent joué par les deux centres, dans la diffusion de la science, au cœur de la montagne et des steppes marocaines. La Zawiya de Chella adjointe par Abou El Hassan, à la nécropole (ainsi que l'enceinte, le minaret et les latrines) s'apparente, avec son patio, son large bassin, ses galeries et ses chambrettes, à un collège, enrichi d'une même parure architecturale (marqueterie, mosaïque et marbre). La Zawiya En-Nossak, érigée à Salé, par Abou Inan, se signale par un joli portail de pierre sculptée, seule partie encore debout de l'édifice. Cette porte donne accès sur un vestibule bordé d'arcatures et deux couloirs latéraux donnant, l'un sur la cour d'habitation à trois chambres (celle du Cheikh, directeur de la Zawiya) et sur un escalier conduisant à l'étage, l'autre se rendant dans une courette à bassin central, entouré de 11 cabinets.

Les médersas mérinides sont des maisons d'hébergement pour les étudiants, une même empreinte marque ces fondations aussi bien en Orient qu'en Occident où elles sont dues surtout à la manificence des princes. Le collège est annexé à une mosquée où s'organisent les cours suivis par les étudiants logeant dans la médersa; parfois, la médersa elle-même comporte un oratoire avec mihrâb et minaret.

Le plan général est déjà établi depuis le V^{eme} siècle de l'Hégire : un patio encadré par trois rangées de chambres et une salle de prière sur la quatrième face. Un étage consiste parfois en quatre séries de cellules ouvertes aussi sur la cour.

La multiplication des médersas sous les Mérinides est une réaction contre l'almohadisme hétérodoxe ; leur programme intellectuel est la propagation de la doctrine sunnite dont les Mérinides s'érigèrent en défenseurs. Une médersa, c'est aussi une sorte de Zawiya ; elles s'identifient parfois l'une à l'autre, à tel point qu'on est tenté de croire que l'institution procéde, en partie de l'extension du mouvement mystique qui s'arrogea également le titre de champion de la Sunna.

La première médersa mérinide a été fondée en 670 de l'Hégire par Abou Youssef. Elle comporte un oratoire et un minaret. C'est le seul collège appartenant au XIII^{eme} siècle.

Au siècle suivant, une série de médersa vit le jour, comprenant celle de la ville Blanche (Fès El Jdid), édifiée en 720 de l'Hégire (dotée également d'une salle de prière et d'un minaret), celle d'El Attarin, plus les médersas Eççahrij (dite El Kobra) et d'Es-Sba Iyn (dite es-Soghra) qui communiquaient – semble-t-il – l'une avec l'autre et enfin la médersa Mesbahia.

Abou El Hassan, auquel sont dues les trois dernières, dota de médersas les grandes villes du Maroc et d'Algérie, Taza, Meknès, Salé, Tanger, Ceuta, Anfa, Azemmour, Safi, Aghmât, Marrakech, Alcazart El Kebir, El-Eubbâd (Tlemcen) et Alger ; son fils Abou Inân édifia les deux médersas portant son nom à Fès et Meknès.

Il est à remarquer que, tout au début, les médersas comportaient un minaret : le caractère d'oratoire est alors très marqué ; on est en présence d'un plan qui procède à la fois d'une mosquée-école (telle la Qaraouyène) et d'un pavillon d'hébergement.

Plus tard, la structure de la véritable médersa se précise : celle-ci est amputée, d'abord, de son minaret (médersa Es-Sahrij) : puis l'oratoire se rétrécit, pour devenir une grande chambre, sans décor particulier ; le mihrâb lui-même n'est plus creusé et n'est représenté que par un arc aveugle et deux colonnettes. A Salé, la médersa était la seule, dans la ville, à conserver son oratoire et son mihrâb disparaissait complètement. Cependant la dernière médersa due à Abou Saïd, celle d'El-Attarin possède un mihrâb. Il me semble, qu'ayant été « la plus

médine un certain archéologue qui, dans son étude, « Orientation du Mihrâb dans les mosquées », a cru devoir donner une triple explication à ce phénomène, n'a pas décelé les traits de la pensée dhâhirite des Mouwahhidine.

Ces préoccupations salafites des Almohades se doublent du souci d'assurer la symbiose hispano-mauresco-orientale, pour mieux concrétiser l'esprit « unitaire » qui marque l'Islam, dans son dogme aussi bien que dans l'universalisme de son idéal. Cette constatation explique le fait paradoxal qu'est le manque d'unité entre les diverses parties du sanctuaire de Hassan : néanmoins, l'ensemble de la mosquée a gardé une allure d'homogénéité et de concordance. Est-ce là un trait de génie ou l'effet du pur hasard ? Il est indénialle que les Almohades, étant donné l'infrastructure bédouine et le caractère improvisé de leur empire, n'ont pu se constituer un art propre. Ils ne faisaient qu'emprunter les éléments hétéroclites à leurs coreligionnaires d'Orient et d'Andalousie. Je n'ai pas la prétention de fournir une appréciation nouvelle de l'Art tel qu'il a été conçu et concrétisé par les Almohades ! mais, **C'est là une constatation d'autant plus digne d'intérêt qu'elle explique, relativement du moins, certaines hypothèses avancées à propos des particularités du plan et de la structure de la Mosquée de Hassan** et qui laissaient penser à tort, à la préexistence d'une mosquée dont Hassan serait l'agrandissement ou de médersas annexes.

Cet hétéroclisme apparent n'est pas l'effet du « repentir », hypothèse avancée par M. Jacques Caillé dans son ouvrage richement documenté sur la Tour Hassan. M. Caillé n'a-t-il pas constaté lui-même que Yacoub El Mansour a peut-être voulu que « le plus vaste sanctuaire de l'Occident musulman rappelât, par certains points, les premières grandes mosquées d'Orient ». Par ses portiques, le long du mur de la qibla, le sanctuaire de Hassan était une image des mosquées de Médine et de Koufa. De même, l'enceinte extérieure qui entourait la mosquée, l'isolant de la ville de Rabat, n'était qu'une réplique de celles de Samarra et du Caire.

La partie Nord du sanctuaire, comprenant les citernes, s'étend sur une profondeur égale au quart de la superficie totale de la mosquée. Là, s'élève le minaret, occupant une position médiane, (à cheval et en saillie) qui est la seule dans tout l'Occident.

C'est une tour carrée, à l'instar de la mosquée de Damas. Selon les dimensions traditionnelles d'un minaret, la largeur égalant de quart la hauteur, la Tour Hassan ne serait élevée (lanternon non compris) à plus de 64 mètres, ce qui aurait fait d'elle « le plus grand minaret de tout l'Occident sinon de l'Orient ».

Sous les Mérinides, les dimensions des mosquées sont généralement plus réduites et l'ordonnance plus simple que celle des mosquées almohades de Marrakech, de Rabat ou de Séville. Les traits hérités de l'époque antérieure, comme la coupole sur nervures et les arcs lambrequins, sont conservés à la grande mosquée de Taza, que précéda une mosquée du XII^eme siècle, et à la grande mosquée de Fès-la-Neuve. Ces deux édifices établissent, en quelque sorte, la liaison entre le type almohade et le type mérinide. Comme dans les mosquées almohades, la cour est un rectangle large ; les nefs, couvertes de plafonds et de toits de tuiles, sont dirigées dans le sens de la profondeur (neuf à Taza, sept à Fès). Un transept suit le mur du fond et détermine avec la nef axiale le plan en T, souvenir lointain des basiliques chrétiennes (Art de l'Islam, p. 135).

Dès lors, la tradition se maintiendra sous les Saâdiens et les Alaouites qui réalisent une synthèse de tous les aspects architecturaux et des thèmes décoratifs de l'art religieux hispano-mauresque.

L'activité des Mérinides est conronnée par une série de nouveaux oratoires édifiés à Taza, Oujda, Tlemcen puis sous Abou El Hassan à Fès, à El Mansoura près de Ceuta, à Tanger, Salé, Meknès et Marrakech. La religiosité des Souverains mérinides qu'attestent leurs mosquées, se manifeste également dans les sanctuaires qui furent joints à leurs tombeaux.

Dans la nécropole de Chella (la sala Colonia Romaine) aux portes de Rabat, les Sultans et leurs proches, depuis Abou Youssef (1286) jusqu'à Abou El Hassan (1339), vinrent reposer dans une terre sanctifiée par le voisinage du Ribât. « Ce fut Abou El Hassan, le dernier champion mérinide de l'Islam, qui lui donna un aspect grandiose, en l'enfermant dans une

intacts, avec peu de redites où « la virtuosité des artistes s'est donnée libre cours ». L'art des chapitaux fit preuve alors d'une inépuisable fécondité qui ne s'était jamais vue encore dans l'Occident musulman et qui ne se reverra plus.

Quant au minbar, la chaire de la Koutoubiya, il suffit de citer un grand connaisseur, Ibn Marzouq qui prit une large part dans l'édification des monuments mérinides de Tlemcen : « Les grands artisans accordent dit-il-que le minbar de la mosquée de Cordoue et celui de la mosquée des libraires de Marrakech (la Koutoubiya) sont ceux qui furent le plus remarquablement travaillés : car, si l'on en juge par leurs constructions, les Orientaux ne savent pas sculpter le bois avec élégance ». Ce minbar date d'Abdel Moumen (Al Holal, de Tunis page 109). Pour (Terrasse et Basset). cette chaire est bien « la plus belle de tout l'Occident musulman et peut-être la plus belle de tout l'Islam » (page 169).

Parlant de la Tour Hassan, de la Giralda de Séville et de la Koutoubiya de Marrakech : trois sœurs, filles d'In Youssef d'Almohade, (Millet) dit : « Ces trois tours célèbres ne valent pas seulement par la masse et par l'équilibre ; leur forte carrure, leurs proportions à la fois élégantes et robustes, la sobriété des arabesques, le goût sévère qui les encadre et le contient sans leur permettre de rompre l'unité de l'ensemble, tout porte l'empreinte du sultan magnanime, restaurateur de la foi, conservateur de la tradition » (Les Almohades, page 128).

La mosquée de Hassan est un monument admirable qui devait réaliser, à mon sens, dans l'esprit de ses fondateurs, la symbiose des arts oriental et hispano-mauresque. Symbiosant la puissance des Almohades, leur sens de la grandeur, leur goût de l'harmonie majestueuse et simple, elle illustre un gigantesque effort de synthèse d'une dynastie « unitaire » qui s'ingéniait à représenter l'Islam, dans sa pureté originelle et sa sobre magnificence. Ce sont là des caractéristiques qui définissent l'art almohade, en général, et qui expliquent, en même temps, certains aspects d'allure insolite. On n'en a pas toujours tenu un compte adéquat dans la reconstitution de la pensée socialo-religeuse des « Mouhhidine » et de leurs conceptions artistiques.

La mosquée de Hassan est sise au Nord-Est de Rabat, sur un sol en forte déclivité, à une altitude près de 30 mètres au-dessus du niveau de la mer. Son nom qu'elle tient peut-être d'une tribu de la région de Rabat : Les Beni Hassan figurent déjà au VII^{eme} siècle de l'Hégire, chez l'auteur de « l'Hisoire des Souverains du Moghreb »... la construction de cette mosquée, la deuxième après celle de la qaçba des Oudaïa, due aussi à l'initiative almohade, remonte à Yacoub El Mansour qui, d'après Al Qirtâs (page 193) en aurait complété les travaux en l'année 593 de l'Hégire, vers 1197 après J.C.). Mais il semble, d'après les indications d'Al Marrakchi, auteur du Moôjib, que cette construction s'échelonna tout le long du régne d'Al Mansour, nécessitant ainsi plus d'une décesine. Al Himyari précise, dans son « Rawd » que sept cents captifs chrétiens y ont été employés.

La tour de ce sanctuaire est le plus récent des grands minarets almohades ; elle a été édifiée, après celle de la Koutoubiya de Marrakech et la Giralda de Séville. Une tradition andalouse en atribue la conception Architecturale à un musulman sévillant. Léon l'Africain parle de cette tour « si longue que 3 à 4 cheveaux y montaient de front et au sommet de laquelle on découvrait les navires à ving lieues en mer ».

L'oratoire, de forme sensiblement carrée et occupant les trois-quarts de l'édifice, donne l'impression d'une netteté géométrique majestueuse, grâce à l'aménagement harmonieux des colonnes séparant des nerfs espacées, flanquées de sahns latéraux qui livrent passage à une rayonnante clarté. Le mihrâb, auquel aboutit la nef axiale, se différencia, par sa forme carrée et ses dimensions, de tous les mihrâbs du Maroc. Légèrement incliné de la quibla, comme dans certaines mosquées, telle la Qaraouyène, ce mihrâb illustre la tendance salafia des Almohades qui voulaient marquer, partout et en tout, leur attachement à la tradition du Prophète. Certes, on se prévalait, à l'époque, d'un hadith précisant que « la qibla se situe entre l'est et l'ouest », sans se soucier que cette définition de la qibla, par le Prophète, cadrait seulement avec la position géographique de

prospère qui se vit désormais concurrencer par la capitale de fondation récente : Marrakech.

L'Espagne devint alors une province almoravide où l'art connaîtra un renouveau de prospérité, au cours de deux générations.

La mosquée et l'art

Les Almoravides ont construit un grand nombre d'édifices religieux dans le Maghreb central (mosquée d'Alger, de Redroma, de Tlemcen et au Maroc (médersa Es-Sabirine à Fès et ancienne mosquée de Marrakech.

Parlant de l'Art almoravide, H. Terrasse fit remarquer que Ali dépassa, de loin, l'œuvre monumentale de son père Youssef, fondateur de villes et grand bâtisseur. Les palais et les sanctuaires qu'il édifia à Marrakech ont, à l'exception d'une qobba été détruits par les Almohades ; mais ils nous reste la mosquée de Tlemcen et la plus grande partie de la Qaraouyène où « triompha un art andalous importé sans changement, tel que le XI^{eme} siècle l'avait élaboré avec la subtilité et la richesse profuse de ses ornements ».

Un sectarisme religieux amena au pouvoir les Almohades dont l'inspirateur, Ibn Toumert est cette fois-ci un sédentaire du Haut-Atlas. Son successeur Abd El Moûmen est « la plus grande figure, sans conteste, de tout le Moyen Age berbère ; chef de guerre et organisateur, il réalise, pour la première fois dans l'histoire de l'Afrique du Nord, ce tour de force de tenir, en sa main, tout le pays de l'Atlantique à la Tripolitaine ».

Ainsi donc, en réalisant, pour la première fois, l'unité politique de l'Islam, des frontières de la Castille à la Tripolitaine, les Almohades contribuèrent à l'élaboration d'un sorte de syncrétisme de l'Art Musulman Occidental.

Yacoub El Mansour, imprimera à cet Art une teinte nouvelle et réalisera, en harmonie avec l'école de Kairouan, la symbiose orientalo-maghrébine.

L'architecture religieuse almohade se concrétise majestueusement dans les mosquées des libraires à Marrakech, de Hassan à Rabat et dans la Giralda de Séville.

Au centre du minaret de la Koutoubiya s'étagent des chambres voûtées, communiquant, par une rampe centrale sans gradins. Les mêmes dispositions se répéteront à la Giralda de Séville et la Tour Hassan de Rabat. Les murs sont enduits d'un beau ciment jaune grisâtre, encore en usage à Marrakech et sur lesquels se reflète un flot de lumière, glissant par de larges baies ménagées dans l'épaisse muraille. La rampe se relie, avant le sommet, à un escalier qui rejoint le lanternon. Fleurons et palmes se succèdent dans le décor floral, à la fois vigoureux et raffiné. Au rez-de-chaussée, simple coupole conique sur trompes, d'après le style musulman et mudéjar, tandis que la sixième et dernière salle possède la plus riche coupole : un dôme octogonal à nervures et à stalactites, composant un magnifique décor géométrique. Mais, dans l'ensemble du minaret, on ne relève aucun élément nouveau touchant le style et l'allure en vogue dans le Maghreb, sinon les grandes proportions de la tour et du lanternon et l'harmonisation originale des décors. La koutoubiya est « le santuaire par excellence du Khalifat d'Occident qui devait égaler précise (Terrasse et Basset) dans le style nouveau, les splendeurs de la grande mosquée cordouane. L'impression, quand on entre dans ce vaste oratoire est saisissante. Les mosquées almohades sont les plus parfaites de l'Islam ». C'est une forêt de piliers où l'on admire la majesté des travées et des nerfs, la pureté des arcs dans leurs perspectives infinies, l'harmonie souveraine de la grande travée-nef, coupée à larges intervalles par la double ligne, ligne claire et ligne sombre de ses grands arcs à stalactites, sous ses coupoles somptueuses et ses hauts plafonds de bois. Au fond de l'oratoire obscur, se distinguent la blancheur douce du Mirhâb, les ivoires jaunis de la chaire, les éclats ternis des mosaïques : une impression intense de grandeur calme. « La mosquée de Cordoue, quoique plus vaste, ne présente pas la même harmonieuse unité ». N'empêche que bon nombre des chapiteaux de la Koutoubiya sont d'origine andalouse ; quatre surtout, soutenant l'arc du Mihrâb, sont dûs à l'art omeyade. Mais l'oratoire de la Koutoubiya demeure « un véritable musée de chapiteaux almohades au nombre de plus de quatre cents, demeurant

contre le Mihrâb et tout autour de son ouverture, le tout étant rehaussé de peinture dorée, bleue azurée et d'autres tons. Sur les fenêtres ajourées se trouvant sur les côtés de la coupole, on fixa des variétés artistiques de divers vitraux dits Chemmasiât. On revêtit quelques portes «d'un placage de cuivre jaune, d'un travail achevé et d'une technique parfaite ».

Toutes ces sculptures et dorures furent recouvertes de papier puis d'une couche de plâtre, lorsque l'Almohade Abdel Moumin résolut d'entrer à Fès et de venir prier à la Qaraouyène.

Le Qirtâs précise que la veille de l'entrée à Fès d'Abdel Moumin et des ses compagnons almohades (15 rebia II 540 – 15 avril 1145), « les Fassis, pris de peur, à cause de la vie sordide et de l'hypocrisie des Almohades, envoyèrent des plâtriers à la grande mosquée pour masquer, avec du papier, les sculptures et les dorures se trouvant au-dessus du Mihrâb et et les enduire de plâtre puis y passer la chaux ».

Commentant cette anecdote, G. Marçais prétend qu'il n'y a peut-être là qu'un récit inventé pour expliquer la nudité ou la blancheur de la coupole précédent le Mihrâb de la Qaraouyène.

Les fouilles effectuées à la Qaraouyène par le Service des Beaux-Arts, au cours des travaux de restauration, entrepris au début de 1952, viennent confirmer les dires dudité ou la blancheur de la coupole précédent le Mihrâb de la Qaraouyène.

Les fouilles effectuées à la Qaraouyène par le Service des Beaux-Arts, au cours des travaux de restauration, entrepris au début de 1952, viennent confirmer les dires d'Ibn Abi Zar'. Le décor dégagé s'avère d'une splendeur remarquable, mais il ne comporte pas de dorures comme le prétend Ibn Abi Zar,. La sculpture est peinte de bleu, rouge et ocre jaune, le coloris étant très tenace et demeure encore dans toute sa fraîcheur. Il semble que le mélange comportait du jaune d'œuf. La peinture mate, non vernissée, adoucit le scintillement des jeux de lumière.

Le grand lustre, exécuté vers 617 (1220) ; pesait « dix-sept quintaux et un quart » ; sa circonférence de base est longue de « trente-deux empans » ; le nombre des godets des veilleuses est de « cinq cent vingt ».

Le Moustaouda (dépôt du mobilier et des revenus habous de la mosquée) a été construit, à la même époque, ainsi que Dar El Oudoû à quinze logettes, avec chacune une porte à deux battants et une fenêtre au plafond qui formait un dôme de plâtre avec encorbellement à stalactites, peint de diverses couleurs. C'est un artisan de Sijelmassa qui construisit le bassin et la vasque.

En 692 (1223), on construisit une fontaine décorée de plâtres sculptées de pierres lisses et de pierres découpées, le tout peint de couleurs variées et une maqsoura, en bois de cèdre sculpté.

Quant à la bibliothèque, ce fut le Mérinide Abou Inane qui l'édifia vers 750 (1349) et la dota de livres du Coran « embellis d'enluminures, précieux et riches » que les fidèles lisent dans la belle chapelle dont les murs sont revêtus de lambris à moulures et enduits de peinture polychrome.

La ville de Fès était, aux X^{eme} siècle, fit remarquer Gustave le Bon, une rivale de Baghdad et possédait, d'après les historiens arabes, 500 000 habitants, 800 mosquées et une bibliothèque riche en manuscrits grecs et latins (la civilisation des Arabes, page 263).

Au XV^{eme} siècle, l'épouvantail de la « Reconquista » espagnole commença à s'agiter et, les dissensions entre princes musulmans aidant, un grave danger obscurcit l'horizon. Le domaine de ce qu'on appelle « L'Islam Occidental est de plus en plus entamé. Un appel est lancé au fondateur de la dynastie puritaine saharienne : Youssef Ibn Tachefine.

Répondant à l'appel réitéré, le prince almoravide, défenseur intrépide de la foi et de la pureté originelles de l'Islam, se fit un saint devoir d'entreprendre une randonnée à travers l'Andalousie musulmane, menacée par la poussée chrétienne. Après un triomphe éclatant sur la chrétieneté, le héros maghrébin se vit dans l'obligation, pour réunifier la péninsule sous le sceau de l'Islam et en rehausser le prestige, d'éliminer les chefs indignes dont Al Mo-Tamid, prince de séville, qui vint terminer humblement ses jours à Aghmat, ville jadis

politique du khalifa, s'émancipe, sous l'impulsion d'un alide, Idriss 1er, père de la monarchie marocaine.

Le Maghreb accentue son islamisation et s'arabise de plus en plus, imprégné de l'esprit nouveau que lui insuffle ce descendant du Prophète.

Fès est, alors, le premier centre arabe qui voit le jour en terre marocaine; elle sera bientôt, d'après Gautier, un « miracle d'adaptation à l'état oriental ».

Sous le règne de Yahya, petit-fils d'Idriss, fondateur de Fès, des émigrants s'établirent dans cette ville. Venant d'El Qairouan, Mohamed Ben Abdellah El Fihri s'y installa avec beaucoup de ses concitoyens dans la Adoua (quartier) dite des Qaraouyène.

En mourant, il laissa deux filles : Fatima, surnommée Oum El Banine, et Maryem qui consacrèrent leur héritage considérable à des œuvres pies; sachant que les habitants avaient besoin d'une grande mosquée , (les mosquées existantes fondées par Idriss II étant devenues trop étroites), elles décidèrent de doter les deux Adoua de nouveaux oratoires. Fatima en construisit un, au quartier El Qaraouyène, et sa sœur à El Andalous. Les fondations de la Qaraouyène furent jetées en l'an 245 (859 après J.C.), en prenant comme orientation du Mihrâb, celle de la mosquée des Chorfas, fondée par l'Imâm Idriss. La mosquée eut d'abord quatre travées, à partir du mur de la Qibla où est creusé le Mihrâb, sorte de niche indiquant la direction de la Mecque, vers laquelle doivent se tourner les Musulmans en prière.

Chaque travée comprenait douze arcades d'Est en Ouest. Le Mihrâb fut placé dans la nerf où se trouve le grand lustre aujourd'hui ; derrière, fut aménagée une petite cour, et, au nord de celle-ci, un minaret, à l'endroit où se trouve actuellement la 'Anza.

Sous les Zenètes (vers 307-919), la Khotba (prône prononcé du Minbar (chaire) le vendredi à midi) fut supprimée de la mosquée des Chorfas, devenue exiguë pour la population de Fès, en perpétuel accroissement et transférée à la Qaraouyène. On y éleva une chaire en bois de pin.

Sous l'Omeyade andalous, Abderrahman Ennacer, dont l'autorité proclamée par les Zénètes fut reconnue par les Fassis, la mosquée de la Qaraouyène a été restaurée et agrandie. On y ajouta quatre travées à l'ouest, cinq à l'est et trois au nord, sur l'emplacement de l'atrium, après avoir démoli le minaret, qui était très haut et qui dominait les intérieurs voisins ; il fus rebâti ailleurs et son architecture n'a pas été modifiée depuis cette époque.

Une inscription sculpée sur le minaret indique que ce travail de construction fut achevé en l'an 345 (965 après J.C.). Au sommet de ce minaret, on aménagea une petite chambre sur le dôme de laquelle furent placées des boules dorées, fixées sur une barre, portant à l'extrémité l'épée d'Idriss II, le fondateur de Fès. C'est à la suite de l'appel du Muezzin de ce minaret que les Muezzins des autres mosquées de la ville appellent les fidèles à la prière.

Sous la petite chambre du Minaret, une chambre plus grande abrite les Muezzins comportant la cellule du Mouaqqit, chargé de la détermination des heures. Il y eut, en effet, en divers endroits du minaret, des plaques de marbre (cadrans solaires) ; au milieu de chacune de ces plaques rectangulaires, était une tige dont l'ombre portée sur les lignes tracées sur le marbre indiquait les moments de la journée et les heures de prière.

Plus tard, sous le Mérinide Youssef, qui régna en 685 (1286-1307), un vaisseau de faïence a été placé dans la chambre d'en haut. Ce vaisseau était rempli d'eau à un niveau où aboutissait un tuyau de cuivre marqué de divisions.

L'Amiride El Moudaffar fit faire un nouveau Minbar « en bois d'ébène, de jujubier et d'autres essences », mais le Minbar actuel, qui date de l'Almoravide Ali Ben Youssef Ben Tachefine, est fait « en bois de santal, d'ébène, d'oranger, de jujubier, avec des incrustations d'ivoire ».

Parmi les agrandissements de la Qaraouyène, figure la porte donnant sur le quartier des Notaires, construite en l'an 505 (1111-1112) par les Habous ; à l'extérieur de cette porte, fut élevée, en l'an 617 (1220), la coupole à stalactites de plâtre (mouqarbas). Quant à la porte dite Bâb Ech Chemma'In, elle a été sculptée

L'œuvre architecturale des Habous pendant 12 siècles

Abdelaziz Benabdellah
Membre de l'Académie du Royaume du Maroc

La symbiose de l'architecture orientalo-maghrébine et hispano-mauresque a doté l'humanité d'une fresque vivante cristallisant l'Art islamique dans toute sa splendeur. Après une période de décantation, cet Art a pris ses formes classiques dont nous allons essayer d'esquisser un portrait adéquat, mettant en relief les secrets des ses réalisations grandioses.

Le premier royaume arabe implanté au Maroc est celui qui eut pour capitale la cité de Nekkour, sur les côtes riffaines de la Méditerranée et pour prince le Himiarite Salah Ben Mansour, au temps de l'Omeyade El Walid. L'Islam capta alors les cœurs des Sanhâja et Ghomara et les fondations d'un premier Ribât furent alors jetées par Saïd, fils de Salah comportant une mosquée et des annexes dont le plan architectural s'inspirait de la mosquée d'Allexandrie.

Le style était alors très simple, même en Orient qui est une des sources d'inspiration maghrébine. On ne trouve dans la mosquée de Amr (compagnon du Prophète et gouverneur d'Egypte), par exemple, ni arabesque, ni ornements en stalactites, ni tous ces détails qui doivent caractériser, plus tard, l'art arabe.

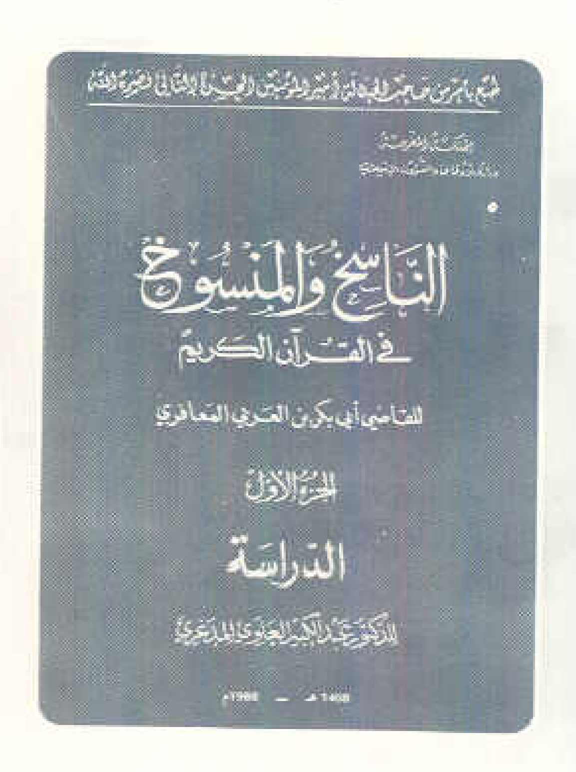
Une mosquée très rudimentaire, élevée à Aghmât Ghailâna en l'an 85 de l'Hégire semble être le premier édifice religieux construit par les Musulmans au Maroc; ce fut d'ailleurs à cette date que l'islamisation du Maghreb El Aqça débuta, que les anciens oratoires païens, dont les plus grands furent dotés de minbar (chaire), ont vu leur Qiblâ s'orienter vers l'Est et que l'Afrique commença à évoluer dans l'orbite orientale.

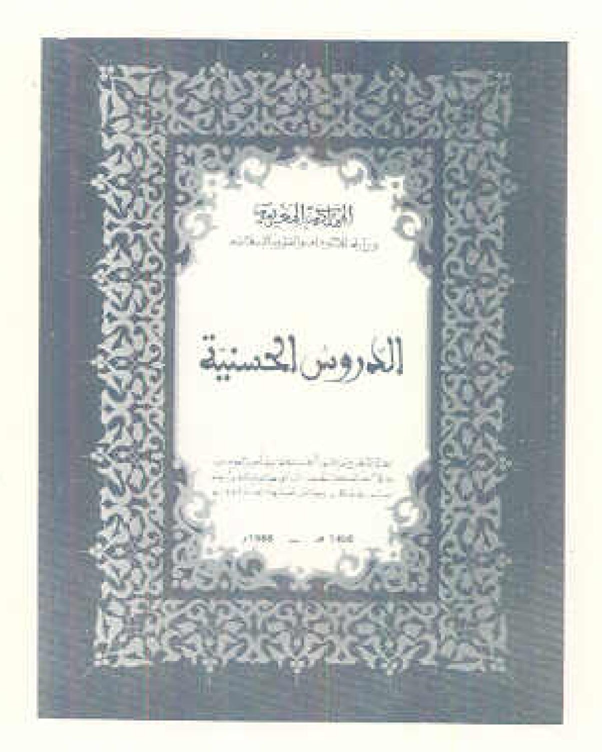
La berbérie n'est plus, à partir du VII^{ème} siècle, fit remarquer G. Marçais, qu'une étape sur la grande route qui va de l'Inde aux Pyrénées, route que parcourent, outre les agents des khalifes et les ambassadeurs, les pélerins, les étudiants, les artistes et les marchands. On ne saurait donc minimiser « l'influence permanente du berceau de l'Islam transmise par ces voies » (Manuel d'Art Musulman, Préface T. 1).

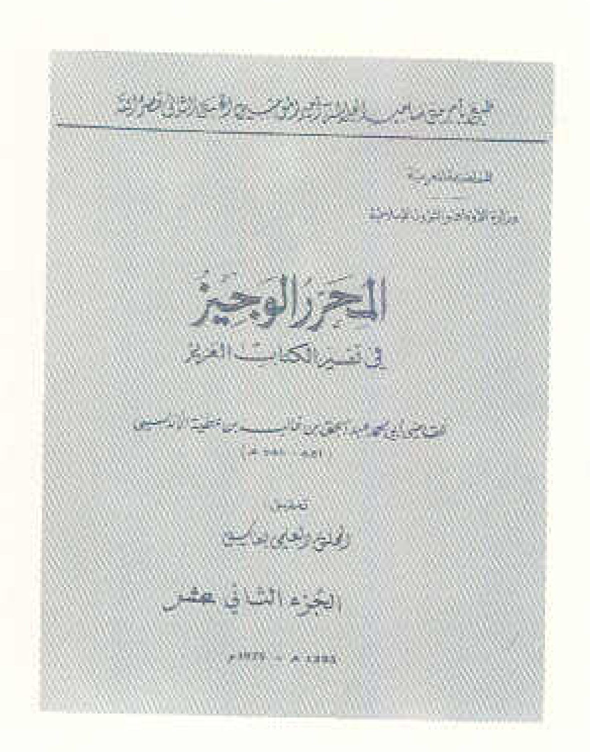
L'éclosion d'oratoires, avec leur style nouveau fut une des premières manifestations de cette influence au Maghreb.

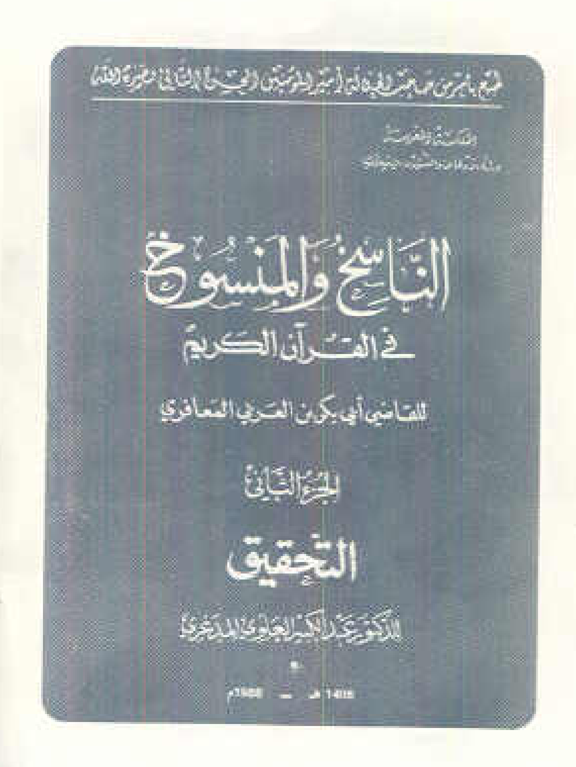
Les provinces africaines les plus lointaines s'islamisent, et le Maroc qui s'intégrait, à un moment donné, dans la grande communauté

من مطبوعات
وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية









التوزيع : مكتبة الأوقاف، 5 زنقة بيروت، ساحة المامونية، الرباط

